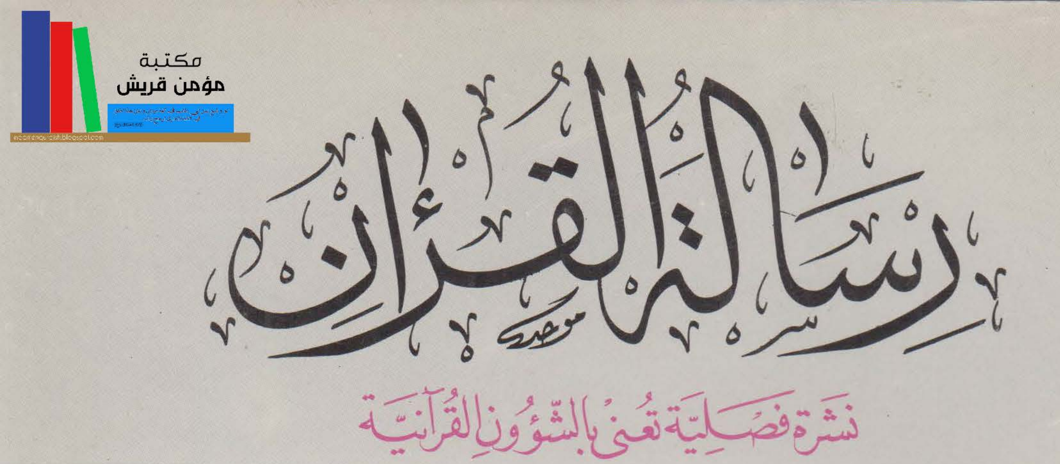
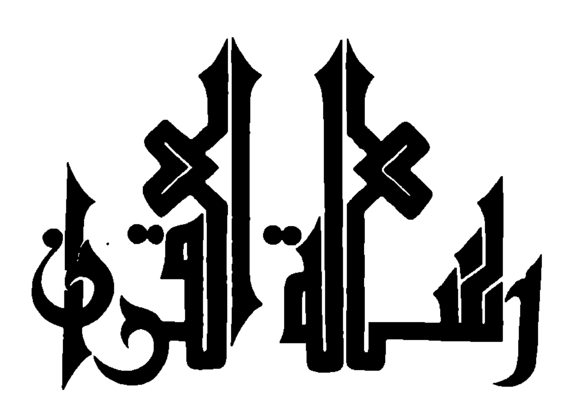


نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

العدد الرابع عشر · ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية ١٤١٤ هـ

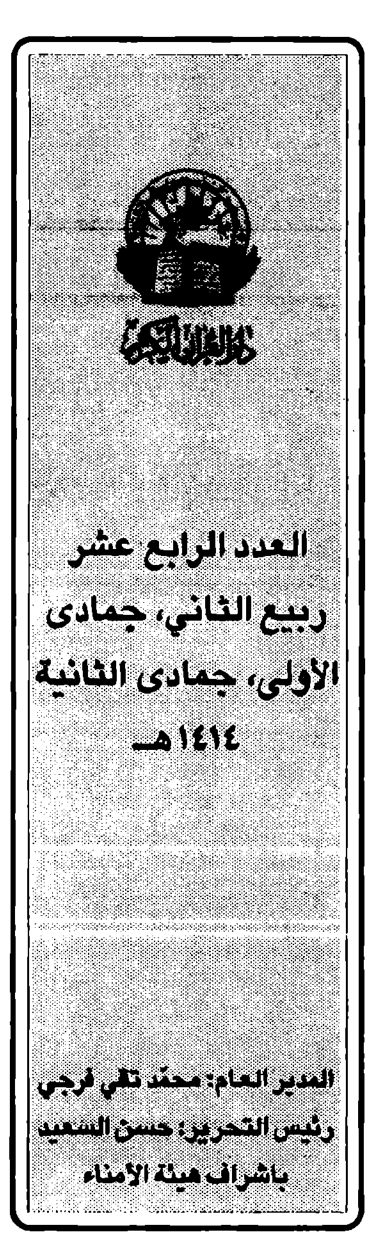






نشرة فصليّة تعنى بالشؤون القرآنيّة

تصدرها دارالقرآن الكريم



العدد الرابع عشر

ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية

١٤١٤ هـ

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم ـ دارالقران الكريم

ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنيّة.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها.
- النشرة غير ملتزمة باعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

الثمن: ١٠٠ تومانا أو ما يعادلها

المحتويات

● ملف رحيل آية الله العظمى السيّد الكلپايكاني «قدّس سرّه»

● كلمة الرسالة:

● القرآن ... والمجتمع: [ملف خاص]

بسم الله الرحمن الرحيم

وا أسفاً على رحيل صائن تخوم القرآن!

السيد محمد مهدي برهاني

تعريب: عباس ابوسعيدي

أيا من رقد وسط ثنايا الثرى المطمئنّ، هانئاً . . . هلاّ نهضتَ، فإنّ حادي رَكبِ معاشر الأحرارِ لا يُغَيِّبُ،

وهامات خيل فيالق الحب الشامخة لا يزيّنها ارتياح . . .

لقد وهن العزاء منّا عن ان يخمد أو يذوي . . . أو يتأزّر سواداً فيهيم على وجهه . . . أو ينتحب فيكفكف دموعه نجوىً،

وغدت تلك الدموع هيما كبئر برهوت لإنجذام حبل وصالك

ترجع البصر بانتظار السّحاب الثقال، تستفيئها الى سَوْق لجج من شآبيب الدّماء فتجرفها،

يا قُنّـةَ الجَلَدِ السّامقة . . . مـا صنَعَتْ جارحتـاك اللّطيفتان الحنونتـان بأرواحنا السّادمـة المثقلة حتى تصطبـغ الافئدة المقروعة، وتثقل بذرور أساك الأرج، الجاثم عليها،

ويسلب صدى رحيلك الصّاخب الخِشفَ الناعِسَ بعيداً عن أحداق أودّائك الكليمة، . . .؟

أيُّ سروة نبيلة النجّار أنت مجدها المورق البهيُّ،

أيُّ جمع بنُزُلٍ انت كوكبه الدُّرّيُّ،

أيُّ حديث حلو أنت زخرفه البهيج، الذي انبجس لاجله كلُّ هذا الرجيج . . .؟

أيُّها الفاتح الميمون لقمم الجلال،

يا مثاور ميدان التقوى المحكم قبضته،

يا خفير ثغور الدّين المزئر . . . يا ليث أيكة الزهد الهصور،

أيُّها المنافح الفذ الحافد في حَزَنِ الإخلاص وسَبَخِه،

في خِضَـمِّ تَرَنُّمات تسبيحك المتّقدةِ في سُدُف الغـاسق الادهم وغيهبـه ـ ايّةُ أُحجية مغشيـة استثارت مساقـط دموع الظامئين لكوثر كمالك،

فثجّتْ قُعْباً من سُمِّ الشّوكران الآجن في أفواه العالمين؟!

فيا أسفاً على رحيل صائن تخوم القرآن اذ لا صنو له،

والمدافع عن حرمة الإيمان، إذ لا ندَّ له،

ومصباح الهدى الوهّاج، إذ لا كفءَ له،

والدُّرّة اليتيمة لعيبة أسرار العلم التي لا تضاهى،

وقطب حشود المتيّمين بالإمامة ان دارت الرّحى،

وَقَبُّ مدار فراش الولاية وموئلها،

وفنيق معترك الفقاهة بلا مضارع. . .!

أيا حسرةً على ظعنة رجل الرجال . . فقد خوى ولا محار . . .!

المصاب الجلل

«إنّا لله وإنّا اليه راجعون»

والمجلّة قيد الإعداد، فُجع العالم الاسلامي عامّة وأتباع مذهب أهل البيت خاصّة برحيل مرجع الطائفة آية الله العظمى السيد الگلپايگاني «قدّس سرّه الشريف» اذ وافاه الأجل المحتوم ليلة الجمعة ٢٤ جمادى الثانية ١٤١٤هـ إثر نوبة قلبية لم تمهله طويلاً.

و«**رسالة القرآن**» التي هي نفحة مباركة من النفحات الرسالية للراحل الكبير، اذ يعزّ عليها ـ وعموم حَمَلَةِ المعرفة ـ هذا المصاب الجلل . . . ولسان حالها:

لا صوّت الناعي بفقدك إنّه ... يوم على آل الرسول عظيمُ

فانها تلتمس العزاء في أنّه قضاء الله وقدره الذي لابد منه: **﴿إنّك ميّتٌ وإنَّهم ميّتُون﴾** وتلك هي مشيئة الله التي لا رادَّ لها.

وبهذه المناسبة الأليمة، ليس بوسع هيئة التحرير إلاّ أن تتقدم بأحرّ التعازي لإمام العصر والزمان(عج) وقائد الثورة الاسلامية والحوزات العلمية . . . وبيت المرجع الفقيد ـ ممثّلاً بنجله حجة الاسلام والمسلمين سماحة السيد جواد الگلپايگاني حفظه الله ـ ومريديه ومقلديه وجميع مسلمي العالم.

سائلين المولى العلّي القدير أن يتغمّده برحمته الواسعة، وأن يجزيه خير ما يجزي عباده الصالحين.

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلّي العظيم . . .

التحرير.

مكتب المرجع الراحل ينعى الفقيد السعيد (رض)

وبهذه المناسبة بادر مكتب سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني قدس سره الشريف الى اصدار بيان تأبيني وفيما يلي نصه:

مع الشكر والعرفان لجميع المؤمنين والشرائح المختلفة الذين غمرونا بألطافهم سواء أكان ذلك بأحاسيسهم الصادقة وأدعيتهم الخالصة أو بالزيارة والحضور في المستشفى أثناء فترة إنتكاس صحة الزعيم الجليل لعالم التشيع سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني (قدس الله نفسه الزكية) نعلن لكم ببالغ الأسى والأسف بأن الشمس التي أشعت لأكثر من ثلاثة أرباع القرن على العالم الاسلامي، والمرجع الذي تربى على يديه آلاف من الطلبة والمدرسين والمجتهدين، واستمدت اسباب البقاء من وجوده المبارك مئات المدارس والمساجد والمراكز العلاجية والعلمية والثقافية والاجتماعية والمشاريع الخيرية الاخرى، هذه الشمس قد غربت من سماء المرجعية والفقه وذلك عند آذان المغرب من ليلة الرابع والعشرين من جمادى الثاني ١٤١٤هـ والمصادف للثامن عشر من شهر آذر ١٣٧٢ وقد التحق بالرفيق الاعلى وأصاب فؤاد العالم الاسلامي بالصميم.

﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾

نعزي امام العصر (ارواح العالمين له الفداء) والآيات العظام، وقائد الثورة الاسلامية الكبير، والعلماء الاعلام، والحوزات العلمية، والامة الاسلامية الكبيرة بهذه المصيبة العظيمة والحدث الجلل، ونرى لزاما علينا ان نشكر الجهود المضنية للفريق الطبي الذي اشرف على الفقيد السعيد في المستشفى والذي لم يدّخر جهدا في سبيل اداء واجبه.

مكتب

سماحة آية الله العظمى الكلبايكاني (قدس سره الشريف)

قائد الثورة الاسلامية سماحة السيد الخامنئي(دام ظله) يصدر بياناً تأبينياً :

وفور اعلان النبأ الحزين اصدر سماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة الاسلامية (مد ظله العالي) البيان التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

انا لله وانا اليه راجعون

تلقيت ببالغ الأسف والحزن الشديدين، نبأ المصيبة الكبرى والكسر الذي لايجبر . لقد ودع العالم الكبير والفقيه الأمثل، مرجع التقليد الأعظم، والعبد الصالح التقي النقي الزكي، آية الله العظمى الحاج السيد محمد رضا الكلبايكاني (قدس الله نفسه وأعلى الله مقامه)، ودّع دار الفناء بعد عمر مليّ بالحسنات والعمل الوافر بالخيرات والصالحات ملبيا دعوة المعبود ومسارعا الى ساحة الحساب الالهي.

اسأل الحق (جلت عظمته) بقلب متألم متضرع مبتهل أن يستقبل ضيفه الصالح والمطيع بقول﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ وأن يهبه المرتبة العليا للقاء الله سبحانه، ويمنحه افضل الجزاء والثواب.

لقد كانت هذه الشخصية العلمية العريقة ، الشخصية الأكثر توفيقا وسعادة بين مراجع التقليد العظام، حيث قضى من عمره الشريف اثنين وثلاثين عاما كمرجع للتقليد، وحوالي سبعين سنة للتدريس في الحوزة العلمية في قم، ومايقارب خمسا وثمانين سنة ينهل من فقه آل محمد عليهم السلام.

وقد اسس سماحته أول مدرسة للعلوم الدينية، على الطراز الحديث في قم؛ وبنى أول مؤسسة قرآنية كبيرة في قم؛ وأوجد أول فهرست فقهي وحديثي كبير مستفيدا من أحدث الاكتشافات والأساليب المتطورة، واحدث المئات من المدارس والمساجد

ومؤسسات التبليغ الدينية في عموم البلد والبلدان الاخرى؛ وتخرج على يده الآلاف من الطلبة المتفقهين الكبار؛ وأبدى العديد من الآراء والنظريات الفقهية التي تبين مدى اتساع ذهنيته، وتوقد ذكائه، واطلاعه الواسع، والتي اصبحت انموذجا حيا وملموسا للعلماء والفقهاء، وعموما فانه أفنى عمره المبارك في الزهد المطلق الاصيل.

لقد كان ذلك الرجل العظيم يعتبر احدى دعائم الثورة والنظام الجمهوري الاسلامي. وكان صوته ذلك المرجع الكبير، ابان فترة الظلم والاستبداد، وفي مواجهة الحوادث الجسيمة، خلال سني ابعاد الامام الخميني(قدس الله نفسه الزكية)، كان صوته الصوت الوحيد الذي خرج من الحوزة العلمية في قم، والذي كان يحسب له حسابا خاصا، حيث بعث روح القوة والنضال في نفوس المجاهدين. وكان يمتلك بعد انتصار الثورة حضورا ومشاركة فعالة في قضايا البلد عامة، داعما، بذلك بكل جرأة، النظام الجمهوري الاسلامي، ومدافعا عن مقام القائد المنيع وشخص الامام الراحل(قدس الله نفسه الزكية)، وكان موضع احترام وتقدير الامام(قدس سره). ان رحيل هذا الرجل الذي يعتبر بقية السلف العظام وملجأ ومرجع المؤمنين، حقا ثلمة كبيرة وخسارة لايمكن سدها.

انقدم بأحر التعازي والمواساة بهذا المصاب الجلل الى حضرة بقية الله الأعظم(ارواحنا فداه)، والى العلماء الاعلام، ومراجع التقليد، والحوزات العلمية، وعموم الشيعة وذوي العلاقة ومقلديه، وبالخصوص ذوي الفقيد الشريف الحصين وابناءه المحترمين، واسأل الله العلي القدير في ليلة الجمعة هذه، ليلة الرحمة والمغفرة، ان يتفضل باغداق لطفه وغفرانه على روح الفقيد الطاهرة.

سيد علي الخامنئي

٢٤ جمادى الثاني ١٤١٤هـ

بيان سماحة آية الله العظمى الشيخ العراقي:

وبهذه المناسبة المؤلمة أصدر آية الله العظمى محمد علي العراقي (مدظله العالي) البيان التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾

لقد آلم رحيل فقيه أهل بيت العصمة والطهارة، انموذج العلم والتقوى المرجع العظيم الشأن لعالم التشيع، سماحة آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلبايكاني(قدس سره) العالم الاسلامي اجمع. فقد تسبب فقدان هذا الرجل العظيم والذي يعتبر عمود العلم والتقوى وركنا من اركان الهدى وعلما من اعلام الدين والولاية، تسبب في احداث ثلمة في جسد الاسلام العزيز لايمكن سدها. والحق انه: يوم على آل الرسول عظيم.

لقد كان المرحوم آية الله العظمى الكلبايكاني أحد الأوائل والسباقين البارزين للمرحوم آية الله العظمى الحاج الشيخ عبد الكريم اعلى الله مقامه مؤسس الحوزة العلمية، وذلك في الحوزة العلمية في اراك وقم. فقد كان شديد الملاحظة ودقيق النظر وموهوبا وعالما ومصداقا بارزا، صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه ومطيعا لأمر مولاه. وقضى الفقيد مايقارب قرنا من عمره الشريف في سبيل اشاعة فقه آل محمد عليهم السلام والذود عن حرمة الولاية والجهاد ضد الطاغوت سائرا مع الامام الراحل(قدس سره) كل سنوات الثورة، مدافعا عن دينه ونظامه والسير ضمن حدود الاسلام وخدمة المسلمين والمؤمنين. عاش سعيدا ومات سعيدا.

فهنيئا له للقائه رب كريم وحضوره في حضرة الملكوت وصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا.

في الوقت الذي اقدم فيه احر التعازي لرحيل هذا العالم الى مولانا ولي العصر عجل

الله تعالى فرجه الشريف، وجماعة العلماء الموقرين والحوزات العلمية وبيت الفقيد وسائر اخواني المؤمنين، فاني كذلك اتضرع الى العلي القدير ان يمنح فقيدنا السعيد علوّ الدرجات والرحمة الواسعة وان يلهم ذويه الصبر الجميل والأجر الجزيل.

الاحقر محمد علي العراقي

٢٤ جمادى الثانية ١٤١٤هـ

● ● ●

دارالقرآن الكريم تصدر بياناً تأبينيّاً:

كما واصدرت دار القرآن الكريم / مدرسة سماحة آية الله العظمى الكلبايكاني(قدس سره الشريف) البيان التأبيني التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ياايتها النفس المطمئنة*ارجعي الى ربك راضية مرضية*فادخلي في عبادي *وادخلي جنتي﴾

نقدم أحر التعازي الى الحضرة المقدسة لمنقذ البشرية ولي الله الاعظم امام الزمان(عجل الله تعالى فرجه الشريف) وقائد الثورة (حفظه الله) والحوزات العلمية المقدسة وكذا بيت الفقيد الغالي.

«وسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا»

دار القرآن الكريم

لقطات سريعة على هامش المصاب الجلل

● آية الله العظمى الكلپايكاني في المستشفى:

نقل سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني مساء الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الثانية الى طهران، للعلاج في مستشفى الشهيد رجائي للأمراض القلبية بسبب اضطراب رئوي اثر اصابته بنوبة برد حادة.

وقد اعلن الفريق الطبي الخاص بمعالجة سماحته سبب ذلك قائلين: لقد أُصيب سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني قبل أربعة أيّام بنوبة برد حادة تسببت في احداث عفونة رئوية، وضيق في التنفس، وفي الوقت الحاضر فانه يخضع الى مراقبة دقيقة، من قبل فرِيق مكوَّن من عشرة أطباء اختصاصيين، وذوي باع طويل في هذا المجال.

● عيادة سماحة آية الله العظمى من قبل بعض الشخصيات:

واثناء وجود سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني، في مستشفى الشهيد رجائي في طهران، قام سماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة، وحجة الاسلام والمسلمين الشيخ الهاشمي الرفسنجاني رئيس الجمهورية، والعلماء الاعلام وشخصيات البلد المدنية والعسكرية، بعيادة سماحة السيد متمنين له الصحة والسلامة.

● الانتقال الى قسم العناية المركزة:

نقل سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني في الساعات الأولى لصباح يوم الأربعاء الى قسم العناية المركزة، في مستشفى الشهيد رجائي، وذلك بسبب اشتداد عملية التنفس، وكذلك لغرض المراقبة الدقيقة للحالة الصحية لسماحته.

وقد صرح الدكتور باهر رئيس الفريق الطبي المعالج للصحفيين في الساعة

السادسة من صباح يوم الخميس ٢٤ جمادى الثانية قائلا: ان ضغط الدم عند سماحة آية الله العظمى الكلپايگاني ثابت في الوقت الحاضر ولكنه لم يرجع الى حالته الاعتيادية؛ وضربات قلبه سريعة، وقد وضع لسماحته جهاز خاص للتنفس الاصطناعي لمساعدته على التنفس، وكذلك فان معدل نسبة الاوكسجين في دمه هي اقل من المستوى الاعتيادي. بالاضافة الى ان الكليتين لم تستعيدا وضعهما الطبيعي بعد، الا انّ حرارة الجسم مازالت طبيعية.

● الملايين تدعو وتتضرع:

خرجت الملايين من الجموع المؤمنة لتشارك في مراسيم الدعاء والتضرع الى الله سبحانه وتعالى، من اجل منحه الشفاء العاجل لسماحة آية الله العظمى الكلپايگاني بعد انتشار خبر اعتلال صحة سماحته. وكذلك اقيمت في محافظتي مشهد وقم المقدستين مراسيم حاشدة للدعاء والتوسل، وذلك في حرمي الامام الرضا(عليه السلام) وفاطمة المعصومة (سلام الله عليها) شارك فيها حشدكبير من افراد الشعب ومن مختلف طبقاته.

● فاجعة رحيل فقيه آل بيت العصمة والطهارة:

واخيرا فقد انتقل سماحة آية الله العظمى الكلپايگاني(قدس الله نفسه الزكية) الى الرفيق الاعلى، وذلك في ليلة الجمعة الموافقة لـ ٢٥ جمادى الثانية ١٤١٤ هجرية عند اذان المغرب.

● ايران الاسلام غارقة في حزن ومأتم كبيرين لفقدان مرجع الشيعة في العالم:

على اثر شيوع الخبر المؤسف لارتحال سماحة آية الله العظمى الكلپايگاني، فقد عمَّ الحزن والعزاء مختلف مدن البلاد.

وطبقا للتقارير الواردة، فقد ابدى شعب ايران البطولي المسلم أشد حزنه وأساه بنصب الاعلام السوداء على ابواب محالّهم التجارية والمساجد والشوارع في المدن، واقامة مراسيم العزاء في التكايا والحسينيات التي احتشدت بالآلاف معبرين عن حزنهم البالغ لرحيل العالم الرباني واحياء ذكرى الفقيد السعيد بكل احترام.

● اعلان الحداد العام من قبل الحكومة:

اعلنت حكومة الجمهورية الاسلامية في ايران الحداد العام في جميع انحاء البلاد لمدة سبعة ايام متتالية وذلك لرحيل العالم الرباني سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني وتقديرا لمقامه ومنزلته العاليين.

وفيما يلي نص البيان الذي اصدره مجلس الوزراء:

يتقدم مجلس الوزراء في حكومة الجمهورية الاسلامية في ايران بابداء احرّ التعازي الى حضرة بقية الله الاعظم امام العصر (أرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء) وسماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة، ومراجع التقليد الموقرين وذلك لرحيل العالم الرباني وفقيه آل بيت العصمة والطهارة(سلام الله عليهم) مرجع التقليد الاعلى للشيعة وركن الحوزات العلمية الراسخ سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني.

● اعلان عطلة رسمية من قبل الحكومة:

اعلنت حكومة الجمهورية الاسلامية في ايران، ضمن بيان لها، اعتبار يوم السبت الموافق للسادس والعشرين من جمادى الثانية عطلة رسمية لمناسبة رحيل المرجع الفقيد.

وفيما يلي النص الكامل للبيان الذي أصدرته رئاسة الحكومة:

من خلال ابداء احرّ التعازي مرة اخرى لرحيل فقيه آل البيت(عليهم السلام) والمرجع الأعلى للتقليد سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني الى حضرة ولي العصر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وسماحة قائد الثورة، والمسلمين والشيعة في العالم والشعب

الايراني الشـريف، تعلن رئاسة الحكـومة عن اعتبـار يوم السبت العشريـن من شهر آذر عطلة رسمية عامة.

● التشييع الفخم:

منذ اللحظة الاولى لسماع خبر رحيل سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني(قدس سره) انتشرت جموع الامـة المشدوهة والحزينة ومـلأت الشوارع وشكلت شريطا حـاشدا من الحبِّ والايمان تجاه المرجعية الدينية امتدَّ من مستشفى الشهيد رجائي في طهران وحتى مدينة قم المقدسة، مشاركين بتشييع جثمان المرجع الاعلى الطاهر بأروع ما يكون.

● توديع المرجع الأعلى

تعطلت الحياة تماما في مدينة قم المقدسة للوداع الاخير للجثمان الطاهر، وقد تجمع الآلاف من النـاس في مسجد الامام الحسـن(عليه السلام) الكبيـر، منذ ساعـات الصباح الاولى، حيث كـان بضمنهم كبـار العلماء والمـدرسين، والافاضـل والطلاّب في الحـوزة العلمية، وذلك للمشاركة بتشييع جثمان الفقيد الطاهر.

وقد كـان المظهر السائد في جميـع انحاء مدينـة قم هو الحزن الكبيـر، حيث رفعت الأعلام والـرايات السوداء عنـد أبواب المحال التجاريـة، والأبنية، والساحـات، والمدارس الدينية والمؤسسـات الحكومية والعامة، وكـان صوت تلاوة القرآن الكريم يعلو كل صوت في هذه المدينة.

جدير ذكره انَّ قوافل عديدة جاءت مـن مختلف المدن الى مدينة قم، وذلك للمشاركة بمراسيم دفن جثمان سماحة المرجع الفقيد.

وكانت الحشود المتجمعة أمام مسجد الاما م الحسـن (عليه السلام) هائلة لدرجة أنّ مسيرة تشييع جنازة الفقيد الكبير كادت تتوقـف، حيث لم يكن بمقدور الحاملين للتابوت السير الاّ ببطء شديد جدّاً.

واخيرا وفي حدود الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين، تحركت الجموع التي حملت نعش الفقيد السعيد على هاماتها، من مسجد الامام الحسن(عليه السلام). وبعد تشييع مهيب، ووري جثمان الفقيد الطاهر الثرى بجوار الروضة المطهرة للسيدة فاطمة المعصومة(سلام الله عليها) وقرب استاذ الفقيد الكبير آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي(رضوان الله تعالى عليه) وذلك في تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السبت.

وتجدر الاشارة الى ان صلاة الميت التي اقامها آية الله الصافي الكلپايكاني بإمامته قد اقيمت في جوٍّ من الحزن والأسى في صحن الحرم المطهر للسيدة فاطمة المعصومة (سلام الله عليها)وامتدَّت الى الشوارع المحيطة بالحرم، حتى ميدان الحرم.

● مراسيم العزاء حوالي بيت سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني(قدس سره):

وبينما كانت الجموع تشارك في تشييع الجثمان الطاهر للمرجع الأعلى، كانت جموع اخرى حاشدة من المعزين تحفُّ حوالي بيت المرجع الراحل.

وكانت أعداد كبيرة من الناس والتي اصطفَّت في الشوارع المؤدية الى بيت المرجع الأعلى تنتظر ورود الجثمان الطاهر للعالم الكبير وقد اغرورقت العيون بالدموع الساخنة.

وكان الطلبة من البلدان الاسلامية كذلك، وخصوصا من شبه القارة الهندية وباكستان، قد انتظموا صفوفا ضمن الحشود المتحركة، منشغلين بالاشتراك في مراسيم التعزية.

● مظاهر المواساة واقامة مراكز العزاء يعمُّ كافة انحاء البلاد:

اقيمت وعلى مدى الأيام الفائتة مراسيم العزاء لرحيل سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني في كافة المساجد والحسينيات والتكايا والمؤسسات والدوائر والقطاعات المختلفة. وقد اشار المتحدثون في هذه المراسيم الى دور وآثار المرجعية في هداية

المجتمعات الاسلامية، اضافة الى شرح وبيان فضائل وأبعاد مكانة المرجع الكبير.

● **تقدير رئيس مجلس الشورى الاسلامي:**

خلال جلسة علنية لمجلس الشورى الاسلامي وضمن تقديم التعازي بمناسبة رحيل فقيه آل بيت العصمة والطهارة، لوليّ الله الاعظم الامام المهدي(عجل الله تعالى فرجهم الشريف) والى القائد العظيم للثورة سماحة آية الله الخامنئي(مدّ ظله العالي)، قدّم حجة الاسلام والمسلمين الشيخ ناطق نوري رئيس المجلس بالغ تقديره للجموع الحاشدة اثناء مراسيم تشييع جنازة المرجع الكبير.

وابتدأ سماحته حديثه بالقول: ان حضور هذه الحشود الكبيرة من الشعب المسلم المترع حبًّا ووفاءا اثناء تشييع جنازة سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني ـ وخصوصا في طهران ـ يعني الكثير بالنسبة لنا وللجميع في العالم كلّه.

واضاف سماحته قائلاً: لقد كان حضور الناس اثناء مراسيم تشييع جنازة سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني في طهران عظيما لدرجة ان عملية انتقال الجنازة من مستشفى القلب وحتى ساحة سكك الحديد استغرقت حوالي ٥ ساعات.

واكدّ سماحته: ان مشاركة هذا الجمع الغفير من الناس في عملية التشييع بهذا الشكل تجسّد عمق الايمان والعقيدة الدينية لهذه الامة تجاه المكانة الحصينة للمرجعية والولاية والاسس الدينية، ورسالة واضحة تبيّن الفشل الذريع للأساليب الدعائية لأعداء الثورة والنظام الاسلامي والتي تريد عزل الجماهير المسلمة عن المرجعية والتديُّن.. والتي كذلك لم يكن لها ادنى تأثير البتة.

على هامش مراسيم التشييع والدفن:

● لقد استغرقت عملية التشييع ودفن الجثمان الطاهر لآية الله العظمى الگلپايگاني اكثر من ستّ ساعات بسبب الزحام والحشود الكبيرة من الناس.

● لم يكن بـإستطاعـة افراد الشـرطة السيطـرة على الحشود التـي افرزت مشـاعر وأحاسيس هائلة اثناء مراسيم تشييع ودفن جثمان آية الله العظمى الگلپايگاني.

●بعـد لحظات من إخـراج التابـوت الذي حـوى جثمـان سماحـة آية اللـه العظمى الگلپايگاني من مسجـد الامام الحسن المجتبى(عليه السلام) أُعيد الـى المسجد المذكور ثانية بسبب اشتداد الزحام لحشود المشيّعين.

●عشرات الملصقات والاعـلانات والتي كُتبت عليها كلمـات التعزية والمواسـاة، قد أُلصقت على أبواب وجدران الحـرم المطهر للسيدة المصومة(سلام اللـه عليها) وذلك من قبل مختلف الهيئآت المعروفة.

● كـانت جميع المسـاجد والحسينيـات والتكايـا في مـدينة قم المقـدسة متهيئـة لاستقبال واضافة المعزين في مراسيم تشييع سمـاحة آية الله العظمى الگلپايگاني، وقد وُظِّفَت كافة المدارس والأماكن العامة لإسكان وخـدمة المعزين الذين وفدوا الى مدينة قم من مختلف أصقاع وبقاع الوطن المسلم لتشارك في مراسيم التشييع والعزاء.

● **برقية التعزية التي بعثتها الأقليات الدينية:**

عبَّرت الاقليات الدينية في ايران عن مشاركتها الشعب الايراني المسلم الأسى برحيل المرجع الكبير سماحة آية الله العظمى الگلپـايگاني(قدس سره)، وذلك من خلال عدد من البرقيات أرسلتها الى قائد الثورة.

وجاء في معرض برقيـةٍ بعثها كبير أساقفة الأرمن آرداك مانـوكيان الى قائد الثورة: اتقدَّم بـاسمي ونيابـة عن مجلس نواب الأرمـن في طهران وكـافة الشعب الارمني بـأحرِّ التعازي القلبية الى سماحة قائد الثـورة المعظَّم، والآيات العظام والشعب الايرانـي المسلم

وبيت الفقيد الشريف بالمصاب الأليم لرحيل العالم الروحاني ومرجع تقليد العالم الاسلامي والشيعي سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني (قدس سره) والذي نذر نفسه وروحه المبارك لخدمة الحقّ والدين وتربية النشْ الجديد ليكون خادما للمعاني الجليلة.

● حضور رجال الدين الأرمن في مراسم التشييع:

اتخذت هيئة من رجال الدين الأرمن طريقها الى قم مرسلة من قبل الاسقف الأعظم آرداك مانوكيان كبير أساقفة الأرمن في طهران للمشاركة في مراسيم تشييع الجثمان الطاهر للفقيد السعيد المرجع الأعلى لعالم التشيّع، سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني (قدس سره الشريف).

● اصدار طابع تذكاري لسماحة المرجع الفقيد:

صدر مؤخراً عن وزارة البريد والبرق والهاتف طابع بريدي تذكاري تجليلاً وتكريماً للمقام الشامخ للفقيد السعيد آية الله العظمى الكلپايكاني.

● معرض للصُّور:

بمناسبة الرحيل المؤلم للمرجع الراحل (قدس سره الشريف) أُقيم معرض للصور تحت شعار (لتُصبَّ نيران المحبة على المقام الوفيّ) وذلك في زقاق الشهيد شاهچراغي قرب مؤسسة كيهان.

وتعتبر الصور المعروضة في هذا المعرض من نتاج كاميرا احمد نصيرپور، محمد نوروزي، فرهاد سليماني ومهدي ميرزابي وهم باقة من فريق التصوير في صحيفة كيهان. وتمثل هذه الصور دليلاً حياً على الحب تجاه المرجعية وعلماء الدين وقد صوّرت كل زاوية منها مجموعة مصغرة للمعزّين في أماكن مختلفة.

● انعكاسات رحيل المرجع الأعلى للشيعة في الخارج:

لم تقتصرمراسيم العزاءعلى روح المرجع الكبيرعلى ايران وحسب، وانما امتدت الى كافةأرجاءالوطن الاسلامي ومناطق تواجدالمسلمين.وكان وقع المصاب أليماًعلى الجميع. وقد أقيمت مراسم العزاء، وانهالت برقيات التعزية من كل مكان.

● برقية الرئيس السوداني عمر حسن البشير.

وبهذه المناسبة الأليمة قدّم رئيس جمهورية السودان تعازيه الى سماحة آية الله الخامنئي القائد العظيم للثورة الإسلامية، وذلك في برقية كان قد بعثها الى سماحته، وفيما يلي نص البرقية التي بعث بها الفريق عمر حسن البشير:

سماحة آية الله السيد علي الخامنئي قائد الثورة الإسلامية،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتهُ

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

لقد فقدت الأمة الإسلامية أحد أكبر علمائها وفقهائها برحيل آية الله العظمى الكلپايكاني. لقد كان لسماحته دور مهم في تثبيت العقيدة الاسلامية داخل قلوب المسلمين. وفي سبيل اعلاء كلمة الله، في الوقت الذي كان فيه المسلمون يجتازون اختباراً صعباً. اننا في صدد تعزية رجل كان له دور فعّال في الثورة الإسلامية العظيمة في ايران.

وقد ناضل المغفور له بمعية العلماء الأعلام الآخرين في مدينة قم في سبيل استقرار أركان الجمهورية الإسلامية, نضالاً كبيراً حتى حصول الشعب الإيراني المسلم على حريته وفكّ نير العبودية الملكية عن رقبته.

سماحة قائد الثورة

اتقدّم باسمي ونيابة عن الشعب السوداني المسلم بتقديم أحر التعازي سائلاً الباري عزّوجلّ أن يجنّب الأمة الاسلامية كل مصيبة ومكروه، وأن يلهم الجميع الصبر والسلوان من فضله من أجل تثبيت دعائم الثورة والسير قدما الى امام.

رئيس جمهورية السودان

عمر حسن البشير

١١/١٢/١٩٩٣م

●برقية تعزية الشيخ محمد مهدي شمس الدين:

كما وأعرب الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الأعلى للشيعة في لبنان في برقية بعث بها الى سماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة الإسلامية المعظم عن أسفه وحزنه للخسارة الأليمة برحيل سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني.

وقد ورد في بعض نصوص البرقية المذكورة ما يلي:

انتقدم بأحرّ التعازي لوفاة سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني (رضوان الله عليه) والذي أفنى عمره في خدمة الاسلام والمسلمين الى سماحتكم واسأل الله تعالى أن يحفظ وجودكم الغالي لقيادة الأمة الإسلامية باستمرار.

● برقية التعزية التي بعث بها العلامة السيّد محمد حسين فضل الله:

عزّى العلامة السيد محمد حسين فضل الله في برقية بعثها الى سماحة آية العظمى محمد علي العراقي ارتحال المرجع الأعلى للشيعة في العالم وقدّم لسماحته أحرَّ المواساة بهذه المناسبة.

وطلب العلامة محمد حسين فضل الله من الله عزوجل أن يمنح سماحة العراقي العمر

المديد والبركة وذلك خلال برقية التعزية التي بعثها لسماحته.

وقد بعث العلامة فضل الله برقية تعزية مماثلة الى سماحة حجة الاسلام والمسلمين السيد جواد الكلپايكاني نجل آية الله العظمى الكلپايكاني (قدس سره الشريف).

● تعطيل صفوف الحوزة العلمية في الحجاز اسبوعاً كاملاً:

عطلت الحوزة العلمية في الحجاز دروسها لمدة اسبوع واحد وذلك لمناسبة رحيل العالم الربّاني وزعيم الحوزات العلمية سماحة آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلپايكاني المرجع الأعلى للشيعة في العالم.

● اقامة مراسيم العزاء:

اقيمت مراسيم العزاء في مختلف أنحاء العالم. وفيما يلي أبرزها:

● سورية:

اقيمت في المصلى الزينبي بدمشق مراسيم عزاء شكلتها ممثلية ولي الفقيه والسفارة الإيرانية في سورية ولبنان بمناسبة رحيل المرجع الكبير (قدس سره الشريف).

وقد شاركت في هذه المراسيم جموع كثيرة من المسلمين المقيمين في سورية وكذلك ابناء الجالية الإيرانية المقيمون فيها وقد تحدَّث جمع غفير من المسلمين في هذه المراسيم، مبيِّنين الخدمات العلمية والثقافية لذلك العالم الكبير التي وظفها لخدمة المسلمين في أنحاء المعمورة.

● أمريكا:

اقيمت في مسجد آية الله العظمى الخوئي في نيويورك مراسيم احياء لمناسبة رحيل سماحة آية الله العظمى الكلپايكاني (قدس سره) وذلك مساء يوم السبت.

وقد تحدّث في هذه المراسيم التي شارك فيها المئات من المسلمين المقيمين في أمريكا وخصوصاً ولايتي نيويورك ونيوجرسي، أحد العلماء مشيراً الى الشخصية العلمية والدينية الفذة لآية الله العظمى الگلپايگاني وخدماته الجليلة للعالم الإسلامي.

وتحدّث في المراسيم نفسها سفير الجمهوريه الإسلامية الايرانية في الامم المتحدة، ذاكراً دور الاجتهاد في التأريخ ومكانته في العصر الحاضر بالشرح والتحليل.

وبهذه المناسبة أيضاً عُقدت مراسيم خاصة في الممثلية الدائمة للجمهورية الإسلامية الإيرانية في الأمم المتحدة حيث أشير الى المكانة السامية التي امتلكها آية الله العظمى المرحوم الگلپايگاني.

● **اسپانيا:**

قدّمت الجمعية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت في برشلونة باسپانيا في اتصال لها مع وكالة انباء الجمهورية الاسلامية التعازي الى المسلمين عامة والشعب الايراني خاصة لمناسبة رحيل المرجع الكبير سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني.

وضمن برقية المواساة لفقدان هذا العالم الربّاني سألت الله سبحانه وتعالى أن يتغمده بواسع رحمته وأن يمنحه اعلى الدرإجات في علّيين.

● **اليونان:**

أُقيمت في ڤينا مراسيم كبيرة للعزاء مساء يوم الجمعة بمناسبة وفاة المرجع الراحل، وقد تحدّث طويلاً سماحة السيد محمد تقي الطباطبائي مسؤول المركز الثقافي الاسلامي حول الشخصية البارزة لهذا العالم الربّاني والفقيه الكبير.

● **روسيا:**

أُقيمت مراسيم العزاء في مسجد الاقصى في عشق آباد عاصمة تركمنستان بمناسبة

رحيل المرجع الكبير.

وقد تليت في هذه المراسيم التي اقيمت من قبل سفارة الجمهورية الاسلامية الايرانية وبحضور معاون قاضي القضاة في تركمنستان، آيات الذكر الحكيم من قبل الجالية الايرانية المقيمة في عشق آباد وجموع اخرى من طبقات الشعب في هذه المدينة، وكذلك اقيمت مراسيم العزاء وقراءة المدائح لرحيل هذا العالم الربّاني.

● **افغانستان:**

بعث العلماء والمسلمون الشيعة والسنّة في افغانستان برقيات تعزية الى سماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة الاسلامية والحوزات العلمية وشعب وحكومة ايران، بمناسبة رحيل المرجع الكبير.

وقد دعا راديو وتلفزيون كابل الحكومي الشعب الافغاني لإقامة مراسيم العزاء بهذه المناسبة.

وأقام المسلمون في ولايتي هرات وباميان كذلك مراسيم عزاء بهذه المناسبة الاليمة.

وخصّص تلفزيون بلخ مساء الجمعة ساعة كاملة تطرّق فيها الى سيرة حياة سماحة الفقيد ودوره الاساسي في الحوزة العلمية في قم.

واقامت القنصلية الايرانية واحزاب الوحدة الاسلامية والحركة الاسلامية الافغانية كذلك مجالس تأبينية بالمناسبة، بصورة منفصلة.

● **تركية:**

لَبس الشيعة المقيمين في انقرة ثوب العزاء لمناسبة رحيل العالم الربّاني ومرجع التقليد الأعلى للشيعة في العالم سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني.

وقد اقيمت مراسيم العزاء من قبل الشيعة المقيمين في انقرة، في مسجد المحمديّة الكائن في هذه المدينة وبحضور جمع من عشّاق أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم

السلام) وحشد من الايرانيين المقيمين في هذه المدينة.

وقد تحدّث احد العلماءالشيعة في تركية مشيراً الى الشخصية الكبيرة للفقيد السعيد.

وقد بعث رئيس حزب الرفاه التركي برقيات تعزية منفصلة الى كل من سماحة آية الله الخامنئي القائد الأعلى للثورة الاسلامية وحجة الاسلام والمسلمين الهاشمي الرفسنجاني رئيس الجمهورية الاسلامية في ايران، وذلك بمناسبة رحيل سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني.

● **الدول الخليجية:**

أقام المسلمون الساكنون في الامارات العربية المتحدة، والبحرين وقطر والكويت وعُمان يوم السبت مراسم العزاء بمناسبة رحيل المرجع الأعلى للشيعة في العالم.

وقد تحدّث المشاركون في هذه المراسيم عن الصفات الفذّة لفقيه آل بيت العصمة والطهارة (عليهم السلام)، وعبّروا عن حزنهم وأساهم لرحيل ذلك المرجع الكبير وذلك في برقيات بعثوها الى سماحة آية الله الخامنئي قائد الثورة الاسلامية وسماحة آية الله العظمى محمد علي العراقي وبيت سماحة المرجع الكبير.

وقد اقيمت كذلك مراسيم عزاء من قبل لجنة النساء المسلمات في الكويت مساء السبت في مسجد النّقي لمناسبة رحيل المرجع الأعلى.

● **بنغلاديش:**

أُقيمت بمناسبة رحيل المرجع الراحل، مراسيم عزاء شارك فيها الشيعة المقيمون في دكّا عاصمة بنغلاديش.

● **كشمير:**

اقيمت مراسيم العزاء بهذه المناسبة الأليمة يوم الجمعة من قبل مسلمي كشمير.

وقد وصف السيد مصطفى رئيس علماء الشيعة في كشمير في حديث له رحيل ذلك العالم الجليل خسارة لا يمكن تعويضها للعالم الاسلامي.

وتحدّث مولانـا ميرواعظ عمر فاروق رئيس مـؤتمر الحرية في كشميـر الى مراسل الجمهورية الاسلامية في سرينغر قائلاً:

ان هذا العالم الجليل وإن لم يعدبين ظهرانينا،إلا أن جهاده سيبقى أُنموذجاً لناجميعاً.

● لبنان:

أصدر كل من المجمع الديني لحزب الله لبنـان، ووليد جنبلاط رئيس الحزب التقدّمي في لبنان، وهيئـة علماء جبل عـامل، ونبيه برّي رئيس البـرلمان اللبنانـي، والشيخ احمد الزّين قاضـي الشرع لأهل السُّنة في مدينة صيـدا، بياناً معنوناً الى قائد الثورة الاسلامية عبّروا فيه عن تألمهم للمصاب الجلل برحيل المرجع الأعلى للشيعة.

● تشيلي:

اقيم مجلس العزاء لمنـاسبة رحيل المرجع الفقيـد، في مسجد القدس في سـانتياغو وحضره جمع غفير من مسلمي تشيلي واعضاء سفارة الجمهورية الاسلامية الايرانية.

وقد تحدّث قبل البدء بـاقامة مجلس العزاء، امام جمعة سـانتياغو ورئيس المسلمين في تشيلي ذاكراً الشخصية العلمية الفذة لمرجعية آية الله العظمى الكلبايكاني، داعياً الله أن يتغمدّ روح الفقيد بالرحمة والرأفة.

وعَبَّرَ الشيخ توفيق الرومي من جانبه ونيابة عن مسلمي تشيلي عن ألمه الى سماحة القائد الكبيـر للثورة الاسلامية والعلمـاء في الحوزات العلمية والشخصيـات الأخرى في الجمهورية الإسلامية في ايران.

● الهند:

عبَّر الشيعـة في مدينـة دلهي وغربي البنغـال ومسلمي بومباي ورئيـس مجلة (راه نجات) ومؤسسة ولي العصر وبيت الثقافة الايراني في بيان لهم عن أساهم وحزنهم لهذه المناسبة الى سماحة قائد الثورة الإسلامية.

وقد احيـا الشيعة في الهند ذكـرى فقيه آل البيت وذلك بـرفع الأعلام السـوداء فوق المنازل والمساجد وأقيمت بالمناسبة مجالس ختم القرآن ومجالس الفاتحة.

● آذربيجان:

أبدى مسلمو ومقلدو المرجع الكبير في جمهـورية آذربيجان مشاعر الحزن والأسى لمناسبـة هذا المصـاب الجلل، وذلك بحضورهـم في سفارة الجمهـورية الاسلاميـة في ايران، وعبـر المكالمـات الهاتفية، الـى سماحـة قائد الثورة الإسـلامية والعلمـاء الأعلام والحوزات العلمية كافة.

● پاكستان:

عبَّر العلاّمة السيد ساجد علي نقوي رئيس حركة تطبيق الفقه الجعفري في پاكستان عن أسفه وحزنه لرحيل آية الله العظمى الگلپايگاني وذلك في برقية بعثها الى سماحة قائد الثورة الاسـلامية.

هيئة الطلاّب الامامية في پاكستان أعربت خلال بيان لها الى سماحة آية الله الخامنئي وشعب ايران المسلم عن حزنها لرحيل آية الله العظمى الگلپايگاني.

وقـد اقامـت كل من حـركـة تطبيق الفقه الجعفـري في پـاكستـان، نهضة الأخـوة الاسلامية في الپاكستـان وهيئة الطلاب الإمامية في پاكستان مـراسيم العزاء في مناطق مختلفة من الپاكستان.

● افريقيا:

بمجـرد شيوع خبـر رحيل المـرجع الكبيـر، اقيمـت مراسيـم العزاء فـي المساجـد والحسينيات من قبل مسلمي البلدان الافريقية.

واقيمت بهذه المنـاسبة مراسيـم عزاء في مدينـة اكرا عاصمـة غانا، وكـذلك أقيمت مراسيم العزاءفي مدغشقرمن قبل الشيعةفي(خوجه هندي)بمناسبةرحيل الفقيد السعيد.

واقيمت ايضاً في نايروبي عاصمة كينيا مجالس العزاء احياءاً لرحيل المرجع الأعلى، وذلك من قبل الشيعة في هذا البلد في المسجد الكبير في نايروبي.

واقيمت مراسيم ممـاثلة في كل من اثيوبيـا، السودان وليبيا بمناسبـة رحيل المرجع الكبير آية الله العظمى الگلپايگاني (قدّس سرّه الشريف).

بقية السلف، آية الله العظمى الگلپايگاني(*)

الشيخ علي كريمي جهرمي

ولادته ونسبه:

ولد المرجع الفقيد في گوگد - وهي قد كانت آنذاك قرية من قرى گلپايگان على فرسخ منه لكنها اليوم بلدة من البلدان - في يوم الاثنين ثامن شهر ذي القعدة الحرام سنة عشر وثلاثمأة بعد الالف من الهجرة النبوية المباركة على هاجرها آلاف التحية والسلام.

اسمه الشريف (السيد محمّد رضا) لقبه (هبة الله) كنيته (ابوالحسن).

وضبط هذه الامور وكتابتها بيد والده الشريف يحكى اولاً شدّة الاهتمام بامر هذا المولود المعظّم، وانّه كان يرى من ولده مستقبلاً مضيئاً وما لايراه الآخرون، وثانياً انّه يحكي ويكشف عن بيئة طيّبة وجوّ ديني خالص.

ثم انّه وان كان في العقود الأولى من عمره مشهوراً باسمه الشريف لكن تجلّيه في سماء الفقاهة والعلم والتقوى أوجب احياء اسم بلده وموطنه ودُعي بالسيّد الگلپايگاني، واشتهر بذلك في الأقطار وذاع صيته كذلك في الاعصار والأمصار.

وغير خفي انّه قدس سره الشريف من الأسرة الموسوية الطيّبة ومن نسل الامام الهمام باب الحوائج الى الله تعالى ابي الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

ان والد المرجع الكبير هو والده الكريم العالم الجليل حجّة الاسلام السيد محمد باقر الموسوي الذي اشتهر في حياته عند اهل بلده بـ(امام) وذلك لكثرة صلاحه، وطهارة نفسه، ومكارم أخلاقه، واجتهاده في العبادات، ومواظبته على الطاعات، واهتمامه بأمر الدين.

ومن خصوصياته ومزاياه انه كان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر متصلباً في ذات

الله تعالى.

وقد نقل السيّد المـرجع الفقيد: اني كنت معه في واحدة من أسفـاره الى قم، في أيام صباي، فواجـه في اثناء الطريق عدة كانـوا في لهو وطرب، فحمل عليهم وأخـذ آلة لهوهم وكسرها، وهم لم يقاوموا في قباله تعظيماً لسيادته ومقامه السامي.

وله صلة خاصّــة وحب عميق بالنسبة الى الأئمة الطاهرين خصـوصاً الإمام الشهيد ابي عبـدالله الحسين عليه السـلام وقد أوصى أن يـدفن جثمانـه بعد وفـاته على جـانب المقبرة، حيث يقـرب طريق زوّار كربلاء الـذين يمرّون منه كي يقـع غبار زوّار الحسين عليه السلام على قبره، وقد عمل بوصيته كذلك.

استجابة دعائه:

ومّما يجدر بالذكر وينفع القارئ الكريـم انّ السيد محمد باقر الامام رضوان الله عليه كان ببركة صفاء نفسه، وطهارة ضميره ذا دعوات مستجابة، ومن أهم أدعيته دعائه لولده المرجع:

«(اللهمّ طوّل عمره، ووسّـع في رزقه، وأجعله مـن العلماء العاملين بفضلك وكرمك يا أرحم الـراحمين». ثم كتب: «وقـد بلغ من عمـري أربع وستّـون سنة، حـررّه الحقير، اب المولود المرقوم».

وقد اجاب الله تعالــى تلك الدعوات الطيبة الناشئة عن قلـب نقّي ملئ بحب الله تعالى، وقد منحه الله سبحانه كلّ ما طلبه واستدعاه لولده العزيز المرجع الكبير فاطال والحمد لله عمره المبروك وفتح الله عليه أبواب رزقه، والمهم الأهم أنّه قد جعله من العماء العاملين بل ومربيا للعلمـاء العاملين، وكهفاً للفقهـاء والمجتهدين، والحمد لله على تمـام النعمة وكمال اللطف والكرامة ولعلّـه رضوان الله عليه يرى من افق الآخرة الى ابنـه المرجع، وقد أصبح رئيساً دينياً، وزعيماً علمياً يشار إليه بالبنان ويخفق له قارب اهل الايمان.

ولكن لم يمض إلاّ تسعة أعوام حتى فقد سيّدنا المرجع الراحل الوالد فكان رضوان الله عليه في السنة التاسعة من عمره، وقد ابتلى بـاليتم وفقدان الوالد الرؤوف العطوف، وكان قد فقد من قبل ذلك والدته الرحيمة الحنون.

وكانت وفاة والد السيد المرجع في الخامس من شهر محرّم الحرام من سنة ١٣٢٥ من الهجرة ودفن بالمقبرة العامّة في كوكد. وكما أنّه كان في أيّام حياته معظّماً مكرّماً يحترمه عامّة الناس كذلك قبره من أوّل الأمر الى هذا اليوم مزار يقصده المؤمنون.

والدة المرجع الكبير:

وامّا والـدته الماجدة فهي المـرأة الصالحة الزاهـدة الموسومة بـــ(هاجر) وكفى في جلالـة قدرها وفضلها وشـرفها انّها انجبت ولداً مجتهـداً فقيهاً وزعيماً كبيراً دينيـاً ولقد أصاب الشاعر ـ حافظ ابراهيم ـ كبد الحقيقة حين قال:

الامّ مـدرســـة اذا أعـددتهـــا
أعـددت شعبــاً طيّب الأعـراق

فهذه الأمّ الكريمة قد احتضنت ولداً عظيماً صار مـرجعاً عالمياً للطائفة وزعيماً للأمة الاسلامية ولكن مع الأسف لم يطل عمرها، ولم يمرّ على ذلك كثير زمان حتى زال ظل الأمّ الحنون والوالدة المشفقة عن رأس ولدها العزيز فـاصبح سيّدنا المرجع وقد ماتت والدته العطوف عليه، وهو في الثالثة من عمره الشريف.

وقد دفنت في المقبرة العامّة بفاصلة يسيرة من قبر زوجها الشريف ولاشك في أنّها من النسوة اللاتي لهنَّ حق عظيم على الأمة الاسـلامية.

وقد كان وقـوع حادثة موتهـا في سنة ١٣١٩ من الهجـرة اي قبل وفاة زوجهـا بست سنين.

دراسته:

مضت أعوام وسنوات قلائل من عمر الصبّي السعيـد، فشرع في تعلّم القرآن الكريم، وتحصيل الابتدائيـات كنصاب الصبيان وغير ذلك، فتعلّم ســريعاً، وكان ذا حافظـة قوية، وتفهّم عالٍ، وجـودة ذهن، وقد حفظ كتـاب النصاب في اللغة العـربية [1] لدى تعلّمــه عند شيخه العالم الكبير الآخوند ملا محمد تقي الكوكدي أعلى الله مقامه.

كما وانّه قد تعلّم في هذه الدورة كتباً اخرى مثل كتاب حياة القلوب للعلامة المجلسي

قدس سره، وهو كتاب باللغة الفارسية القديمة الصعبة، وذلك بأمر والده الشريف رحمة الله عليه.

ومن قوة حفظه وشدة ذكائه انّه كان قد يستشهد بقطعات من النصاب مثلاً، في اثناء درسه وسائر مواقفه، كما وانّه قد ذكر مرّة مطلباً عن قصة يوسف الصدّيق عليه السلام، وصرّح بأنّه ممّا تعلّمه وحفظه في أيّام صباه، من كتاب حياة القلوب.

وبعد انقضاء هذه الدورة، احسّ في نفسه الشوق الى تعلّم علوم الدين، وتحصيل المعارف الاسلامية، فشرع في ذلك عند اساتذة الفنّ الذين كانوا في تلك الآونة كالسيّد محمد حسن الخوانساري، والشيخ الميرزا محمد باقر الگلپايگاني.

وفي تلك الأثناء، قد سافر الى خوانسار، لتحصيل العلم هناك فنزل في المدرسة العلمية، مدرسة گوهر خانم بنت الشاه سليمان الصفوي.

ولمّا مضى من هذه الدورة ما يقرب من سنة بدا له أن يرجع الى موطنه، وهو گلپايگان، نترك خوانسار وعاد الى بلده، ولا يزال مجدّاً في تحصيل العلم مواظباً على ذلك، ومن برامجه التحصيلية أنّه كان يذهب أواخر ساعات يوم الجمعة من منزله في گوگد الى گلپايگان، وينزل هناك في دار بعض أرحامه، وكان متفرغاً في طلب العلم، الى اواخر ساعات يوم الأربعاء، وعندئذ يعود الى گوگد وهكذا.

وقد اقام هناك على هذا المنوال ما يقرب من ثلاث سنين، فحينئذ انتشر صيت قدوم آية الله العظمى الحائري بلدة اراك، وتأسيسه الحوزة العلمية بها فعزم على المهاجرة الى اراك، فهاجراليها واطمأن بها، واتمّ ما بقي من دروسه على المدرّسين الاجلاء، وفي طليعتهم العالم الاوحدي الشيخ ملا محمد تقي الگوگدي، ثم حضر على استاذه الاكبر الشيخ الحائري اعلى الله مقامه، وواظب على ذلك بجدّ وهمّة عالية، والى الحد الذي لم يفت منه درس من دروس وأبحاث شيخه حتى النهاية.

وقد احسّ الشيخ الحائري من تلميذه الشاب السيّد الگلپايگاني لباقة وكفاية وبراعة، وتوفّر المواهب والقابليات عنده وذكاء وحافظة وعشق للعلم والفضل، ولذا اهتم بامره، واجتهد بأمره، واجتهد في اعداد وسائل تحصيله وتربية استعداداته.

وقد امتدّت مدة اقامة السيد المرجع باراك، الى ان هاجر استاده الحائري منها لى

بلدة قم الطيّبة، فانّ السيّد المرجع ايضاً قد ترك اراك وحوزتها، وهاجر الى قم، وكان ذلك بدعوة شيخه واستاذه.

وقد ذكر لنا المرجع الراحل، في مناسبة خصوصية، أنّه لمّا وفد الشيخ الحائري رضوان الله عليه بلدة قم، كتب هو قدس سره الى كتاباً، وكنت بعد في اراك، ودعاني الى ان الحق به، واهاجر الى قم، واشتغل فيها، وذكر رضوان الله عليه في كتابه هذا: أنّه يوجد بقم خبز شعير ونأكل معكم.

وبعدما وصل اليه الكتاب لم يبق حتّى عزم الى أن يهاجر، فهاجر الى قم، واتّصل بشيخه الكبير واستاذه المحبوب، واشتغل مجداً، بحيث كان لايفتر عن الدرس والمطالعة والمذاكرة والكتابة والتدريس . . .

جدّه البالغ في أمر التحصيل وطلب العلم:

وممّا يبعث العجب هو اهتمام السيّد المرجع، في تحصيل العلم، وطلب الكمال والمعارف، فقد حكى هو رحمة الله عليه انّي مرضت في يوم من الايّام، وغلبت عليّ الحمّى شديداً، وقد حضر شيخنا الاستاد الحائري رحمه الله للتدريس، وصعد المنبر لالقاء دروسه على من يحضر عليه. فاردت ان اقوم واحضر في مجلس الدرس، لكن شدّة الحمّى قد عاقتني عن ذلك ولم اقدر على القيام والذهاب من حجرتي بمدرسة الفيضية، الى محلّ درسه بها، فطلبت من زملائي واصدقائي ان يحملوني مع فراشي ولحافي الى مجلس الدرس، ولكن رعاية للادب بالنسبة الى شيخي واستاذي طلبت منهم ان يضعوني في ناحية ظهر المنبر.

زهده وتقواه:

ومن النقاط الوضائة في حياة السيد المرجع الفقيد، التي قد امتاز بها عن أقرانه ومعاصريه هو شدّة قدسه وعمق ورعه وتقاه، فكان على جانب عظيم من الصلاح والقدس والتقوى وطهارة النفس، بل كان هذا من خصائصه، منذ صغره، وأوائل أمره.

وقد حُكي عن بعض زملائه، في ايّام طفولته، وعندما كان يحضر عند معلّم الاطفال،

انّ الأطفال كانوا يأتون بطعامهم ويأكلون معاً، فكان يأكل هذا مما أتى به غيره وهكذا، إلا أنّ السيّد الجليل كان يأكل وحده، ولا يخلط طعامه بطعام الآخرين قائلاً: إنّي أخاف عدم رضى أوليائهم بذلك حيث انّ طعامهم كان أحسن من غذائه.

وظلت هذه الروح الدينية جارية في وجوده وتتقوّى في أعماق نفسه، كلّما كان يترقى في المقامات العلمية، وقد اشتهر بذلك بين علماء الحوزة وفضلاء عصره.

وحكى لي بعض أهل الوعظ والمنبر أنّي قد استجزت من السيّد الامام الخميني قدّس سره، أيّام تبعيده في العراق في أخذ الوجوه ومال الإمام عليه السلام، وذكرت أنّ لي اجازات من فلان وفلان وذكرت أسماءهم، ومنهم السيّد الگلپايگاني. فأجاب الامام الخميني بأنّي قد أجزت لك على حسب ما أجازه السيّد الگلپايگاني . . . .

مقامه العلمّي الرفيع:

ومّما لم ينكره السلف والخلف واتّفق عليه الأكابر والأصاغر هو رفعة مقام السيّد المرجع العلمي وفقاهته السامية فلا يزال يعرف بين افاضل الحوزة منذ شبابه بالفضل الكثير والعلم الغزير والفقه العميق الامتن.

وقد حكى قدّس سرّه أنّه عند بروز دولة الطاغوت والامتحان الاجباري قال شيخنا الاستاذ الحائري لي ولزميلين لي انتم والله مجتهدون إلاّ أنّه قد طلبوا مني امتحان الطلاّب اذاً فاقبلوا انتم ذلك كي يتسلّم الباقون.

فقد حلف المؤسس الحائري بلفظ الجلالة على بلوغ السيّد المرجع ونيله مرتبة الاجتهاد والاستنباط وهو في أيّام شبابه.

وذكر العالم المحقق الجليل آية الله الشيخ مرتضى الاردكاني المعاصر صاحب المقامات العلمية والكمالات النفسانية والتآليف القيّمة: انّ للشيخ الحائري عناية بي بلحاظ ما كان من التعرّف والتودّد بينه وبين والدي فكنت ذات يوم عنده فاذا قد دخل عليه سيّدان شابّان وقد اكرمهما الشيخ الحائري كثيراً وما كنت اعرفهما حتى ذلك اليَوم وبعد ان خرجا من عنده سألته عنهما فاجاب: هذان مجتهدان عادلان: السيّد احمد الخوانساري والسيّد محمد رضا الگلپايگاني.

وعلى حسب نقل هـذا العالم الجليل فقـد صرّح المؤسس الحـائري باجتهاد سيّـدنا المرجع وعدالته في ايّام شبابه وكفى بذلك فخراً وشرفاً.

أساتذته ومشايخه العظام:

قد حضر السيّـد المرجع لدى جماعـة من الاساتذة الأعلام والمشايـخ الكرام وتتلمذ عليهم واستفاد منهم كثيراً ومن أبرز الذين وقفت على أسمائهم من أساتذته:

١ـ السيّد محمد حسن الخوانساري ـــ شقيق الآية العظمى السيّد احمد الخوانساري اعلى الله مقامه ـ

٢ـ الشيخ ميرزا محمد باقر الگلپايگاني المتولّد في گلپايگان والمدفون بقم

٣ـ الآخونـد ملاّ محمد تقي الگوگـدي الگلپايگاني وهو من اعـلام عصره ومن افضل تلامذة الخراساني.

٤ـ مـؤسس الحوزة العلمية بقـم صاحب النفس الطـاهرة القدسيّـة وآية الله العظمى حضرة الشيخ عبد الكريم الحائري اعلى الله مقامه.

٥ـ العالم العلم والاصولي الشهير حضـرة الشيخ محمد رضا مسجدشاهي النجفي اعلى الله مقامه.

٦ـ المحقـق الجليل الطائر اسمـه في الآفاق الميـرزا محمد حسين النـائيني اعلى الله مقامه وقد حضـر السيد المرجع درسه في زمان جاء المحقق النـائيني مع عدّة من اعلام النجف الى ايران ونزلوا في قم.

٧ـ المحقق الكبير الشيخ محمد حسين الكمپاني الأصفهاني أعلى الله مقامه.

٨ـ المحقق الأصـولي الشيخ ضياء الـدين العراقي اعلى الله مقـامه، وكان قـد حضر درسه في النجف عندما سافر اليه للزيارة.

٩ـ الزعيم الديني الأكبر حضرة السيد أبو الحسن الأصفهاني أعلى الله مقامه.

وجدير بـالذكر أنّ للسيّد المـرجع علاقة خاصّـة بالامام الأصفهاني وبكتـابه وسيلة النجاة وقد علّق عليه تعاليق وسنذكرها في سرد آثاره العلمية.

١٠ـ الـزعيم العالمي والمـرجع العام لـلإمامية في عصـره حضرة السيّد آقـا حسين

الطباطبائي البروجردي قدّس سره الشريف.

تدريسه ومجلس درسه:

مّما له أثـر خاص في تصويـر شـخصيه السيد علمياً واجتمـاعياً هو مباشـرته لأمر التـدريس ولا ندري هـل أنّه كـان من اوائل أمـره وعندمـا كان مشتغـلاً بالتحصيـل في كلپايگان أو شـرع في التدريس عندمـا كان في اراك ولكن من المعلوم المعهـود اشتغاله البالغ فـي قم بذلك. وقـد عدّ في بعض المجلّات والجـرائد المنتشرة في ذاك الـزمان من معارف المدرّسين.

فهذه مجلة همايـون التي كانت تنتشر في زمن آية الله المؤسس وقـد عقد هناك بحثاً عن الروحانية فـي ايران وهناك فصل بالنسبة الى مدرّسي الحـوزة العلمية وذكر اسامي اثني عشر من رجالات العلم اوّلهم آية الله المؤسس الحائري قدّس سره ثمّ عدّ الباقي وذكر السيّد المرجع تاسعاً منهم.

وعلى مـا ورد في بعضـب كتب التـراجم كان لـه ثـلاثة دروس لتـدريس الأصـول وتدريسان في الفقه.

وقد ذكر لي في بعض المناسبات عن اوائل امره حينما كان يدرّس السطح العالي انّه كان يدرّس في كل يوم خمسة دروس أو أكثر...

ولم يتـرك التـدريس حتّـى عند اعتـلاء مـرجعينه اى بعـد ارتحـال آيـة الله العظمى البروجردي قدّس سره إلاّ انّه اقتصر على تدريس الفقه وترك الأصول.

وقـد وفقه الله تعـالـى لتدريـس كثير مـن ابـواب الفقه مـن العبادات والمعـامـلات والسياسيّات... بل وقد درس بعض المباحث الهامة مرّتين وذلك مثل الحج يقول تلميذه الشيخ الصـابري: وقد كـان قدس سره درس الحـج في دورته الاولى لجمع مـن فضلاء الحوزة، وبعد ما القت الـرياسة الدينيه وزعامة الجامعـة الكبرى العلمية ازمّتها اليه درس الدورة الثانية لرواد الفضـل وطلّاب العلم وحملة الفقه[٢] وقد منحه الله تعـالى وخصّه من بين أقرانـه وزملائه من المراجـع بانّ وفّقه للتدريـس على مستوى الخارج مـا يقرب من ستين سنـة وكان في مـدة ثلاثيـن سنة منهـا يلقي تلك الـدروس على مئات مـن العلماء

الأفاضل والمجتهدين الأكارم وربما ينوف ألفاً أو يزيد عليه.

دعوته الى الوحدة الاسلامية:

منذ أيّام مـرجعيته وزعامته يعني ما يقـرب من خمس وثلاثين سنة كـان داعياً الأمة الاسلاميـة الى الاتحاد وحـدة الكلمة، وقد خطـا خطوات هامّـة، لتقريب الأمـة المسلمة بعضـها ببعـض، كي يقاومـوا متكاتفين في قبـال الكفّار وكم التقـى به علماء أهـل السنّة والجماعة وسوادهم فحاججهم بأحسن اسلوب اخلاقي، وتحدّث لهم، ودعاهم الى الوحدة وطرح ما يوجب الفرقة.

ومن جملة تلك المواقـف زيارة أئمة الجمعة سماحته في داره، ومـا دعاهم اليه واليك صورة مختصـرة منه علـى ما في بعـض المجلات فانّـه ذكر تحـت عنوان: كلمـة آية الله العظمى الگلپايگاني في أئمة الجمعة

بناء على تقرير مراسلنا من قم انّ أئمة الجمعـة قاموا بزيارة لسماحة آية الله العظمى الگلپايگاني وقد رحّب بقدومهم مذاكراً ايّاهم بانّ في استطاعة صلاة الجمعة ان توحد كافة ابناء الشعب وتدعوهم لتنفيذ احكام الله سواء في داخل البِلاد او خارجها.

واضـاف سمـاحته: انّ قيام الجمهوريـة الاسلامية هـذه الفترة من الزمن يعتبـر هبة الهية من العليّ القدير علينا ونسأله أن يهيـئ سبل ترسيخها أكثر وانّ من اهمّ هذه السبل صلاة الجمعة.

واشـار سمـاحته بانّه يجب بـذل المزيد من الـدّقة في اختيار ائمة الجمعـة ان يبيّنوا للناس الأصـول العقائديـة ويتحدّثوا عـن التأريخ الاسـلامي الصحيح ويشرحـوا خطب وبيانات الامام علي عليه السلام كرسالـة الامام لمالك الأشتر المتعلقة بأسس القيادة في الحكومة الاسلامية.

وقد رحّب سماحته كثيراً بحضور ائمة الجمعة من السنّة واشتراكهم في هذه الندوة، وتمنّى ان تسـود الوحدة الشـاملة بين الأخوة سنّـة وشيعة وفي المستقبل القـريب، وان تمحى الخلافـات التي كانت سائدة بينهم في المـاضي، وان يكونوا يداً واحـدة متماسكة بصفتهم امّة الرسول، ويسعوا لنشر الوعي لتركيز كيان الاسلام ومعرفته.

وجاء في قسم آخر من خطاب سماحته: انني عندما كنت في زيارتي لبيت الله الحرام التقيت بعدد من علماء أهل السنّةوذكرت لهم بأنّ القضـايا المشتركة بين الشيعة والسنّة أكثر من القضايا الخلافية. اذن لم لانتّفق على المســائل المشتركة ونردّ بذلك رداً حاسماً على اعدائنا [٢].

المرجع الفقيد ومناهج الحوزة:

ومّما كان يعتقد به المرجع الأعلى السيد الگلپايكاني من الماضي المستمر الى الحين هو كون الحـوزة بحاجة الى منـاهج فعّالة، وبرامج بنـاءة، كي تتربى في ضـوئها وظلها عناصر مفيدة تكون في خدمة الاســلام وتنتشر بهم المعارف الاسلامية الحية في اقطار العالم وعلى هذا الفكر الوضّاء فقد اسّس في قـم ـ عاصمة الحوزات العلمية ـ لأوّل مرتبة مدرســة بل مدارس منتظمة تحظى من خطـوط خاصّة ماديّـة ومعنوية وجعل لهـا مناهج تربوية واخذ نسل الناشئة تحت ستر هذه البـرامج وقرّر لها ضوابط خاصّة فلم يكن يرد فيها الا من حمـل معه تلك المقررات ومن كـان واجداً لتلك الشرائط كما وقـد جعل عليهم امتحانـات شهرياً وسنـوياً وامـر باعطاء جـوائز مختلفة لمن نجح وفـاق فيها كمـا وانّه رضوان الله عليه كان قد خصّـهم برواتب شهرية ما يكفي مؤنتهم.

وقد ورد في بعض ما نشر من ناحية المدرسة:

ان منهاج مدرستنا يتضمّن دروساً مركـزة في التجويد والاخلاق والعقائد والمفاهيم الاسلاميـة وعلوم القرآن والدّرايـة والتفسير والرجـال واصول الفقه المقارن والخطـابة والاملاء والانشاء والتاريخ، بالاضافـة الى العلوم المتداول دراستها: من النحو والصرف والبلاغـة والمنطق والاصول والفقه، كـلّ ذلك حرصاً على تسليـح طلاب العلم بكافـة ما يحتاجون اليه من معارف وعلوم وافكار لأداء واجباتهم كاملة غير منقوصة.

مواقفه السياسية كما تظهر من بعض فتاواه:

كما وان فتاواه الشريفة تنبئ عن كمال تعبّده وتسليمه إزاء امر الله سبحانه كذلك فانّ منها دلالـة على احساسه بـالمشكلات الاجتماعية والسيـاسية وكأنه دام ظلـه من خلال

فتاواه يكافح الاستعمار ويبيّن مواقفه الشريفة قبال الأيادي الاجنبية وعملائهم المتحالفين على محو الاسلام ـ لا وفقهم الله لذلك ـ وعلى هذا الاساس رأينا بعضاً من هذا القسم من فتاواه الشريفة قد طبع مستقلاً ونشر بصورة بيانات له قدس سره ضد النظام الطاغوتي الفاسد واليك بعض تلك الفتاوى والمسائل.

قال قدس سره في باب صلاة القضاء: يستحب تمرين الاطفال المميّزين وتعويدهم على قضاء ما يفوتهم من الصلوات، وكذلك يستحب تمرينهم وتعويدهم على اداء جميع الفرائض والنوافل، بل جميع العبادات والأعمال الصالحة والخلق الحسن والسيرة الطيبة، ويجب على اولياء الأطفال ان يمنعوهم من كلّ عمل يضرّ بانفسهم وبغيرهم ومن كل عمل نهى عنه الشارع المقدّس كالزنا واللواط والغيبة والغناء.

ثم قال: وكذلك يحرم ارسالهم الى المدارس التّي يعلّم فيها المعلّمون الفاسقون ومن لا ايمان لهم، فيفسدون ايمان الطفل وعقيدته، بل يجب على المسلمين كمال الانتباه والمراقبة، فان لم يطمئنوا الى وضع المدارس من رياض اطفال وابتدائيات وثانويات، امتنعوا عن ارسال اطفالهم الابرياء الى مثل هذه الاماكن فان لم يفعلوا كان الوزر واقعاً عليهم في فساد عقيدة ابنائهم بل ابناء ابنائهم الى يوم القيامة(٤).

اشرافه على الامور وعنايته بأمر المجتمع:

إنّ سيّدنا المرجع الفقيد كان بصيراً بالزمان واحتياجاته وضروراته، وله توجّه واشراف بالنسبة الى الحوادث العالمية وما عليه العالم من مشاكل دينيّة واجتماعية وسياسية واقتصادية، ولذا فله خطوات قيّمة في تلك النواحي وأقدم على امور قلّما يتّفق ان يقدم على مثلها مرجع ديني على كهولته وكبر سنّه وضعف قواه.

ومن جملة تلك الخطوات القيّمة تأسيس مركز عظيم في لندن باسم المجمع الاسلامي العالمي، واحياء معالم الدين ومعارفه وشعائر الاسلام وآدابه، ونشر تعاليمه في قلب اوربا حيث انّ لندن عاصمة يتوجّه اليها الناس من ارجاء المعمورة وتجتمع فيها الاقوام المختلفة من اقطار العالم، وصار بحمد الله ومنّه مركزاً ثقافيا علّمياً دينيّاً تقام فيه الجمعة والجماعة والمجالس العظيمة في تعازي الأئمة الطاهرين خصوصاً في شهر

محرّم وشهر رمضان المبارك يدعى اليه الوعاظ والخطباء للوعظ والخطابة وارشاد الناس وهم يلقون مطالبهم وارشاداتهم على حشد الحاضرين من شتى بقاع العالم.

وانّي قد شاهدت بنفسي هذا المجمع القيّم قبل حدود ثلاث عشرة سنة ورأيت قاعاته وغرفه العديدة وساحاته الكبيرة ورأيت في الطابق الأعلى منه ساحة وسيعة قد هيئ فيها آنذاك الف كرسي وسمعت انّ في ليالي القدر وبعض المناسبات الأخرى لم يبق منها كرسي خال بل كلها كانت مشغولة بالمشاركين في تلك الحفلات الدينية القيّمة كما واني شاهدت في كثير من الأيّام من كان يراجع المركز لاشهار إسلامه والتشرّف بالدين المحمدي الحنيف صلّى الله عليه وآله. نعم هذه نفحة من بركات وجود هذا المرجع الكبير ترشحت من نية خالصة وحب للاسلام والمسلمين.

ذكر بعض أهل العلم والقلم من لبنان في هذا الشأن عند سرد الخدمات العظيمة لسيّدنا المرجع قدس سره الشريف:

تأسيس مجمع اسلامي في لندن بشراء بناية في منطقة حسّاسة من مناطق مدينة لندن يختلف اليه كافّة المسلمين. وهو الآن مركز ديني علمي تحقيقي تبليغي تثقيفي برغم حداثة تأسيسه يؤمّه المسلمون من الشيعة والسنّة وغير المسلمين للتعرّف على مبادئ الدين الحنيف والعلوم الاسلامية . . . وقد اكتسب هذا المركز تعاطف المسلمين القاطنين في بريطانيا والطلبة المهاجرين اليها والبريطانيين انفسهم.[٥]

وجدير بالذكر انّ للمجمع المذكور بعض الاصدارات منها: نداء الاسلام من اوربا الذي صدر سنة ١٣٩٧هـ.

وله أعلى الله مقامه مؤسسة مباركة في قم المشرّفة تتسم بسعة البناء وفخامة المبنى تحتوي على مراكز عبادية وعلمية وفكرية وثقافية تتلخص في ما يلي:

١ـ المسجد، وهو مسجد عظيم تقام فيه الجماعة أوقات الفريضة بامامة بعض تلاميذه وأصحابه المحترمين ويجتمع فيه حشد كبير لاداء الصلاة جماعة.

وجدير بالذكر انّ سيدنا المرجع رضوان الله عليه كان يقيم الجماعة بنفسه في هذا المسجد خصوصاً في شهر رمضان المبارك وكان المسجد الشريف داخلاً وخارجاً غاصّاً بجماعة المصلّين الذين حضروا للفوز بفيض جماعته قدس سره.

٢ـ **قاعات عديدة للدراسة** تبلغ خمساً وعشرين قاعة معدّة لتدريس الاساتذة والقاء دروسهم على تلامـذتهم وتجد على رأس كلّ ساعة فـوجاً يخرجون من كلّ منهـا وفوجاً يدخلون، في حال لايسمح لكلّ من اراد التدريس ان يتّخـذها مدرساً له، بل للتدريس فيها ضوابط ومقرّرات خاصّة ومنها انّه يعتبرفي المادة الدراسية ان تكون ـ على الأقل ـ ممثّلة لمرحلة السطح العالـي كالرسائل والمكاسب حيث تدرس كتب هـذه المرحلة وفي الجملة فالدروس المتداولة هنـاك ما بين رسائل ومكاسب وكفاية وعلى مستـوى الدراسة العالية المصطلح عليها بالخارج.

وهذه القاعات معدّة لدروس يحضرها مـا بين عشرة الى مأتين وخمسين تقريباً من الطـلّاب والفضلاء، وامّـا الدروس التّـي يحضرهـا عدد كبيـر فانّهـا تلقى في المسجـد المذكور.

ويجدر ان يـذكر انّ عدد الـدروس التّي تلقى يوميـاً هناك بلغ مأة وخمسـة وثلاثين درساً.

وقد سمعنا بعض الأعـلام ـ وهو ممّن يدرّس البحث الخارج في المسجـد المذكور ـ يقول: انّ هذا العـدد الكثير من الدرس في مدرسـة واحدة مّما ليست له سابقـة في تأريخ الدراسة.

٣ـ **مكتبة عظيمة** مشتملة على صالات كبيرة عديـدة وقاعات وسيعة ومخازن للكتب الخطّيـة والمطبوعـة وقـد حوت تلـك المكتبة عشـرات الآلاف من الكتـب ما بيـن الخطّي والمطبوع، وقد طبعت وانتشـرت مجلّدات عديدة من الفهارس الخطّية لهـا وبقى بعد عدد كبير منها لم تنتشر فهارسه.

٤ـ **دارالقـرآن الكريم.** والحـركة الفعّـالة فـي هذا القسـم تختّص بالقـرآن الكـريم والتحقيق حوله وحول علوم القرآن المختلفة وجمع انواع القرآن وترجماته بالالسنة الحيّة وغيرها والـدراسة حول القرآن الكريـم والحثّ على حفظه واعطاء رواتب شهـرية لحفّاظ القرآن ونشر ثقافة القرآن . . .

ففي تقـرير قد مضى قسـم منه آنفا: فقـد أمر ـ أي السيّـد المرجع«ره» ـــ بتأسيس دارالقرآن للعمل فـي طبع وتوزيع القـرآن المجيد بطباعـات ممتازة خالصـة من الأخطاء

وطبع تراجم دقيقة له بشتّى اللغات الحيّة واصدار دراسات عميقة قرآنية تناسب ذوق العصر وجمع نماذج من النسخ المطبوعة في أقطار العالم والمحاولة في الحصول على نسخ خطّية قيّمة بخطوط مشاهير الحفّاظين القدامى.

ونقرأ فيما كتبه الحجة الراحل السيد مهدي الگلپايگاني رضوان الله عليه نجل الامام الگلپايگاني دام ظله في ورقات طبعت بضميمة القرآن الكريم المطبوع من ناحية دارالقرآن: وللقيام بجزء من الواجب اسّست (دارالقرآن الكريم) لكي تتكفّل بنشر الثقافة القرآنية وذلك بطبع القرآن الكريم وطبع تراجم دقيقة له بالفارسية والفرنسية والالمانية والانكليزية وساير اللغات الحية وكذلك طبع بعض التفاسير الهامة والكتب التي تدرس مواضيع علوم القرآن. . .

وجدير بالذكر انّه في كل سنة ينعقد من ناحية دارالقرآن مؤتمر قرآني في كل سنة في ٢٧ رجب المرجّب ويجتمع فيه المفكّرون ورجال الأدب القرآني يفتتح بقراءة بيان سيدنا المرجع.

ومن جهود هذا القسم نشر مجلة شريفة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية باسم ـ رسالة القرآن ـ تصدر الى شتى ارجاء العالم الاسلامي وقد اثّرت بالغ الأثر في نفوس من يخفق قلبه للاسلام والقرآن.

واليك انموذج من الرسائل الواصلة الى مكتب تلك المجلّة وهي من الشاعر الجزائري المعروف مصطفى الغماري الاستاذ في جامعة الجزائر يقول فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الفاضل رئيس تحرير مجلّة ـ رسالة القرآن ـ تحيّة مباركة طيبة. وصلني العدد الأوّل من مجلتكم الممتازة ـ رسالة القرآن ـ فغمرتني فرحة طاغية وان كان الشئ من مأتاه لايستغرب فما زالت الجمهورية الاسلامية السبّاقة الى ما فيه شرف الاسلام وعزّ المسلمين وما زال رجالهم وعلماؤهم العظام يبدعون في مجالات الفكر والعلم والعمل دام ظلهم العالي في سبيل الاسلام العزيز، **(ولينصرنّ الله من ينصره)** علماً انّ صدور العدد الأوّل من مجلّة رسالة القرآن بهذه الصورة من الاخراج الرفيع وبهذا المستوى الفكري

الممتاز من حيث المضمون لجدير ان تكون مجلة كل مسلم رسالي يريد ان يثقف نفسه ويزيل عنها غبار التقليد في المنهج والسطحية في التناول اللذين سادا في العصور الأخيرة وانّ صدور المجلّة لا يحمد لدارالقرآن الكريم، إنّها يد بيضاء للامام آية الله العظمى الگلپايگاني دام ظلّه ولمدرسته ادامها الله قبساً من نور القرآن الباقي، وبما انني مشرف على تدريس مادّة علوم القرآن وعلوم الحديث بكلّية اللغة العربية وآدابها (جامعة الجزائر) فاطلب منكم أن تبعثوا لي نسخة من مطبوعة المؤتمر الأوّل لدارالقرآن الكريم التي اشرتم اليها بالمجلة ص١٨٧ واحاول ـ ان شاء الله ـ ان ازودكم بما يقع بين يدّي مّما يهم المجلّة والدار من وثائق او محاضرات او ندوات تُعقد او عُقدت حول الموضوع دمتم لخدمة الاسلام

أخوكم مصطفى محمد الغماري (٦)

ومن برامج الدار تعليم القرآن بالمنهاج الحديث وحث الشباب وتوجيههم الى القرآن وامتحانهم واعطاء الجوائز للفائزين وقد يقوم بذلك السيّد المرجع قدّس سره واليك هذا الخبر:

اقامت دارالقرآن الكريم دورتها الأولى لتعليم قواعد التجويد وعلوم القرآن الكريم في مدرسة سماحة آية الله العظمى السيّد الگلپايگاني ـ مدّظلّه الوارف ـ خلال ليالي شهر رمضان المبارك وقد شارك في هذه الدورة أكثر من ٢٠٠ من الشباب وطلّاب الحوزة العلميّة في مدينة قم المقدّسة، وفي الليلة الخامسة عشرة من الشهر العظيم اقيم احتفال بمناسبة ليلة ولادة الإمام الحسن عليه السلام وقضى المشاركون ليلة مباركة في ظل القرآن الكريم. وفي ختام الدورة ادّى المشاركون الامتحان النهائي ثم اختير الفائزون الأوائل الذين قاموا بزيارة سماحة آية الله العظمى السيّد الگلپايگاني لاستلام الجوائز من سماحته وقال سماحته في كلمة القاها في الحاضرين:

ينبغي السعي من اجل طّي المراحل الثلاثة مع القرآن الكريم

المرحلة الأولى: تعلّم القرآن.

المرحلة الثانية: التجويد وحفظ القرآن.

المرحلة الثالثة: فهم القرآن من خلال التفسير.

ثم اضاف سماحته: لو استطعتم اجتياز هذه المراحل الثلاثة فانتم محفوظون ان شاء الله من الشهوات والوساوس الشيطانية وفي امان من امواج الشبهات المضلّة.

ثم دعا للحاضرين بالتوفيق للعمل بكتاب الله والسعي لتعلمه وحفظه واداء حقّه. (٧)

٥ـ مركز المعجم الفقهي وحياة الفقهاء.

عمل هذا المركز يتوزّع على قسمين:

الأوّل: المعجم الفقهي والهدف منه تلبية حاجة الفقهاء والطلاّب بتسهيل رجوعهم الى مصادر المادّة الفقهية بشكل دقيق ووقت قصير الخ.

ثم انّ عمل كل برامج هذا المركز الوسيع يكون بالكمپيوتر وقد رأينا ما يقرب من ثلاثين كمپيوتر أو أكثر يعمل بها عدد كثير من الطلاّب وغيرهم.

الثاني: حياة الفقهاء،

فان من الطبيعي لمن راجع الفقه وكلمات الفقهاء في المسائل ان يعرف الفقهاء أيضاً فبجنب الأحكام الفقهية وكلمات الفقهاء لابدّ من معرفة هؤلاء الفقهاء.

وممّا جاء في برنامج حياة الفقهاء ما هذا نصّه:

«نظراً لعدم اطّلاع كثير من اخواننا السنّيين على فقهنا الشيعي وفقهائنا، اخترنا سبعين فقيهاً وعالماً من الفقهاء والمؤلفين في عصور مختلفة وجمعنا موادّ ترجماتهم من مصادرها واعطيناها الى الكمپيوتر ونشتغل فعلاً بعملها في برنامج كمپيوتري يعرف منه الباحث كلّ ما ذكرته المصادر حول الفقيه من جوانب حياته العلمية والروحية والاجتماعية . . . كلّ ذلك من النصوص الواردة في ترجمته بدون دخالة منّا، وسيصدر في برنامج كمپيوتري وتطبع خلاصته في مجلّد واحد ان شاء الله تعالى» انتهى.

٦ـ مركز الاصدارات وهذا المركز معدّ للطباعة والتوزيع والنشر بالنسبة الى ذخائر التراث الاسلامي وله خطوات موفّقة في هذا السبيل وقد بذل جهوداً محمودة وخدم الاسلام والمسلمين بنشر كتب كثيرة من كتب السيد المرجع قدس سره وكتب العلماء من المتقدّمين والمتأخرين وآثار المفكّرين والمحققين فاصبح بحمد الله وله المنّ من مراكز

النشر المعتبرة والمشهورة.

ومن جملة ما نشره هذا المركز الكتب التالية:

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ ماذا نزل من القرآن في أهل البيت؟

٣ـ رسائل السيّد المرتضى في ثلاث مجلّدات.

٤ـ تفسير القرآن بالقرآن عند العلاّمة الطباطبائي.

٥ـ سلسلة في رحاب القرآن.

٦ـ صيانة القرآن من التحريف.

٧ـ الامامة والولاية في القرآن الكريم.

٨ـ التحقيق في نفي التحريف.

٩ـ القرآن مصون عن التحريف.

١٠ـ أقطاب الداوائر.

١١ـ مسند فاطمة الزهراء . . .

١٢ـ قضاء المحقق الميرزا الرشتي.

١٣ـ سيماء عباد الرحمن.

١٤ـ الأحكام الشرعية ثابتة لاتتغيّر.

١٥ـ مع الشيخ جاد الحقّ.

١٦ـ ايران تُسأل فتجيب.

١٧ـ كتاب الطهارة.

١٨ـ كتاب الحج.

١٩ـ حول مسائل الحج.

٢٠ـ مناسك الحج.

٢١ـ آراء المراجع في الحج.

٢٢ـ توضيح المسائل.

٢٣ـ جمع المسائل.

٢٤ـ مختصر الأحكام.

٢٥ـ صلاة الخوف.

٢٦ـ افاضة العوائد.

٢٧ـ نعمة ولاية أهل البيت.

٢٨ـ شناخت قرآن از رهگذر قرآن.

٢٩ـ الدرّ المنضود في احكام الحدود.

٣٠ـ نتاج الأفكار.

● الهوامش:

(*) هذا العنوان هو لكتاب مخطوط، ارتأينا أن نقتطف منه ما يتناسب والمجال المسموح به، بعد أن أجازنا سماحة المؤلف، حفظه الله، فجزاه الله خيراً.

(١) نصاب الصبيان في تعليم اللغة العربية لشباب الفرس بالنظم الفارسي لبدر الدين ابي نصر مسعود بن ابي بكر ابن الحسين بن جعفر الفراهي السجزي (ت ٦٤٠) وقبره بقرية (رج) من نواحي فراه ... وامّا منظومة النصاب فهي في ٢٠٠ بيت فسّر بها ١٢٢٢حكمة عربيــة بالفارسية وهي أقدم منظـومة من نوعها، كـانت تعلّم في ايران وافغانستان والهند في المدارس والكتّاب حتّى فتحب المدارس الجـديدة، وعليها شروح كثيرة ... الذريعة الى تصانيف الشيعة ١٦:٢٤.

(٢) كتاب الحج١:٥.

(٣) صوت الاسلام العدد الأوّل السنة الاولى، ربيع الأوّل١٤٠١هـ: ١٢ ـ ٢٢.

(٤) مختصر الاحكام، المطبعة العلمية شعبان المعظّم ١٣٩٠هـ: ٧٢.

(٥) صفحات من نور:٩.

(٦) رسالة القرآن العدد الثالث ١٤١١: ٢١١.

(٧) رسالة القرآن العدد السابع ١٤١٢ :٢٢٨.

النص الكامل لوصية المرجع الراحل قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّىٰ الله على محمد وعترته الطيّبين الطاهرين ولعن الله أعداءهم أجمعين.

بعد الاقرار بوحدانيّة الله تعالىٰ جلّت عظمته، والاقرار بنبوة الأنبياء العظام، خصوصاً خاتم الأنبياء صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم، و ولاية أمير المؤمنين(ع)، وسائر الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، سيّما سيدي ومولاي بقيّة الله الأعظم الحجّة بن الحسن العسكري، عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف، والاقرار بالمعاد، وجميع العقائد الحقّة، وما أُنزل علىٰ النبي صلّىٰ الله عليه وآله، انني أُوصي بما يلي:

اولاً: أُوصي عموم الاخوة والاخوات في الايمان بالتقوى والورع واداء الواجبات، واجتناب المحرّمات، والتمسك بحبل ولاية أهل البيت عليهم السّلام، ورعاية حقوق وحفظ شؤون الآخرين، والتآلف والتعاطف فيما بينهم، والسعي لاعلاء كلمة الاسلام واصلاح ذات البين.

ثانياً: ما يتعلق بشؤون الحوزات العلمية أُذكّر حضرات السادة: آيات الله، والاساتذة المحترمين، والطلبة الاعزاء بما يلي:

إنّ العظمة والأهمية التي تتمتع بها الحوزات العلمية، في الوقت الحاضر، وخصوصاً الشُهرة العالمية الواسعة للحوزة العلمية في قم، والتي تحققت بعد الثورة الاسلامية والتوفيقات التي نالتها حتى أصبحت يد الحاجةِ تمتّد الىٰ هذا المركز الشيعي، من الشرق والغرب، كل ذلك نتيجة لارشادات وتبليغات وجهود وتضحيات علماء السلف والفقهاء

العظام وما تحملوهُ من المتاعب والمشاق، وهي الآن أمانة في أيديكم.

وعليكم بالاتحاد والتعاون والابتعاد عن أي نوع من أنواع النفاق، والمحافظة على هذا الميراث الغالي، الذي هو في الواقع ميراث الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وعليكم أن تبذلوا ـ ما في وسِعكم ـ علماً وعملاً وبالاخلاق الحسنة الاسلامية، للرُقّي أكثر فأكثر في عظمة واستقلال هذهِ الحوزة وشخصيتها العلمية والمعنوية لتكونوا قادرين على معالجة كل قضايا العالم الاسلامي، بل عالم البشرية جمعاء، وخصوصاً حراسة استقلال الحوزة وادارتها تحت اشراف المراجع العظام، حيث اكدّتُ على ذلك مراراً، واؤكد مرة اخرى، فانتم مسؤولون أمام ولي العصر عجلّ الله تعالى فرجهُ الشريف، وعليكم أن تبذلوا قصارى جهدكم في سبيل ذلك، وانشاء الله ستكونون مورداً لعنايته ورضاه، حتى تتمكنوا من التأثير في المجتمع الحاضر، وخصوصاً الشباب منهم، لتجذبوهم نحوكم، ولتنقذوهم من شرّ الثقافة الغربية المُنحطّة، وهدايتهم نحو الاسلام الأصيل.

وعليكم أيّها الطلاّب الاعزاء ان تُخلِصوا نيّاتِكم، وتواصلوا ـ وباستمرار ـ ارتباطكم بالأئمة الاطهار(ع)، وخصوصاً سيدنا ومولانا ولي العصر صاحب الزمان عجلّ الله تعالى فرجه الشريف، وكذلك الاكثار من تلاوة القرآن الكريم والأدعية المأثورة، وكذلك ابداء الاخلاص والادب لكريمة الامام موسى بن جعفر سلام الله عليها، وان كل تلك الامور هي رمز الفلاح والتوفيق في مواصلة المسير في دراستنا.

ويجب أن تكون علوم أهل البيت عليهم السلام والفقه والحديث نوراً ساطعاً يضيء الحوزات العلمية، وأن تتجسّد فيها علوم الامام الناطق بالحق جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام وأتباع مدرسته.

ثالثاً: ان من الضروري الحفاظ علىٰ اصل الجمهورية الاسلامية، وعلىٰ المسؤولين المحترمين ان لا ينحرفوا عن الخط الاسلامي المستقيم، وان يبذلوا جهدهم يوماً بعد آخر من اجل تطبيق النظام مع الاسلام اكثر فاكثر، وعليهم الابتعاد عن كل اختلاف وتفرقة، وان يحافظوا بالاتحاد على هذهِ الهِبةِ الالهية، وان يبذلوا اقصىٰ جهودهم في سبيل تحقيق الخير والصلاح للضعفاء، وتفقّد أحوالهم، وعلىٰ أبناء الشعب أن لا يألوا جهداً في الحفاظ علىٰ انجازات الثورة الاسلامية، وان يكرسوا مساعيهم وجهودهم، نحو دعم حاكمية

اهداف القرآن المجيد، واعلاء كلمة الاسلام، وان يراعوا في سلوكهم وتصرفاتهم الفوز بمرضاة حضرة بقية الله ارواح العالمين له الفِداء.

رابعاً: الاموال والمؤسسات التي كانت تدار باسمي، أو تحت نظري باي عنوان كانت، والتي تم تأسيسها بعناية ولي العصر عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف من الحقوق الشرعية والتبرعات، ومساعدات الناس الخيرّين والمحسنين، والتي تصدى لادارتها قرتا عينيّ الحاج السيد محمد جواد والحاج السيد محمد باقر دامت توفيقاتهما، يجري العملُ بها بالطريق الشرعي، وبالصورة التي تجري حالياً، وفي اي موردٍ لزم الاستئذان من الفقيه واجازته، فأن العمل يكون باذن سماحة آية الله الحاج الشيخ لطف الله الصافي الذي اراهُ مجتهداً مسلَماً به وعادلاً، وبعده يكون بأذن احد المجتهدين العدول في الحوزة العلمية في قم المُسلَّم باجتهادهم، وان شاء الله تعالى سوف لن يقصر المؤمنون في مدِّ يد العون والمساعدة، من أجل بقاء هذه المشاريع والأمور الخيرية.

خامساً: اوصي أولادي وأهلي بتقوىٰ الله وطاعته وعبادته والتمسك بالقرآن الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام، والتوسل بولي العصر والزمان عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف، وخصوصاً اقامة عزاء سيد الشهداء عليه السلام وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام بالطريقة المتوارثة، فهو من أفضل وسائل النجاة والزلفىٰ الى الله تعالىٰ.

وختاماً: أُشهد الله تعالىٰ والنفس الزكيّه لولي الله الاعظم، امام العصر والزمان (عج)انني لم اخطُ أية خطوة للوصول الى الجاه والمقام، وان كل ما حصلت عليه، هي مسؤوليات تحملتُها الواحدة تلو الأخرى، من ألطاف امام العصر والزمان عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف.

وفي فترة التصدي لامور المسلمين، لم اتوانَ في أي وقت عن بذل كل ما بوسعي وطاقتي من أجل اعلاءِ كلمة الله، ونشر المذهب الشيعي الحق الاثنا عشري، والعمل من أجل تقوية الحوزات العلمية ورفعتها وسموها، وتفقد الطلبة الأعزاء ومساعدتهم وتشجيع الفضلاء الكرام، واحترام العلماء الأعلام والمجتهدين العظام، ومساعدة وتفقّد احوال الضعفاء والمحرومين، ومواجهة الكفر والظلم والاضطهاد والبدِع في جميع الأوقات.

واذا كان قد صدر مني تقصير أو قصور، فانني اطلب منهم العفو والصفح في

ساحة العدل الالهي، واطلب العون والامداد من الأنوار المقدسة للمعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، وأطلب من جميع المؤمنين العفو والمغفرة.

نظمت هذهِ الوصية بمقدمةٍ وخمسة بنود وخاتمة بتاريخ الثالث من ربيع الأول ١٤١٤.

وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ رَبِ العالمين

محمد رضا الموسوي الكلپايكاني



فلندافع عن حريم انسانية الإنسان

﴿ولقد كرّمنا بني آدمَ حملناهم في البر والبحر﴾ [الإسراء: ٧٠]

تقوم حركة الكـون على أساس قوانين متماسكة، ونظام متناسق، وعـلاقات وثيقة، وأواصر ثابتـة لا تقبل التخلف والاختـلاف، من خـلال التـرابط المتيـن القائم، علـى أسـاس العلل والمعلولات، وإذا ما وجدت ظاهرة خارقة للعادة، بحيث لم تخضـع للأسباب الطبيعية المنظورة، عرفنا أن ثمة عوامل أخرى أسمى وأعلى، من عالم الأسباب والمسببات.. وهذا ما يقبـله العقل..

لأن العقل حينما يرتقي بمنطقة، الى القمم السامقة، يقرّر النتيجة، في هذه الظواهر المجهولة، ويوعز الأمر فيها الى الخلاّق الفرد الذي برأ الوجود، وأظهر الظواهر جميعا، فما شيء على الله بعزيز وهو مسبب الاسباب...

وقد قرر العقل، مـن قبل، أن ثمة هدفاً متوخى، من وراء وقـوع تلك الظواهر والوقائع غيـر العادية.. فهي ليست عبثا، ولهذا فان الظواهر التي تخترق المألـوف، وتفوق حدّ التصور، وتعتبر غير عادية تكون شاهداً على صدق ادّعاء من ياتي بها، لمّا يكون الهدف منها واضحـاً معروفاً.

والقرآن ــ الحبل المتين الممدود بين الخالـق وخلقه ـ بحق معجزة عجيبـة خالدة نزلـت على صدر النبي الابـراهيمي، سليل الأنبيـاء الطاهـرين، ووريث الـرسل الأبرار المنـزهين، معـادن الخير والبـركة والعطاء.

وإنّما اصبح القـرآن معجزة خالدة، لأنـه كرّس التجربة البشـرية، منذ اللحظة الأولى لخلـق العالم، وذكر تاريخ الانسان وحـركته عبر الأجيال المتمادية، ولبّى نداء الفطرة، واستجـاب لكلّ طموحات البشر وآمالهم وحاجاتهم، وعالج آلامهم ومعاناتهـم، الى قيام الساعة، وحشّد الحقائق والاسرار وجميع الأبعاد الواسعة التي تكتنف الكون وجميع المعارف الالهية.. كل ذلـك مع جمال العبارة، وجزالة اللفظ، وتماسك الاسلوب.. معارف عظيمة في قوالب لفظية رصينة، وعبارات مختصـرة حافلة وحاشدة بالمعاني القوّية، واحتواء لكل الشـيء، في كنز فريد منقطع النظير: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾.

تبيان لكل شيء في الفاظ وأساليب متميزة بايقاعها، وجرسها، وظلالها، تبهر السامع، وتأخذ بمجامع القلوب، وتحكى عن المعجزة التي لا تضاهى، ولا يؤتى بمثلها ابداً. ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾.

ومنذ اللحظة الاولى المباركة المعطاء التي انفجر فيها نور القرآن، في ليل الانسانية البارد الحالك، ومنذ أن منّ الله تبارك وتعالى على المؤمنين، بانزال الايات المعطرة الاولى من كتابه الكريم، ومنذ أن هبط الوحي على صدر آخر الانبياء المصطفين، ومنذ ان صدع الرسول الأكرم بالأمر وانطلق في أولى خطوات الدعوة رفع، ومن خلال الوحي، شعار العلم، حيث أشارت الايات المباركات الى أن الدين لايضاد العلم ولا يعارضه، بل أن الدين الواقعي يمثل أعلى وأسمى مراتب العلم، وهو المعين العذب الصافي الذي يفيض من العلم المطلق اللامتناهي، حيث يعلّم جميع العلوم ولا ينضب: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربّك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم﴾.

وما هذا التنوع المحيّر للعقول الذي يلحظ في ظواهر العالم المشهود، والعظمة المدهشة، في بناء الكون، والاعماق المبهرة المهولة التي تغوص في العالم، والنظام الدقيق المتناسق المنسجم العجيب الذي يحكم الوجود وخلق الانسان، هذا الكائن الملغز المجهول.. ما هذه كلها إلاّ بؤرة إرشاد تشير الى وجود ثمة حقيقة كبرى، وهدف مقدس وراء خلق الانسان:

﴿وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين﴾.

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

﴿افحسبتم انّما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون﴾.

ومن البديهي جداً أنّ هذا الهدف المقدس السامي سوف لا ولن يتحقق إلاّ إذا سار الانسان، على نهج واضح المعالم، دقيق التفاصيل، محكم متين؛ ولابد أن يكون ذا برنامج ومنهج يستجيب لضروراته، ويسد حاجته، ويفجّر طاقاته، ويفتح مواهبه، ويستثير الكامن من قواه الذاتية، ويمهّد له أجواء الانطلاق في طريق الكمال، وبلوغ القمة في جميع أبعاده.

ولما كان الانسان مخلوقاً تعج فيه الأسرار، وتموج فيه الابعاد، وهو على حافتي الطبيعة وما وراء الطبيعة، كان من الضروري أن يتوفر على منهج يجمع بين الحقيقة والواقع، ويحتوى على القوانين المدروسة الدقيقة القائمة على أساس المعرفة العميقة، والشمول العام.

ولهذا ينقدح في الذهن سؤال: من هو إذن الأصلح في القيام بهذا الدور، وتسنّم اريكة الحكم والفصل بين الصالح والطالح، ما ينبغي وما لا ينبغي، بحيث يكون مشعلاً ينير الطريق الذي تحفه الآمال والآلام، وتغرقه دموع الفرح والحزن واليأس والرجاء؟

والصلاح من المفاهيم البديهية التي يدركها الذهن البشري، ويتخذها مائزاً ومقياساً، للتمييز بين الادعاءات، حيث يدرك العقل أن السفيه لا يصلح للتصرف بالاموال، والكسول المتخاذل لا يصلح لقيادة الجماعة، أو المؤسسة المهمة، والمتكبر لا يصلح أن يكون معلم أخلاق، وعلى هذا فالمسؤوليات واستثمار الطاقات لها علاقة مباشرة باللياقات والمؤهلات، وهذا القانون قانون تكويني، وسنّة لا تقبل

التغيير.

ومن هنا نرى المدارس والمذاهب المختلفة جعلت هدفها الاساسي «كمال الانسان»، وحاولت ـ ما استطاعت الى ذلك سبيلا ـ أن تكرّس الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف، في برامجها الحزبية والطائفية، وبالرغم من ذلك كلّه اخفقت اخفاقاً ذريعاً، وحرمت أتباعها من بلوغ السعادة، بل وربطتهم بألوان القلق، والتزلزل، والحرمان من السكينة والاستقرار والأمن الداخلي، وليس ذلك إلاّ لانها عجزت عن الفهم الصحيح لهذا الكائن المجهول ـ الانسان ـ إذا لم نقل أنها اخطأت فهمه، وفهمته فهماً مغلوطاً يخالف الواقع حيث ان جميع المدارس والمذاهب الوضعية المعاصرة إنّما اقامت فهمها للانسان، على بعض المعلومات السطحية التي استطاعت الحصول عليها من خلال تحشيد كُل طاقتها، ووسائلها المتطورة، وأدمغتها المتخصصة.

هذا، ولقد قررت الهندسة الالهية العقائد الدينية أن العلم بدون معرفة، والقوة والسلطان بدون تقوى لا تدّل أبداً على الرشد والتعالي والكمال الواقعي، بل انها اذا تكاتفت مع الظلم والكفر، أدّت الى الهلاك، والدمار الكامل، والفتك الذريع بالمجتمعات البشرية؛ وذلك لانّ القانون هو الأس ّالقوي الذي تقوم عليه الامم، ويستقيم وجودها من خلاله، فيما يعتبر الظلم بكلّ أشكاله وصوره الظاهرية والباطنية، في النظرة التوحيدية، أكبر العوامل التي تواجه القانون وتحاربه بلا هوادة.

﴿كالذين من قبلكم كانوا اشد قوةً وأكثر أموالاً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذين خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾.

﴿او لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم واشد قوةً وأثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلمّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾.

وإذا نظرنا بعين الاعتبار الى دنيا اليوم، ورأينا كيف تتعالى ألسنة اللهب المتصاعدة من أتون الحقد والانانية التي شاعت في الامم التي تسمى اليوم بالمتحضرة، وكيف عامت في ظلمات المصالح والاستغلال، فاغرقت الانسان باسم العلم والرقي والتقدم، في مستنقعات الجهل والخرافة، وكيف عملت أبواق الدعاية المضللة، في ضجيج صاخب وجلبة تصم الأذان، وضوضاء تزعق في سمع الزمان، وترفع شعاراتها المادية الخداعة المزوقة، باسم الدفاع عن حقوق الانسان، في حين لم تقدم لهذا الانسان المعاصر الجهول الظلوم سوى السقوط في أوحال الانحراف، والابتذال الرخيصة، والتضحية بانسانيته، على أحجار معابد أصنام الشهوة واللذات.

ترى هل استطاع الفلاسفة أن يعرفوا الانسان كما هو؟

ترى هل استطاع العلماء أن يعرفوا أبعاد الانسان جميعها؟

ترى هل استطاع علماء النفس اكتشاف زوايا روح الانسان وأعماقها بالكامل؟

ترى هل استطاع الكتاب والفنانون أن يصوروا وجه الانسان، بكل ألوانه وأبعاده وأشكاله؟

ترى هل استطاع المتخصصون أن يدوّنوا برنامجاً متكاملاً لاسعاد البشرية؟!

نجيب على جميع تلك الاسئلة بالنفي، ولا غضاضة في ذلك أبداً، لاننا لم نتجرا على ساحة العلم والعلماء بجوابنا هذا، وذلك لاعترافنا بعظمة المخلوق الذي جبل على فطرة الله، وحمل نفحة من روحه.

﴿أفمن يهدي الى الحق أحقّ أن يتبع أمّن لا يهدّي إلاّ أن يهدى فما لكم كيف تحكمون * وما يتّبع أكثرهم إلاّظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾.

ولا ينقضي عجبنا، من تلك الجماعة المهزومة المتخاذلة، وأولئك الثعالب الذين يتظاهرون بالصلاح والتدين، ويتكلمون بلغة الحكماء والمؤمنين، وهم يجترّون فتات الفضيحة، ويتقيأون عفن الفتنة، ويشعلون نار الوسوسة، ويخنسون للناس بالادعاءات الباطلة، وينادون بشعارات الضلال، ويوعزون التقدم التقني والتكلنوجي في الغرب، الى الفصل بين العلم والدين، ولا يعتبرونه وليد تضحيات الرعيل المؤمن، ولا محاولات الشريحة الجادة ومعاناتها المستمرة، ويترنمون باهازيج «الفصام النكد» بين العقل والوحي، والدين والسياسية، والترهل في أحضان الرذيلة والانحلال، والحرية المزيفة، وكسر القيود الدينية، ويحاولون ـ بشتى الحيل والمقالب ـ أن يزرعوا هذه الأباطيل، في أذهان الأمة التي تربّت في مدرسة القرآن، لعلّهم يوقعون بعض البسطاء والسذج، من أبناء هذه الامة التليدة، في شراك الانحطاط، ودوامة التنازل عن القيم الانسانية. **﴿فاذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾.**

وبالرغم من حربنا القائمة ضد تراث الابتذال، وابتذال التراث، ومعارضتنا الجادة للتمرغ في أحضان الاغتراب الملوثة، إلاّ أننا لا نقف من العلم موقفاً سلبياً، ولا يعني وقوفنا ضدّ التفسخ الأخلاقي وقوفاً ضد العلم والتقدم العلمي لانّنا إنّما نقف بصلابة لا تقبل المساومة، ونرفع لواء المعارضة، ضد القيم المتردية السافلة الهدامة لنطرد الفكر الأجنبي من بين صفوفنا، وندافع عن حريم انسانية الانسان، ونحمي ذمار الرشد والتكامل والرقي، وهذا هو الهدف الذي ضحى من أجله الأنبياء والمخلصون عبر التاريخ، بكل ما لديهم، ومن البديهي أن هذا لا يعني بحال حرباً ضد العلم والعلماء، لاننا كما أشرنا سابقاً نعتقد أن الدين يقيم للعلم وزناً عظيماً، ويعتبره أسمى قيمة، وأكبر نعمة، بعد نعمة الوجود، ويجعل له درجة لا ترقى اليها أيّة درجة أخرى **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.**

التحرير.

المجتمع القرآني: (١)
مقوّماته خصائصه معالمه حتميته ...

الاستاذ حسن السعيد

يقف المجتمع الانساني اليوم ـ وهو يشرف على نهاية القرن العشرين ـ في واحدة من أخطر محطات مراحله التاريخية الفاصلة، ولايمر يوم إلاّ والبشرية تقترب فيه من الهاوية، ممّا أثار مخاوف علماء الاجتماع، والنفس، والتربية، والقانون .. والساسة.

إن أي استعراض وتحليل لمقومات الحضارة المعاصرة تستدعي القول بأن المجتمع الانساني بحاجة الى بديل حضاري، يحول دون طغيان جانب على آخر من جوانبه، كما يؤدي الى ابراز وتنمية عنصر الخير، ويمتلك من الصفات ما تمكّنه من استيعاب المعطيات الحضارية المتجددة وتمحيصها، وتوظيفها لخدمة الانسانية، ولابد لتكامل تلك المسيرة الحضارية توافر العنصر الروحي، والعقل الابداعي، والانتاج المادي[1]

وفي غمرة تصاعد مخاوف الغرب ـ خاصة ـ من الفراغ المخيف الحاصل، فليس هناك ثمة أمل إلا في اللجوء الى بديل يملأ لهم هذا الفراغ، ويعيد اليهم توازنهم المفقود. إن الغرب مريض ومريض جداً، ولعله في حالة النزع الأخير، على حد قول المفكر الفرنسي المسلم رجاء غارودي، وهذا يعني برأيه أن الغرب قد أفلس. وهذا الافلاس يبدو اليوم واضحاً في ميدان الأدب والفن والقيم والاخلاق . . . الخ.

من هنا، يعتقد غارودي اليوم، أن الاسلام اذا كان يريد أن يربح العالم الغربي . . . يتوجّب عليه أن يبدو قادراً على القيام بدوره والأخذ على عاتقه نجدة هذا الغرب. لايوجد خمسون حلاً لهذه المسألة. هناك حل واحد[2] ولا يمكن لرسالة ما، في

عصرنا، أن تكون أكثر معاصرة لحاضرنا من الاسلام.[3]

وهذا ما يحتم على حملة القرآن أن يستعدوا لهذه المهمة الثقيلة، لانقاذ البشريّة المعذبة، ممّا هي فيه من ظلم وحيف وخواء، واذا ما أردنا أن نستعيد نهضتنا ومكانتنا اللائقة فعلينا أن نستعيد المفهوم القرآني للدين في حياة المجتمع والأفراد، وعندئذ تعود للمسلمين أصالتهم . . . وللبشرية توازنها.[4]

من هذا المنطلق وحده؛ منطلق الروح الشمولية للقرآن، يمكن للنموذج الاسلامي في التطور الانساني أن يبرز . . . وفي هذا المجال ـــ أكثر من أي مجال آخر ـــ علينا أن نتذكر أن مستقبل الاسلام لايرتكز على اعلان افلاس العالم، كما أنه لا يقف عند ترديد الصيغ الجاهزة، التي وُجدت كي تساعد على حل مشكلات الناس في العصر الأموي أو العباسي . . . .

فالاسلام هو الدين الأول والرسالة الأخيرة معاً: إنه البعد السامي للجنس البشري، كما عرف في كل مستوى من مستويات الوجود [5] وهذا ما صدع به كتاب الله مخاطباً الرسول الأكرم(ص): **﴿فاقِم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾**[6]

بين يدي البحث

قبل الخوض في صلب الموضوع، نجد لزاماً علينا الإشارة الى بعض الإشارات الضرورية وهي:

أولاً: توقّف الفكر الاجتماعي

في الوقت الذي يتوثب فيه المسلمون ـ حالياً ـ لاستئناف دورهم الريادي . . . يُثار تساؤل ملح: كيف يمكن لهم الانطلاق صوب المستقبل لبناء علوم اجتماعية اسلامية، متميّزة بنسقها، ومنطلقها، وهدفها؟ وهل الآليات العلمية والمنهجيّة المتوفرة يمكن أن تكون أدوات سليمة ومحايدة . . .؟ والى أي مدى يمكن للمسلمين في مواقعهم الحالية المتخلفة التعامل مع هذه الأدوات، دون الاخلال بالمنطلقات الاسلامية . . .؟

وهنا، لابد من الاعتراف أن كثيراً من شعب المعرفة قد توقفت في حياة المسلمين منذ زمن بعيد، ونخص بالذكر شعب المعرفة في العلوم الاجتماعية، والانسانية، الأمر الذي لم نلق له بالاً بعد، ونظن أن التخلّف والتوقف منحصر في العلوم التجريبية المادية، فقط!، مع أن أمر التوقف في العلوم الاجتماعية والانسانية هو

الأخطر...[7].

صحيح أن بعض مفكري الاسلام في القرون الخمسة الاولى، قاموا بمحاولات لتطوير الفكر الاجتماعي الاسلامي، بيد أن أغلب تلك المحاولات كانت متأثرة، الى حد بعيد، بالموروث الفلسفي اليوناني، وبذا طغى المنحى الفلسفي على الجانب الاجتماعي، كما هو الحال عند «الفارابي» في «آراء أهل المدينة الفاضلة»، و«ابن طفيل» في «حي بن يقظان»...

ولم يرتفع الفكر الاجتماعي الاسلامي إلا عند «ابن خلدون» [٧٣٢ـ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ـ١٤٠٦م]، والذي ارتقى به الى درجة النضج والاصالة والخصوبة أيضاً، وبخاصة حين كتب «مقدمته» المشهورة باسمه، التي تعتبر مقدمة لعلم الاجتماع، أو العمران على حد تعبيره... الأمر الذي معه يمكن أن نعتبر «ابن خلدون» هو أول مؤسس حقيقي لعلم الاجتماع ولفلسفة التاريخ.[8]

لكن الذي لايجب أن يغيب عنا أن مسالة الفكر الاجتماعي في الأدبيات الاسلامية الحديثة ظل في عمومه بطيّ التطور، غامض المعالم تحت تأثير عوامل سياسية ضاغطة ومعرقلة [9] والذي لا يجب أن يغيب عن الذهن هو أن مثل هذا البطءفي نمو الفكر الاجتماعي الاسلامي يعود أيضاً الى طبيعة «الاصلاح الديني» الذي عرفه الاسلام السنّي طيلة القرن الماضي...[10]

ثانياً: لماذا المجتمع القرآني؟

ربّما يتساءل البعض: لماذا كان اختيار عنوان البحث هو: «المجتمع القرآني» غير المتداول نسبياً، قبال ما متعارف عليه من مصطلح «المجتمع الاسلامي» أو «المجتمع المسلم»...؟

للاجابة عن هذا التساؤل، هناك ثلاثة أدلة ــ في الأقل ــ على سبب استخدام مصطلح «المجتمع القرآني»... وهي:[11]

الأول: ان كثيراً من العقائد والأعمال تسمى اسلامية دون أن تكون اسلامية، وهناك ما يقرب من أربعين دولة تدّعي بأن غالبية سكانها من المسلمين، وتعتبر نفسها نموذجاً للمجتمعات الاسلامية أوالمسلمة. وبالطبع فعندما يطرح هذا السؤال وهو: أي مجتمع من هذه المجتمعات يعتبر نموذجاً للمجتمع الاسلامي الحقيقي والمؤمن؟ فلا تتيسر الاجابة عليه بسهولة، في غمرة هذه الأوضاع....

ويقع في التبسيط المخل اولئك الباحثون الغربيون الذين يجوبون ديار الاسلام لدراسة آداب ورسوم الشعوب المسلمة، فيقيسون الفوارق في العالم الاسلامي بدرجة واحدة. ويعزى هذا الأمر

الى اعتقادهم بنظرية خاصة ... فهؤلاء يتوجهون الى منطقة ما، ويلتقطون الصور لكل شئ عجيب وغير اعتيادي، حسب وجهة نظرهم، ويكتبون ملاحظات حوله، ويحسبونه على الاسلام، ثم يذهبون الى منطقة أخرى، من العالم الاسلامي، ويستعملون نفس الوسائل والأساليب، فيلتقطون الصور، ويكتبون التقارير، ويبيّنون الاختلاف الظاهري في الآداب والسلوك بين هذه المنطقة والمنطقة الاولى، ويحسبونه على الاسلام . . .حتى وان كانت بعض الأعمال والتصرفات منحرفة عن اصول واعتقادات المسلمين التي تصدر من جانب بعض المنحرفين.[١٢]

الثاني: إن اطلاق صفة «المجتمع القرآني» يعتبر مناسباً، لأنه يرشدنا الى ايجاد الأصول الأساسية التي يعلمها لنا القرآن، والتي تشكّل أساس مجتمعاتنا في العالم الاسلامي.

ان هدفنا الحقيقي هو بناء مجتمع يقوم على أساس الأصول القرآنية، ومع ذلك ينحرف البعض عن هذه الأصول من دون أن يدري. وإذا أردنا أن تعيش الشعوب الاسلامية بسعادة فيجب علينا أن نسعى جميعاً، لايجاد المجتمع الاسلامي القائم على أسس قرآنية. ويجب أن لانتصوّر أبداً بأن المجتمع القرآني مجتمع يتالف من: «اندونيسيا، أو مصر، أو نيجيريا، أو السعودية، أو الباكستان . . . وغيرها مثلاً»، بل ان المجتمع القرآني يجب أن ينطبق مع تعاليم القرآن الكريم مئة بالمئة، وعليه أن يتبع الاصول القرآنية بجد.

الثالث: والهدف الآخر من انتخاب هذا العنوان، هو التاكيد على أن القرآن يجب أن يكون مرشداً في كل نواحي حياتنا، لا أن نعتبره مرجعاً أولياً في عقائدنا وأعمالنا وواجباتنا الدينية فقط، بل يجب أن يكون مرشدنا في كل جانب ومرحلة من مراحل حياتنا وحضارتنا الاسلامية.

في القرون الماضية التي كان يتمتع فيها المسلمون بقوة وعظمة،كان القرآن الكريم يتحكّم في الابداعات الفنّية والنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعوب الاسلامية. فاذا أردنا أن نحظى بحياة اسلامية، ونستفيد من قوّة وعظمة الاسلام، كان علينا الاستناد الى القرآن،في جميع الشؤون.

ثالثاً ـ النظام الحي... العالمي

وعندما نتحدث عن النظام الاجتماعي الاسلامي فنحن لانتحدث عن نظام تاريخي عاش في الماضي ، واصبح احدى ذكريات

التاريخ ... انما نتحدث عن نظام حي، وننظر في صوره واوضاعه كما يمكن ان يكون الآن أو في المستقبل.

كذلك نحن لانتحدث عن هذا النظام بوصفه نظاما محليا، في حدود مايعرف اليوم باسم «العالم الاسلامي»، انّما نحن نتحدث عنه بوصفه نظاما عالميا، يمكن ان تتجه اليه البشرية كلها اليه بحكم انه النظام الوحيد، الذي يملك أن يلبي حاجات هذه البشرية في حدود أوسع، والى آماد أطول، من كل نظام عرفته الانسانية حتى هذه اللحظة[١٣].

رابعا: المجتمع جزء من كل

ينبغي التأكيد دائما على الترابط بين أحكام الاسلام، وهذا لايعني انها أحكام ارتباطية وضمنية بالمعنى (الاصولي)، حتى اذا عطل بعض تلك الأحكام سقطت سائر الأحكام الأخرى، وانما يقصد من ذلك أن الحكمة التي تستهدف من وراء تلك الأحكام لاتتحقق كاملة دون أن يطبق الاسلام، بوصفه كلاً لايتجزء، وان وجب في واقع الحال امتثال كل حكم بقطع النظر عن امتثال حكم آخر أو عصيانه.

بمعنى أننا في وعينا للمجتمع القرآني لايجوز أيضاً أن ندرس مجموع المجتمع الاسلامي، بوصفه شيئا منفصلاً وكيانا مذهبيا مستقلا، عن سائر كيانات المذهب: الاقتصادية والسياسية، الاخرى، وعن طبيعة العلاقات القائمة بين تلك الكيانات» وانما يجب ان نعي المجتمع الاسلامي ضمن الصيغة الاسلامية العامة، التي تنظم شتى نواحي الحياة في المجتمع.

كما يجب ان لانفصل بين المذهب الاسلامي بصيغته العامة، وبين أرضيته الخاصة التي اعدت له، وهيأ فيها كل عناصر البقاء والقوة للمذهب .. وهكذا يتضح أن المجتمع الاسلامي الكامل يوجد حين يكتسب الصيغة والأرضيّة معاً، حين يحصل على النبتة والتربة كليهما .. ثم يأتي — بعد التربة ـ دور الصيغة الاسلامية العامة للحياة، كلاً لايتجزأ، يمتد الى مختلف شعب الحياة. وعندما يستكمل المجتمع الاسلامي تربته وصيغته العامة، عندئذ فقط نستطيع ان نترقب من الاسلام ان يقوم برسالته الفذة، وان يضمن للمجتمع اسباب السعادة والرفاه، وان نقطف منه أعظم الثمار. وأما ان ننتظر من الرسالة الاسلامية الكبرى ان تحقق كل اهدافها من جانب معين من جوانب الحياة، اذا طبقت في ذلك الجانب بصورة منفصلة عن سائر شعب الحياة الاخرى .. فهذا خطأ.

لأن الارتباط القائم في التصميم الاسلامي الجبار للمجتمع ، بين كل جانب منه و جوانبه الاخرى ، يجعل شأنه شأن خريطة يضعها ابرع المهندسين لانشاء عمارة رائعة ، فليس في امكان هذه الخريطة أن تعكس الجمال والروعة ـ كما أراد المهندس ـ الا اذا طبقت بكاملها ، واما اذا اخذنا بها في بناء جزء من العمارة فقط، فليس من حقنا ان نترقب من هذا الجزء ان يكون كما أراد له المهندس ، في تصميمه للخريطة كلها . وكذلك التصميم الاسلامي ، فان الاسلام اشترع نهجه الخاص به ، وجعل منه الاداة الكاملة لاسعاد البشرية ، على ان يطبق هذا المنهج الاسلامي العظيم، في بيئة اسلامية، قد صبغت على اساس الاسلام، في وجودها وافكارها وكيانها كله، وان يطبق كاملا غير منقوص يشد بعضه بعضا ، فعزل كل جزء من النهج الاسلامي عن بيئته ــ وعن سائر الاجزاء ـ معناه عزله عن شروطه التي يتاح له في ظلها تحقيق هدفه الاسمى ، ولايعتبر هذا طعنا في التوجيهات الاسلاميه ، او تقليلا من كفائتها وجدارتها بقيادة المجتمع فانها، في هذا، بمثابة القوانين العلمية، التي توءدي ثمارها، متى توافرت الشروط التي تقتضيها هذه القوانين[١٤].

ضرورة التنظيم الاجتماعي

النظام الاجتماعي ظاهرة حضارية، فهو يظهر بتعقد البيئة او المجتمع الذي وجد هذا النظام من أجله[١٥] والانسان اجتماعي بطبعه ، وهذه حقيقة لانحتاج في اثباتها الى كثير من البحث . فكل فرد من هذا النوع الانساني مفطور على ذلك ، ولم يزل الانسان يعيش في حال الاجتماع ، على ما يحكيه التاريخ والآثار المشهودة المحاكية لاقدم العهود التي كان هذا النوع يعيش فيها ويحكم على هذه الارض[١٦].

وقد انبأ عنه القرآن أحسن انباء في آيات كثيرة كقوله تعالى :﴿ **ياايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾[١٧].

وعلى هذا الاساس نستطيع القول أن النظام الاجتماعي ظاهرة أصيلة في حياة الانسان ، وقد نشأت هذه الظاهرة على يد الأنبياء ورسالات السماء، واتخذت صيغتها السوية، ومارست دورها السليم في قيادة المجتمع الانساني وتوجيهه، من خلال ما حققه الأنبياء في هذا المجال، من تنظيم اجتماعي قائم على أساس الحق والعدل، يستهدف الحفاظ على وحدة البشرية، وتطوير نموها في مسارها الصحيح .

قال الله تعالى:﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما**

اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾[18].

ونلاحظ من خلال هذا النص أن الناس كانوا أمة واحدة، في مرحلة تسودها الفطرة .. ثم تعقدت الحاجات فنشأ الاختلاف، وبدأ التناقض بين القوي والضعيف واصبحت الحياة الاجتماعية بحاجة الى موازين تحدد الحق وتجسد العدل، وتضمن استمرار وحدة الناس، في اطار سليم[19].

ومن هنا برزت الحاجة الى ارساء مقومات المجتمع، ووضع الضوابط والانظمة التي تنظم علاقات الافراد، وتشمل الأنظمة التجارية والاقتصادية والمعاملات وأنظمة الأسرة والقضاء والوصايا والميراث والنفقات، وأنظمة الحكم والسياسة والعقوبات وغيرها [30] وهذا الضرب من الاجتماع ـ كما يقول ابن خلدون ـ « ضروري للنوع الانساني والاّ لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه ايّاهم»[31].

وهكذا نجد أن التنظيم الاجتماعي شرط ضروري لاستمرار الحياة الاجتماعية للبشرية، بعد برهة من تجربتها الاجتماعية، ولايمكن بحال فصل تطور المجتمع عند تصور التنظيم الاجتماعي بشكل من الأشكال [32].

ماهو المجتمع ؟

المجتمع لغة مصدر ميمي للفعل (اجتمع) ومعناه مكان الاجتماع ، ويطلق مجازاً على كل جماعة من الناس تخضع لقوانين ونظم عامة [33]، والمجتمع هو مجموع الافراد[34] تربطهم أنظمة وتقاليد وآداب وقوانين عامة[35] كل هذا كان يدور حول المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة «المجتمع» الاّ أن علماء العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع يرتأون معاني أخرى لهذا المصطلح، بحيث لايكون فضفاضاً ولايكون ضيق الحدود . ولكن الذي يؤسف له هو أنه ليس لهذا التحديد المتوسط أيّة حدود معينة ومعلومة، أي لم يوضع تعريف «للمجتمع» يكون موضع قبول جميع علماء الاجتماع أو معظمهم في الأقل[36].

يقول مالك بن نبي، وهو يحدد المصطلح من الوجهة الوظيفية :« لعل من نافلة القول أن نذكر أن مصطلح (مجتمع) في معناه البسيط ـ المعنى الأدبي الذي يعطيه القاموس ـ يعني : تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، يعيشون في ظل قوانين

واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة».

ويعلق مالك بن نبي على هذا التعريف بقوله: «وهذا التحديد خارجي وصفي لايعطي أدنى تفسير (للوظيفة) التاريخية التي تناط بتجمع من هذا القبيل، كما انه لايفسر تنظيمه الداخلي الذي قد يكون كفئاً لاداء مثل هذه الوظيفة» ولذا ينبغي ان نستبدل بالتحديد الوصفي تحديداً جدلياً، وبعبارة اخرى : ينبغي ان نحدد (المجتمع) في نطاق الزمن .

واياً كان الامر (فالمجتمع) هو الجماعة الانسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن ان تطلق عليها مصطلح (ميلاد). فالمجتمع ـاذن ـ هو ليس مجرد مجموعة من الافراد بل هو تنظيم معين ذو طابع انساني يتم طبقاً لنظام معين(٣٧).

ومهما كان تحديد مفهوم المجتمع فانه تنبثق عنه طريقة حياة تعبر عنها ثقافة تحدد أنماط تفكيره ونشاطاته ومشاعره، على أساس من المعرفة والمعتقدات والاخلاقيات والعادات والقدرات لدى أفراده(٢٨).

المسألة الاجتماعية

وردت في القرآن الكريم اشارات عديدة، الى المسألة الاجتماعية، وقد تردد باستمرار ذكر الأمم والأقوام والشعوب والقبائل والعشيرة والأزواج، من أنواع التجمعات البشرية .

وكذلك أشار القرآن الكريم الى الحوادث والظواهر الاجتماعية .. وذكر أمثلة من هذه الظواهر كظاهرة التقليد، والترف، والظلم والاستبداد في الحكم والاجرام، وعبادة الأوثان والكواكب، وتقديس الحيوان، وعبادة الارواح من الملائكة والجن، ووأد البنات، واحتقار المرأة، وتطفيف الكيل والميزان، واستغلال المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والى ظهور الطبقية وامتيازاتها في المجتمع كطبقة رجال الدين **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾**(٢٩) **﴿ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾**(٣٠) وطبقة المتكبرين أو المستكبرين، وطبقة المستضعفين أو الضعفاء، وقد تردد ذكر هؤلاء وأولئك بضع عشرة مرة(٣١).

ان الاسلام في قرآنه وسنة نبيّه عليه السلام يطرح قواعد عامة وخطوط عريضة، يريد بها أن يشكل الأرضية الصلبة التي تتحرك عليها العلاقات الاجتماعية والتي يمد جذورها، في اعماق النفس، وبنية العالم، وفي صميم النظرة الى الكون . صحيح انه يطرح في الوقت نفسه تفاصيل وجزئيات

عن قضايا يومية، ومسائل اجتماعية بالذات، ويلامسها ملامسة تامة الا ان (ذلك ياتي ضمن) الاطار الكبير والرؤية الشمولية التي يرسمها الاسلام لموقف الانسان في العالم، وطبيعة دوره فيه، والغاية التي خلق لها، والمصير الذي يسعى للتحقق، به من خلال ممارساته الواقعية[٣٢].

ورغم هذا التناول الواسع للمسألة الاجتماعية والاهتمام الكبير بها فانّ من المعلوم أن لفظة (المجتمع) لم ترد في القرآن.

الا ان القرآن لكي يوصل معنى المجتمع قد استعمل الفاظاً اخرى[٣٣] اذ حرص، في أكثر من موضع، على اظهار المسلمين في اطار أُمّة تواصل، من خلالها، مسيرة الرسول الأمين سيدنا محمد(ص) وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين** ﴾[٣٤] كما دأب القرآن الكريم في مخاطبة المسلمين على وجه الجمع لا الافراد .. ومن ثم كان النداء ﴿ **ياايها الذين آمنوا ..** ﴾[٣٥] ويعم احيانا ليشمل البشرية كلها حيث يقول: ﴿ **ياايها الناس ..** ﴾[٣٦].

والقرآن الكريم وهو يؤكد على الكيان الجماعي للمسلمين يعبر عن هذا الكيان بـ(الأمة) وهذه الامة المتحركة دائما نحو اهدافها المرسومة لها والمحددة من حيث الوسائل أيضا: ﴿ **كنتم خير امة** ﴾[٣٧] ﴿ **ولتكن منكم أُمة** ﴾[٣٨] والأمة التي كانت .. والأمة التي يجب أن تبقى ويدوم كيانها لها رسالة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

والتعبير القرآني عن المجتمع الاسلامي (بالامة) سواء بمناسبة التكليف الموجه، أو الوصف لواقع حالها، نراه وبالحاح أكيد ظاهرا في قوله تعالى: ﴿ **وكذلك جعلناكم أُمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[٣٩] وهذا الجعل الالهي أيضا متبوع بأمر تكليفي بأن تتوجه الأمة لتحقيق مبادئها وأهدافها ..[٤٠].

والاسلام قبل هذا وذاك هو دين الجماعة أي الأمة.. والأمة في التصور القرآني ليست مجرد جمع «كمي» يساوي عدد الأفراد فيها، وانّما هو كيان جامع له حالة «كيفية» جديدة تفوق كيفيات وقدرات أفرادها متفرقين.. انها كيان متميز له ماليس للأفراد المتناثرين .. ان الخيوط المتفرقة ليست لها القوة المتحصلة منها ذاتها اذا اجتمعت .. وقطرات الماء لاتحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع .. والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي، ورجاحة العقل،

وكياسة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع.

فللأمة في الاسلام مقام فريد يعلو بها عن مجرد الجمع العددي، والتراكم «الكمي» لما لدى أفرادها وآحادها [٤١].

غير ان السيد محمد باقر الصدر «رض» يعطي تفسيراً أدق ممّا تقدم لمصطلحي: (الأمة) و (المجتمع). وقد تناول هذه المسألة، في احدى محاضراته المتعلقة بالأمة الاسلامية، مشيرا الى أن الرسول محمداً(ص) حينما توفي خلف وراءه أمة ومجتمعا ودولة ، اذ يقول: « وأقصد بالأمة المجموعة من المسلمين الذين كانوا يؤمنون برسالته ويعتقدون بنبوته . وأقصد تلك المجموعة من الناس التي كانت تمارس حياتها، على أساس تلك الرسالة، وتنشئ علاقاتها، على أساس التنظيم المقرر لهذه الرسالة .

واقصد بالدولة القيادة التي كانت تتولى تزعّم التجربة، في ذلك المجتمع، والاشتغال بتطبيق الاسلام وحمايته، مما يهدده من أخطار وانحراف»

ثم أوضح الشهيد الصدر(رض) بانه حينما تنهار الدولة ..ينهار تبعا لذلك المجتمع الاسلامي، لأنه يقوم على أساس الاسلام، فاذا لم تبقَ زعامة التجربة، لترعى هذه العلاقات، وتحمي وتقنن قوانين لهذه العلاقات، فلا محالة ستفتت هذه العلاقات، وتتبدل بعلاقات اخرى قائمة على أساس غير الاسلام وهذا معناه زوال المجتمع الاسلامي».

الا ان الشهيد الصدر قال ان الامة تبقى بعد زوال الدولة، حتى يطيح بها الغزو الخارجي الكافر [٤٢].

وتأسيسا على ذلك يكون التطبيق العملي للتعاليم القرآنية هو حجر الزاوية بل المقوّم الأول والأخير، من مقومات المجتمع الاسلامي، وبخلافه يكون العكس، بمعنى ان غياب التطبيق، من مسرح الحياة يسلب هذه الخصوصية من المجتمع، فيغدو شيئا آخر وليس اسلاميا.

وهذا مايقودنا الى اثارة اشكالية ضخمة، لها تبعاتها ومدلولاتها واستحقاقاتها : فهل كل ماليس بمجتمع اسلامي يعتبر جاهليا، مهما تباينت الظروف، وتباعدت المسافات، وتنوعت الاتجاهات ؟

بطبيعة الحال يؤكد الخطاب القرآني على هذه النقطة كثيرا ولايعرف الاّ نوعين اثنين من المجتمعات ..مجتمع اسلامي ومجتمع جاهلي .

«المجتمع الاسلامي » هو المجتمع

الـذي يطبق فيـه الاســلام ..عقيدة وعبـادة وشــريعـة ونظـامــا وخلقـا وسلـوكـا.. و «المجتمـع الجـاهلي» هـو المجتمـع الـذي لايطبق فيـه الاسـلام ولاتحكمـه عقيـدتـه وتصــوراتـه وقيمـه ومــوازينـه ونظـامـه وشرائعه وخلقه وسلوكه..

وعليـه ليس المجتمــع الاســلامي هـو الـذي يضم نـاسـا ممـن يسمـون انفسهم «مسلمين». بينما شريعة الاسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وان صلى وصام وحج البيت الحرام. وليس المجتمع الاسلامي هو الذي يبتدع لنفسه اســلاما، من عند نفسه ـ غير مـاقرره اللـه سبحانـه وفصله رسـوله صلّى الله عليـه وآله وسلّم ـــ ويسميه مثـلا «الاسلام المتطوّر» [٤٣].

الاسلام ثورة اجتماعية كبرى

وبعيدا عن الفهمين التقليدي والمشبوه اللذيـن يحاولان حصــر الاسلام، في زوايـا التكـايا ويظهرانـه وكأنـه مجرد طقـوس يمارس فيها الفرد عـلاقته مع ربه وكفى، اذ فات هؤلاء ان الاســلام ثورة لاتنفصل فيها الحياة عن العقيـدة، ولاينفصل فيها الـوجه الاجتماعي عن المحتوى الـروحي، ومن هنا كان ثورة فريدة علـى مر التاريخ.. ومن هنا كان الاســلام الذي كـافح من اجلـه الانبياء ثورة اجتماعيـة على الظلم والطغيان، وعلى ألوان الاستغلا والاستعباد..غير انها تميزت عن أية ثورة اجتماعيـة اخرى، في التاريخ، تميـزا نـوعيـا، لأنهـا حـررت الانســان من الـداخل، وحررت الكـون، من الخـارج، في وقت واحد[٤٤].

وليس بمقدور أحـد أن يقف على مدى النقلة النوعية التي اوجدها الاسلام الاّ حينما يعقد مقارنة دقيقة بين مجتمع جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده. فالنظام الاجتماعي كان قائما علـى أساس الرابطة الدمـوية، وتتمثل هذه الرابطـة في أبسط تشكيلات المجتمع، وهي الأسرة، وتبلغ ذروتها من حيث النظام الاجتمــاعي، في أعلـى تشكيـلات المجتمع، وهي القبيلة والحلف الذي هو مجموع قبائل تحالفـت بينها، لـوجود مصــالح مشتركـة ومنافع متبادلة[٤٥].

فمــن ضيق «داحـس والغبـراء » الـى رحاب الاسلام العظيم. . . ومــن بؤس عبادة اللات والعـزى الى آفاق العبودية للـه وحده ..ونظرة سريعة على ماكان يدور ـ في وقت واحد ـــ في مكة، وهــي تحت وطأة قـريش، ومـاكان يجـري في المـدينة، تحت ظـلال النبـوة المحمـدية، تتضـح الحقيقـة بشكل جلي. ولانحتاج فيها الى تأكيد أن الفرق كان كبيراً..كما هو بين الاسلام والجاهلية.

فمنذ استقر المسلمون في يثرب بدأ تكوين المجتمع الاسلامي، وتنظيم علاقاته الداخلية بين المهاجرين والانصار، وفيما بينهم وبين اليهود المقيمين في المدينة .. وتركزت أهم التنظيمات الداخلية على التنظيم الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي.

وقد انتظم بناء المجتمع في المدينة على مراحل، ونزل التشريع على دفعات، وامتد على سنوات، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وامور البيع والاجارة والربا والقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث(٤٦).

لقد ارسى القرآن الكريم خطة شاملة لاصلاح المجتمع، ولم يترك ثغرة او زاوية الا وعالجها بمنهجه القويم ﴿ ان الحُكمُ الاّ للّـه أمرَ ألاّ تعبدوا الاّ ايّاه..ذلك الدين القيم﴾(٤٧) ﴿افحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾(٤٨).

وهكذا وجد الاسلام ..هكذا وجد متمثلا في قاعدة نظرية مجملة ـ ولكنها شاملة ـ يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع..

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الاسلامي في هذه القضية، ولاقامة التجمع الاسلامي على آصرة العقيدة وحدها، دون أواصر الجنس والارض واللون واللغة والمصالح الارضية القريبة والحدود الاقليمية السخيفة ..كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج، ان اصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات بلا عائق. . ..

لقد اجتمع في المجتمع الاسلامي المتفوق : العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والرومـاني والاغريقي والاندونيسي والافريقي..الى آخر الأقوام والأجناس . وتجمعت خصائصهم كلها، لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة، في بناء المجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية»، انما كانت دائما «اسلامية»، ولم تكن يوما «قومية»، انما كانت دائما «عقيدية»(٤٩).

وبعد هذه المداخل الضرورية ثمة تساؤل : ماهي عناصر هذا المجتمع القرآني؟ وماهي ارضيته؟ خصائصه؟ مقوماته؟

هنا محاولة سريعة لالقاء الضوء على الخطوط العريضة لما تقدم من مطالب :

عناصر المجتمع القرآني:

وبناء على ماسبق فان المجتمع القرآني

المثالي ترتبط فيه الشـريعة بالعبادة والقيم الاخلاقية.

وسـوف نتجاوز التفصيل فـي الهيكل الاجتماعي العام للمجتمع الاسلامي المكون من أنظمته الثلاثة: النظام الأسري، والنظام السيـاسي، والنظـام الاقتصـادي، لان ذلك معروف ومـدروس، بشكل يسهل الـرجوع اليــه والاطـــلاع عليـــه، فـي كثيــر مـن المصادر(٥٠).

ولكن مـاتنبغـي الاشارة اليـه هـو أن بعض الباحثين الاسلاميين المعـاصرين قد أدخلوا تعـديلا على هـذه الهيكلية السـابقة، دون المساس بمفرداتها، وكـل ما في الامر أنهم أعادوا النظر في المنهجية الهيكلية وفق نظــريـة النظـم الحـديثــة (SYSTEM AGREACH) . فمن بين كل النظـريات الحديثة نجـد أن هذه النظرية هـي الوحيدة التي تلتقي مـع النظرة الاســلامية لـدراسة النظم، أو بمعنى أدق مع النظرية الادارية في الاسلام.

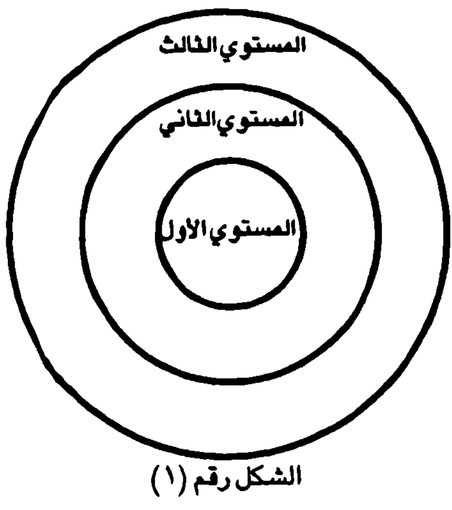
وعمومية هذه النظـرية : يتكون النظام من عـدة نظم متـداخلة بـل من مستويـات متداخلة في هذه النظم الفرعية، وترتبط هذه النظم الفرعية مع بعضـها البعض طبقا لنظام اتصال محدد، يعطي النظام صفة الانسجام والتمـاسك والتكـامل، ويكـون لهذا النظـام قيمة أعلى مـن بقية أو مجموع قيم فـروعه، على ضوء هذا الارتباط.

وعليـه يمكن تعـريـف النظـام بـانـه مجمـوعـة من الاجـزاء والعنـاصـر يـرتبط بعضها مع البعض لتحقيق هدف معين.

وفــي ضــوء ذلـك يتكـون المجتمـع ـ باعتباره نظاماـ من عـدة نظم فرعية : الفرد فيها هو المستوى الاول من تلك النظم .

والأسرة والمسجد والمنشـأة التجارية والصنـاعيـة والهيئـة الحكـوميـة تقع فـي المستوى الثاني اذ تضم عدة افراد.

والمجتمـع ككـل يقع فـي المستـوى الثـالث اذ يضـم هـذه النظم جميعـا وكمـا موضح في الشكل رقم (١)



الشكل رقم (١)

والأهمية الكبرى لنظريــة النظم هو أنه اذا حـدث أي خلل فــي نظام الاتصــال فقـد

يتلاشى النظام وينفرط عقده، كما أنه قد يحدث انقسام وتشقق، في النظام الاكبر، اذا لم تسع النظم الفرعية الى تحقيق الهدف أو الاهداف العامة للنظام..

من جانب آخر نجد أن النتائج التي توصل اليها العلماء، من وحي نظرية النظم، تتفق مع المبادئ التي نادى بها الاسلام من اربعة عشر قرناً[51].

مقوّماته:

وبعدما انتهينا من رسم هيكلية المجتمع القرآني ترى ماهي مقوماته ؟

ان المنهج الحضاري الاسلامي – في التحليل النهائي – هو مخطط رباني لبناء مجتمع قرآني . وبديهي ان هذا المجتمع لايتولد من فراغ، ولايحصل فجأة وبلامقدمات، اذ لابد من أرضيّة يقف عليها ومقومات يقوم بها ..ليبرز شاخصا يعلن عن كيانه ويفصح عن هويته .

وليس عبثاً أن يربط القرآن الكريم خلافة الانسان عن الله بالأرض حين يقول:**﴿واذ قال ربك إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾**[52].

ومن هذا النص يستنتج الشهيد الصدر (رض) ان مقومات المجتمع ثلاثة هي: الانسان والارض والعلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالانسان (أي العلاقة الاجتماعية) وتربط الانسان بالأرض (أي العلاقة الطبيعية).

واذا كانت المجتمعات تتفق في عنصريها الأول والثاني (وهما العنصران الثابتان) فان هذه المجتمعات تختلف في العنصر الثالث أي «شبكة العلاقات».

وقد بيّن الشهيد الصدر أن هناك صيغتين للعلاقات الاجتماعية احداهما الصيغة الثلاثية والأخرى الصيغة الرباعية . فاما الصيغة الثلاثية فتتألف من (الانسان + الانسان + الطبيعة) في حين أن الصيغة الرباعية تتألف من (الانسان + الانسان + الطبيعة + الله) . وهذه الصيغة الرباعية التي يسميها القرآن بالاستخلاف هي التي ينشأ بموجبها المجتمع الاسلامي.

اذن فان المجتمع الاسلامي الذي يسعى المشروع الحضاري الاسلامي الى اقامته هو مجتمع الخلافة الربانية وبالتالي هو المجتمع الذي تتجسد فيه الركائز الاربعة للخلافة الربانية [53] وهذه الركائز هي:

١ـ انتماء الجماعة البشرية الى محور واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، حيث تتجاوز الجماعات البشرية كل « محاور» التجمع الأخرى، وتتوحد حول الله سبحانه وتعالى، لبناء أمة جديدة موحدة، واقامة حضارة جديدة واحدة . وبهذا الصدد يتساءل القرآن الكريم:**﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾**[54]بما يعني أن توحيد المحور بالله أفضل بالنسبة للبناء الحضاري من المحاور المتعددة . وتبدو

هـذه الأفضلية بصـورتها الجليـة بحمايـة الجماعة البشرية من التفكك، الى مجموعات لغـويـة، أو اثنية، أو طبقيـة، أو قبليـة، أو طائفية، أو حتى دينيـة لاتستطيع التواصل بينها، أو التـوالد بالمعنى الاجتمـاعي، على اعتبار ان الايمان بالله الواحد يشكل القاسم المشترك الأعظم للمجموعـات البشرية . ان توحيـد الجماعة البشـرية على أسـاس هذا المـركب الحضـاري مـن شأنـه أن يحفـظ الطاقة الحضـارية للجماعة، ويصـونها من الهـدر والضيـاع والتشتـت، في عمليـات حضـارية مفـرقة، لاتجمعهـا استراتيجيـة واحدة، بـل ربّما فرقـت فيما بينهـا أوضاع تصارعية هدّامة .

٢ـ اقامة الحياة الانسانية على أساس العبوديـة لله، وتحريـر الانسان مـن مختلف انواع العبوديات لغيره. فالناس كلهم أحرار، في اطـار هـذا المركـب الحضـاري، بلحـاظ بعضهم البعـض، من خلال كـونهم جميعـا عبـاد الله بلحاظ عـلاقـاتهم مجتمعين بـالله سبحانه وتعالى . والعبـودية لله هي المعادل الموضوعي، بل الشرط المـوضوعي للحرية الانسـانية. حيـث لايمكن تحـرير الانسـان تحريرا حقيقيا، خارج اطار العبودية لله، لان خـروج الانسان مـن هذا الاطـار يؤدي بـه حتماً، وفور تجاوزه حدود العبودية لله، الى الدخول في عبوديـة غيره . و «غير» الله هنا قد يكون انسانا آخر تفرعن على بني جنسه، وقد يكـون أصناما لاتعقل، وقد يكـون غير ذلك.

٣ـ تجسيـد روح الاخوة العامـة في كل العـلاقـات الاجتمـاعية، بعـد محـو ألـوان الاستغـلال والتسلط، فمـا دام الله سبحانـه وتعـالى واحـدا، ولاسيـادة الاّ له، والنـاس جميعا عباده ومتساوون بالنسبة اليه، فمن الطبيعي ان يكـونـوا اخـوة متكـافئيـن، في الكرامة والحقوق .

٤ـ المسـؤولية والاحسـاس بالـواجب ازاء المستخلف . فالخلافة الربانية استئمان على الكون والطبيعة والبشر، ولهذا وصفها القرآن الكريم، في احدى آياته، بالامانة [٥٥] فالانسـان الخليفة مـؤتمن، وكـذلك مجتمع الخلافة . وجوهر الامانة هو رعاية تلك القيم الخيـرة التي ينطـوي عليهـا المشـروع الحضاري الاسـلامي. والجمـاعة البشـرية غير مخوّلة بان تحكم بهـواها أو باجتهادها المنفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى، لان هذا يتنـافى مع طبيعـة الاستخلاف، وانمـا تحكم بالحق، وتؤدي الى الله امانته، بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده [٥٦].

وعلى هذا لابد لمجتمع الخلافة الربانية من أرضية . وهذه الارضية تتكون من ثلاثة عناصر هي:

اولا: العقيدة، وهي القـاعدة المركـزية في التفكيـر الاسلامـي، والتي تحدد نظـرة المسلم الرئيسية الى الكون بصورة عامة.

وتتألـف العقيدة من منظـومة أصـول الدين الخمسـة التي عرض الشهيـد الصدر

مدلولاتها الاجتماعية والحضارية بقوله :« ان اصول الدين خمسة التي تمثل على الصعيد العقائدي، جوهر الاسلام والمحتوى الاساسي لرسالة السماء، هي في نفس الوقت تمثل بأوجهها الاجتماعية، على صعيد الثورة الاجتماعية، التي قادها الانبياء الصورة المتكاملة لاسس هذه الثورة، وترسم للمسيرة البشرية معالم خلافتها العامة على الارض».

وقد شرح في أماكن متفرقة من كتاباته الأخيرة التي جمعت لاحقا في كتاب حمل اسم «الاسلام يقود الحياة » بعضا من المحتوى الحضاري والاجتماعي لأصول الدين.

فالتوحيد هو جوهر العقيدة الاسلامي،ة وبالتوحيد يحرر الاسلام الانسان، من عبودية غير الله . ويرفض كل اشكال الالوهية المزيفة، على مر التاريخ، وبذلك يحطم كل القيود المصطنعة، والحواجز التاريخية التي تعوق تقدم الانسان.

والعدل رغم انه من صفات الله الاّ انه فصل عنها «لميزة اجتماعية »، لان العدل هو الصفة التي تُعطى للمسيرة الاجتماعية، وهي التي تغنيها.

وينطبق الأمر نفسه على باقي أصول الدين التي سعى الشهيد الصدر الى بيان أبعادها الحضارية والاجتماعية.

ثانيا: المفاهيم التي تعكس وجهة نظر الاسلام، في تفسير الاشياء، على ضوء النظرة التي تبلورها العقيدة.

ثالثا : العواطف والاحاسيس التي يتبنى الاسلام بثها وتنميتها، الى جانب تلك المفاهيم، لان المفهوم ـ بصفته فكرة اسلامية عن واقع معين ـ يفجر في نفس المسلم شعورا خاصا، تجاه ذلك الواقع، ويحدد اتجاهه العاطفي نحوه، فالعواطف الاسلامية وليدة المفاهيم الاسلامية، والمفاهيم الاسلامية موضوعة، بدورها، في ضوء العقيدة الاسلامية الأساسية[٥٨].

* * *

● الهوامش:

(١) عزة جرادات : مقال«البديل الحضاري للمجتمع المعاصر» مجلة المسلم المعاصر س٤ع١٢ (١٣٩٨هـ)ص١٢٩ـ١٥٢.

(٢)يراجع اللقاء الذي اجرته معه مجلة المستقبل ع٤٢٨، الصادرة بتاريخ: ٤ـ٥ـ١٩٨٥،ص٥٠.

(٣) رجاء غارودي: مقال «البديل هو الاسلام» المنشور ضمن كتاب «الاسلام والمستقبل» من اصدارات اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر القمة الاسلامي الخامس، الكويت ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧،ص١١٩ـ١٢٨.

(٤) عون الشريف قاسم: مقال«الجذور الفكرية للمجتمع المسلم» مجلة المسلم المعاصر س٣ع١٠(٤ـ١٣٩٧هـ) ص:١١ـ٢٤.

(٥) غارودي: مقال «البديل هو الاسلام» المرجع السابق ١٣٦.

(٦) الروم:٣٠.

(٧) تراجع مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب«الصياغة الاسلامية لعلم الاجتماع»سلسلة كتاب الامة (٣٣) قطر، ربيع الاول ١٤١٣هـ .

(٨) د.قباري محمد اسماعيل:«علم الاجتماع السياسي» الاسكندرية(د.ت) ص:٥٥.

(٩) تجدر الاشارة هنا الى ان السيد الشهيد الصدر «قدس سره» كان ينوي اصدار كتاب «مجتمعنا» بعد اصداره كتاب «فلسفتنا»حيث كان من المقرر أن يتناول فيه أفكار الاسلام عن الانسان وحياته الاجتماعية، وطريقته في تحليل المركب الاجتماعي وتفسيره، لينتهي من ذلك الى المرحلة الثالثة الى النظم الاسلامية للحياة التي تتصل بأفكار الاسلام الاجتماعية، وترتكز على صرحه العقائدي الثابت، ولكن شاءت رغبة القراء الملحة ان تؤجل مجتمعنا ... ولم يصدر مجتمعنا، لان النظام الجائر حال دون ذلك (تنظر مقدمة اقتصادنا ط١ص:٥).

(١٠) احميدة النيفر: مقال «الفكر الاجتماعي في الكتابات الاسلامية الحديثة»مجلة المسلم المعاصر س١٢، ع٤٧(٦ــ٧ــ١٤٠٦هـــ ١٩٨٦م) ص:٢٩ــ٤٨.

(١١) هذه الادلة مستقاة من المقال القيّم«المرأة في المجتمع القرآني»للدكتورة لميعة فاروقي مجلة التوحيد س٢، ع٩(٧ــ٤٠١٤٠٧هــ)ص:٢٣٢ــ٢٤٥.

(١٢) ساهم المستشرقون في اشاعة هذه التصورات الساذجة، عن المجتمع الاسلامي، بمن فيهم اولئك الذين يتظاهرون بالحيادية والموضوعية كبرنارد لويس الذي يتبنى في كتابه «الشيوعية والاسلام» نمطاً محدداً من التوجه، في تحليل المجتمع الاسلامي ... توجه يتصف بافتراض فرضيات مسبقة ومعدة سلفا تؤول، في نظره، المجتمع الاسلامي وتسند الرأي القائل ان الاسلام بطبيعته استبدادي(AUTHORITARIAN) اعتدائي(AGGRESSIVE) وغير ديمقراطي(ينظر كتاب :صورة العرب في الصحافة البريطانية للدكتور حلمي خضر ساري ، بيروت ١٩٨٨ص٦٩.

واما العملاء الفكريون للمستشرقين، من دعاة التغريب، فقد انبرى لتسفيه تصوراتهم الساذجة الاستاذ محمد قطب في كتابه :معركة التقاليد ، القاهرة ط٢، ١٩٦٢، ص١٣٥ومابعدها.

(١٣) سيد قطب:«نحو مجتمع اسلامي» دار الشروق(د.ت) ص١٧.

(١٤) السيد محمد باقر الصدر:«اقتصادنا بيروت ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٧ص٢٧٢،٢٦٩،١٢(بتصرف) .

(١٥) د.محمد جواد رضا:مقال«النظام الاجتماعي» مجلة العربي الكويتية» العدد(١٢٩) آب ــ اغسطس١٩٦٩، ص٣٠.

(١٦) العلامة الطباطبائي: تفسير الميزان ٩٢:٤(ط بيروت).

(١٧) الحجرات:١٣.

(١٨) البقرة:٢١٣.

(١٩) السيد محمد باقر الصدر:«الاسلام يقود الحياة» طهران(د.ت) ص٤٠٣.

(٢٠) عمر عودة الخطيب: «لمحات في الثقافة الاسلامية» بيروت، ١٣٩٣هـ١٩٧٣، ص٢٤٦.

(٢١) ابن خلدون ، المقدمة:٢١ (نقلا عن كتاب المجتمع الاسلامي للدكتور مصطفى عبد الواحد، ط٢، بيروت ١٣٩٤هـ ـ١٩٧٤ص:٥٢.

(٢٢) السيد محمد باقر الصدر «اخترنا لك» بيروت ١٣٩٥هـ ـ١٩٧٥م ص٢٦٣.

(٢٣) المنجد في اللغة مادة(جمع) بيروت، ١٩٧٣، ط٢١، ص١٠١.

(٢٤) محمد قطب :«الانسان بين المادية والاسلام» ط٤، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٣٧.

(٢٥) الشيخ مرتضى مطهري:«المجتمع والتاريخ، القسم

الاول، تعريب محمد علي آذرشب، طهران، ١٤٠٢هـ، ص١٢.

(٢٦) الشيخ محمد تقي مصباح : مقال «المجتمع والتاريخ في المنظور القرآني » مجلة التوحيد، س٩، ع٥١(٦ـ١٤١١هـ ـ ٢ـ١٩٩١م) ص:٤٠

(٢٧) مالك بن نبي:«ميلاد مجتمع» تعريب عبد الصبور شاهين، ط٢، دمشق، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م ص١٥ـ١٧.

(٢٨) عزة جرادات:« البديل الحضاري للمجتمع المعاصر» مجلة المسلم المعاصر: المرجع السابق .

(٢٩) التوبة:٣١.

(٣٠) التوبة : ٣٤.

(٣١) محمد المبارك: مقال«نحو صياغة اسلامية لعلم الاجتماع» مجلة المسلم المعاصر: س٣، ع١٢(١٠ـ١٣٩٧هـ ـ ١٠ـ١٩٧٧م) ص٣٢.

(٣٢) د.عماد الدين خليل:مقال«القرآن الكريم والمسألة الاجتماعية:خطوط عريضة»مجلة المسلم المعاصر: س٣، ع١٠(٤ـ١٣٩٧هـ ـ ٤ـ١٩٧٧م)ص٩٣.

(٣٣) محمد تقي مصباح: مقال «المجتمع والتاريخ»، مجلة التوحيد: المرجع السابق: ٣٦.

(٣٤) يوسف:١٠٨.

(٣٥) يتردد كثيرا هذا الخطاب، وقد ورد مثلا في سورة البقرة وحدها في الآيات(١٠٤ـ١٥٣ـ١٧٢ـ١٧٨ـ١٨٣ـ٢٠٨ـ٢ـ٢٥٤ـ٢٦٤ـ٢٦٧ـ٢٧٨ـ٢٨٢).

(٣٦) افتتحت سورة النساء بهذا الخطاب وترددت ثلاث مرات فيها: ١، ١٧٠، ١٧٤.

(٣٧) آل عمران : ١١٠.

(٣٨) آل عمران : ١٠٤.

(٣٩) البقرة : ١٤٣.

(٤٠) الشيخ خليل الميس: « مقومات الامة في الكتاب والسنة» مجلة الفكر الاسلامي(اللبنانية) س٩، ع١٠(١١ـ١٤٠٠هـ ـ١٠ـ١٩٨٠م)ص:١١.

(٤١) د.محمد عمارة: مقال «العلاقة بين الطبقات:وجهة نظر اسلامية» مجلة العربي العدد(٣٦٧) ـ حزيران(يونيو) ١٩٨٩، ص٢٢.

(٤٢) نقلا عن مجلة المنطلق البيروتية العدد(٥٩) ربيع الاول ١٤١٠هـ ـ تشرين الاول ١٩٨٩، ص٦٤.

(٤٣) سيد قطب : «معالم في الطريق» (د.ت)ص١٤١.

(٤٤) السيد محمد باقر الصدر «الاسلام يقود الحياة» م.س: ٢٦ـ٢٧.

(٤٥) د.جواد علي : مقال «القيم الروحية واهميتها للمجتمع المسلم» مجلة المسلمون (جنيف)العدد(٨،٧)المجلد التاسع، محرم وصفر ١٣٨٤هـ ـ ايار وحزيران ١٩٦٥، ص١٣١.

(٤٦) انور الجندي:«الاسلام وحركة التاريخ» بيروت، ١٩٨٠، ص٤١ـ٤٢

(٤٧) يوسف:٨٤

(٤٨) المائدة: ٥٠.

(٤٩) معالم في الطريق: ٦٩ـ٧٠.

(٥٠) يراجع كتاب «مبادئ الاسلام» لأبي الأعلى المودودي .

(٥١) للمزيد من الاطلاع، على هذه النظرية، يراجع المقال القيم :«القيم الاجتماعية الاسلامية وفعالية السلوك الاداري في المؤسسة » مجلة المسلم المعاصر: س١٢، ع٤٩(ـ٨ـ١٤٠٨هـ ـ ٩ـ١٩٨٧م) ص:٢٧ـ٦٦.

(٥٢) البقرة:٣٠.

(٥٣) نقلا عن مقال :«رؤية السيد الصدر للمشروع الحضاري» لمحمد عبد الجبار ، مجلة المنطلق، العدد ٦٢، جمادى الثانية ١٤١٠هـ ـ كانون الثاني ١٩٩٠م، ص٨٠ـ٩٩.

(٥٤) يوسف:٣٩.

(٥٥) والمقصود قوله تعالى :﴿انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان﴾ ـ الاحزاب :٧٢.

(٥٦) مجلة المنطلق؛ م.س٦٢:٨٩ـ٩٠.

(٥٧) المرجع نفسه:٨٤

(٥٨) المرجع نفسه: ٩٧ـ٩٨.

نظريّة القرآن في تقنين المجتمع

الدكتور عبد الجبار شرارة

لعل من نافلة القول التأكيد على أنَّ الحياة الأنسانية ،بدون منهج واضح وتقنين شامل ،تقع في التخبط والفوضى والاضطراب، ويبقيها ذلك أسيرةً للتجارب المتعثرة التي تعتمد غالباً على ما يفرزه الواقع (واقع التجربة) من خطأ وصواب، وفي ذلك، كما لا يخفى، اهدارٌ كبير لفرص البناء الحقيقي، والنهضة والرقي، فضلاً عما يستلزمه (انعدام التقنين الصالح) من تضحياتٍ لا مبررَ لها. ولقد كان في مقدمة أسباب اخفاق التجارب البشرية، في هذا المجال، اغفالها لأهمية العلاقة بين (الروح والجسد) في الحياة الانسانية، وما استتبع ذلك من الأهمال للفعاليات والانشطة الروحية ودورها في الحياة الأجتماعية.

إنَّ تشخيص حقيقة وطبيعة العلاقة بين الروح والمادة وحل هذه (الاشكالية) كان القرآن قد سبق اليها، فتصدى الى رسم المنهج وتحديد أبعاده في تقنين الحياة الأنسانية آخذاً بنظر الاعتبار أبعاد الانسان في الزمان والمكان، مراعياً طبيعته الازدواجية في تركيبه الداخلي، ليختزل بذلك المعاناة التي يتعرض اليها المجتمع البشري عِبرَ تجارب الخطأ والصواب. قال تعالى: ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم مني هُدىً فمن تبعَ هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون**﴾ [البقرة: ٣٨]. ويظهر هنا أن القرآن الكريم قد شخّص الحقيقة الموضوعية القائلة بأنَّ الأنسان بصفته خاضعاً لظروف الزمان والمكان، وينبعث دائماً في تقييماته وآرائه من نزعاته وأهوائه لذلك فمن الطبيعي سيادة حالة التظالم والخصومات والاعتداء، كما أشار

الى ذلك القرآن قائلاً: ﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع الى حين**﴾ [الاعراف: ٢٤].

واستناداً الى ذلك فالأنسان عندما يتصدى لوضع القواعد القانونية سيكون تحت تأثير تلك النزعات والأهواء، ومن هنا اتجه القرآن الكريم الى بيان الشريعة العامة، وتكفّل بتحديد القواعد والمبادىء والأحكام العادلة والملائمة للانسان، كما نبّه الى ذلك في قوله تعالى ﴿**ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمرِ فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾ [الجاثية: ١٨]، ولقد تضمنت تلك القواعد والأحكام الحلول والمعالجات لأشكاليات الحياة الأنسانية، كما إنّها وفّت بحاجات الأنسان الروحية والمادية على حدٍ سواء.

إنَّ الهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن التصور القرآني العام أي (نظرية القرآن) في تقنين المجتمع، وذلك بتحديد الأسس والمنطلقات التي تقوم عليها النظرية. ثم تبيّن الجوانب الأساسية فيها من القواعد الملزمة في نطاق الاسرة، بصفتها المجتمع المصغّر، وفي ميدان الفعاليات والعلاقات بين أفراد المجتمع.

ومن هنا يتحدد المنهج في هذه الدراسة إذ سنتناول ذلك في مباحثٍ فنعرض في المبحث الأول اسس النظرية القرآنية ونحدد ملامحها العامة، ثم ننتقل الى المبحث الثاني، فنعرض تقنين الفعاليات المختلفة للفرد والمجتمع، فنتكلم على التقنين في نطاق الاسرة، ثم نتكلم على الحقوق الخاصة والعامة ـ كما اخذ بها أهل القانون الحديث ـ

وفي كل ذلك سنعرض المعالم النظرية دون التفاصيل،و سنقوم باستنطاق النصوص القرآنية، مستعينين بأحاديث الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته الأطهار عليهم السّلام ،وبملاحظات العلماء والمفسرين، ومنه تعالى نستمد العون والتسديد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الأول: أُسس النظرية وملامحها

إن القرآن الكريم يصدّقُ بعضه بعضاً[١]، ويفسّرُ بعضه بعضاً. وهذه حقائق متسالم عليها عند العلماء والمفسرين[٢]، وعليه فإذا أُريد فهمُ أمر كلي، أو استكشاف حقيقةٍ، أو استخلاص نظرية من القرآن الكريم، فيلزم مراعاة ذلك، والنظر بذاك اللحاظ.

اننا نفترض في ضوء ذلك أنَّ القرآن

الكريم في نظريته لتقنين المجتمع ينطلق أولاً من حقيقةٍ مفادها، أنّ تغيير المجتمع الانساني وتطويره باتجاه الكمال والرقي والصلاح، لا يتحقق مالم يتمّ تغيير المحتوى الداخلي[٣] للأنسان، فكراً ونفسيةً وقناعات وسلوكاً وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله **﴿إنَّ الله لا يغيرما بقومٍ حتى يغيروا ما بانفسهم﴾** [الرعد: ١١]، والتغيير هنا أشمل وأعمّ. واستناداً الى ذلك، يتجه القرآن الكريم في اطار تقنين المجتمع الى وضع المنهج الشامل لضبط التفكير والفعاليات العقلية، وهذا له أولويته في التصور القرآني ـ كما نعتقد ـ لمدخلية ذلك أصلاً في انضباط الانسان داخل المجتمع بلحاظ أنه ما لم ينفتح وجدانه على (القواعد القانونية) لا يتحقق تفاعله الايجابي معها. لاحظ قوله تعالى: **﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** [آل عمران: ١٩١]، فالتفكير الصحيح يقود الى الاستنتاج الصحيح، والاستنتاج الصحيح يقود الى الاعتقاد السليم، والاعتقاد يقود الى الانقياد، والانقياد الى الحق، وفيه السلامة والنجاة.

ويتجه القرآن الكريم بعد ذلك الى ضبط الفعاليات داخل نطاق الاسرة بصفتها (الوحدة الأجتماعية المصغّرة)، وبلحاظ أن الاسرة تمثل بيئة الأنسان ومهدِه وأجواء تنشئته، وهو ينشدُّ اليها لأكثر من اعتبار.

لقد كان تدخل القرآن الكريم في تنظيم العلاقات وتقنينها داخل نطاق الاسرة تدخلاً واسعاً وتفصيلياً، إذ أخضعها اليه تكويناً وصياغةً وإنشاءً، وأحكمها وفق ضوابط معينة، وحددَّ بدقةٍ الحقوق والواجبات حفاظاً عليها من الانحلال آخذاً بنظر الاعتبار طبيعة الأنسان وما يمكن أن يحدث من اشكاليات، وما يحتمل من طوارىء بما في ذلك انحلال الزواج وما قد ينشأ عنه من آثار تستدعي المعالجة الحاسمة، فقال تعالى مثلاً: **﴿أسكنوهُنَّ من حيث سكنتم من وُجدكم ولا تضاروهنَّ لتضيقوا عليهنَّ وإن كنَّ أُولات حملٍ فانفقوا عليهنَّ حتى يضعن حملَهُنَّ﴾** [الطلاق: ٦].

ثم نجدُ القرآن الكريم بعد انجاز هذه المهمة يتجه الى ضبط الفعاليات الأجتماعية المتنوعة بتقنين العلاقات المختلفة الناشئة من الأنشطة الأقتصادية أو غيرها، وما ينشأ أيضاً من التزامات بحكم الفعل والتصرف.

ومن هنا نجدُ العناية بالحقوق الخاصة والعامة[٤]، وإذا كان هذا ما يمكن ملاحظته وتسجيله من خلال عملية استقراء لمقاصد القرآن وأهدافه وغاياته، وما يمكن تلمسّه بوضوح في موارد كثيرة ـــ كما سيتضح ـ

فكل ذلك يشكل ـ في نظرنا ـ الملامح العامة لأتجاهات (التقنين) في القرآن الكريم.

إنَّ المعالم الاساسية أو الهيكل العام للنظرية القرآنية يمكن تصويره كما يأتي: يبدأ القرآن ويهتم أولاً برسم المنهج السليم للتفكير، أي أنَّ عملية التقنين تبدأ من تقنين الفعالية العقلية والفكرية ثم يتمُّ التدرج الى تقنين الفعاليات والعلاقات في داخل الاسرة، ثم يتمُّ التحول الى تقنين العلاقات في اطار المجتمع. إنَّ هذه النظرة الشمولية تتضح من الاعتبارات التي نبهنا عليها قبل قليل، ولذا يجب فهم النظرية القرآنية في مجال التقنين بهذه الأبعاد. إلا أننا مع ذلك سنقتصر في هذه الدراسة على ما يتصل بالاسرة وبالمجتمع، بلحاظ أنَّ ذلك هو المساحة المشتركة، بين التقنين الوضعي والتقنين الاسلامي (القرآني)، وهو الذي يقتضيه فنيّة العنوان الرئيس في هذه الدراسة:

والآن آن الآوان للتعرض الى اسس النظرية القرآنية.

أُسس النظرية:

الواقع إنَّ أهمَّ ما يمكن الاعتماد عليه في هذا المجال هو ما يأتي:

أولاً: النصوص القرآنية الصريحة التي تؤكد شمولية القرآن الكريم في معالجاته لكل شيء، وعنايته بكل شيء، وعدم تفريطه بشيءٍ من الأشياء له علاقة بالأنسان، ومن تلك الموارد والايات قوله تعالى: ﴿**ما فرّطنا في الكتاب من شيءٍ..**﴾ [الانعام: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتابَ تبياناً لكل شيء..**﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿**كتابٌ احكمت آياتُه ثم فُصلت من لدن حكيم خبير**﴾ [هود: ١]، وقوله تعالى: ﴿**أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكُمُ الكتابَ مفصّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربِّك بالحق فلا تكونَنَّ من الممترمين..**﴾[الانعام: ١١٤].

فهذه النصوص جدُّ صريحة في كفالة القرآن لجميع المتطلبات، ووفائه للحاجات الأنسانية، التي من أخصّها العناية بتنظيم شؤون الحياة المختلفة.

ثانياً: التأكيدات التي وردت في القرآن الكريم على أنه ـ أي القرآن ـ جاء ليخرج الناس جميعاً من الظلمات الى النور، ومن الظلم والتظالم الى العدل والتراحم، ومن الفوضى والتداعي الى النظام والتماسك، وفي هذا الصدد نجد مجموعة من الآيات المباركة تصرّح بذلك، وتشير إليه.

قال تعالى: ﴿**كتابٌ أنزلناه اليك لتخرج الناسَ من الظلمات الى**

النور﴾[ابراهيم: ١].

وقال تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون...﴾** [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريدُ ظلماً للعالمين﴾**[آل عمران: ١٠٨].

وقال تعالى: **﴿وهذا كتابٌ مصدّقٌ لساناً عربياً لينذرَ الذين ظلموا وبُشرى للمحسنين إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾**[الاحقاف: ١٢ـ ١٣].

وقال تعالى: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فالَّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فانقذكم منها كذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾**.

والى هذا المعنى كانت فاطمة الزهراء عليها السّلام قد أشارت في خطبتها قائلةً: «وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار مُذقةَ الشاربِ ونُهزةَ الطامع، وقُبسةَ العجْلان، وموطىءَ الأقدام... أذلةً خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولِكم فأنقذكم الله بمحمدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم بَعدَ اللتيا والتي...»(٥).

ثالثاً: التحذيرات السديدة من مخالفة الأحكام الألهية والأوامر الألهية كما في قوله تعالى: **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ عظيم﴾**[النور: ٦٣].

وقال تعالى: **﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك﴾**[المائدة: ٤٩].

وكذلك نجد القرآن الكريم ينعت الذين لا ينصاعون الى أحكام الله المنزلة بالفسق مرة وبالكفر أُخرى وبالظلم ثالثة: قال تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون﴾**[المائدة: ٤٧].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون﴾[المائدة: ٤٤].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون﴾[المائدة: ٤٥].

ولازم هذا أن يكون الله تعالى قد أنزل هذه الأحكام وأن تكون مثل هذه الأحكام مستوعبة كلَّ مجالات الحياة، وكل الشؤون التي تهمّ البشر ليصحَّ لهم عدم المخالفة باللجوء الى الأحكام غير الألهية، وإلاّ لكانت الحجة لهم لا عليهم. وقد قال تعالى **﴿فلله الحجة البالغة﴾** [الانعام: ١٤٩].

هذا وقد قال تعالى في نفس الوقت: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها﴾**[محمد: ٢٤] وقال تعالى: **﴿كتابٌ أنزلناه اليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر**

اولو الألباب﴾[ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾[القمر: ٢٢].

ثم أوكل لرسوله الكريم نبينا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأهل بيته الطاهرين بلحاظ أنّهم من الراسخين في العلم الذين يعلمون التنزيل، ويعلمون المحكم والمتشابه، أوكل اليهم البيان والأيضاح[٦].

ومن هنا يكون قد قطع العذرَ على كل أحد ﴿وتمت كلمة ربّك صدقا وعدلا﴾[الانعام: ١١٥].

رابعاً: لقد نهانا الله تعالى عن الاحتكام الى الطاغوت، أو الى الأهواء قال تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به﴾ [النساء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ولئن اتبعتَ أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انّك إذاً لمن الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥]. وقال تعالى: ﴿وإنَّ كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾[الانعام: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ [المائدة: ٤٩].

والطاغوت «هو كل رئيس في الضلالة، وكل من يعبد من دون الله، وكل شيطان وكل كافر»[٧]، واستناداً الى هذه المجموعة من الآيات، فلو لم يكن القرآن الكريم قد تعهد وتكفّل بالوفاء بكل ما يحتاجه البشر، ولو لم يشتمل ويتضمن حلاً ومعالجةً للخصومات والنزاعات، وفق أحكام محدَّدةٍ، لما كان معنى للنهي عن الاحتكام الى الاخرين، بالأخص وإنَّ الأطلاق الوارد في النهي عن الاحتكام الى الطاغوت، ينصرف الى مطلق الأحكام غير الألهية، وتأييدا لذلك، فقد جاء عن الأمام الصادق عليه السّلام كما في رواية أبي بصير أنه قال: «من حَكَم في درهمين بغير ما أنزل الله عزوجل فهو كافر بالله تعالى»[٨].

إنَّ ما استظهرناه من هذه الشمولية والاستيعاب، والاسس التي اعتمدناها في ذلك، استفدناه أيضاً ومباشرةً مما نبّه اليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السّلام، فقد جاء عن الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال عن القرآن الكريم «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء..»[٩].

وجاء عن أمير المؤمنين علي عليه

السّلام في معرض ذمّه للاختلاف في كتاب الله، قال: «تَرِدُ على احدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم تردُ تلك القضية بعينها على غيره، فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الأمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً، والههم واحد! ونبيّهم واحد! وكتابهم واحد! أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟ أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟! أم أنزل الله ديناً تامّاً فقصّرَ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم عن تبليغه وأدائِه؟. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨]. وفيه تبيان لكل شيء. وذكر أنَّ الكتاب يُصدّق بعضُه بعضاً، وانه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢]»[١٠].

وقال عليه السّلام في موضع آخر «الا وإنَّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم أمركم»[١١].

وهنا لابدَّ من التنبيه الى أن القرآن الكريم قد خوّل النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ليس فقط وظيفة البيان والتبين لآيات الكتاب العزيز وأحكام القرآن المجيد كما نصّ ي قوله تعالى: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾ [النحل: ٤٤]، وإنما خوله أيضاً بما أوحى إليه وبما علّمه وهداه «التشريع»[١٢]، كما صرحت الآية المباركة: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧].

وهنا لابدَّ أن نفترض أن وقت النبي الأكرم لم يكن يسعه لبيان كل الأحكام والتشريعات لمجموع الناس وعامتهم، ولذا اختصَّ بهذا الأمر من هو منه[١٣] يبلغ عنه أعني علي بن أبي طالب عليه السّلام لينهض بهذه المسؤولية ويكمل هذا الدور. ولدينا على الأمر شواهد وأدلة وأرقام كثيرة نوردُ منها ما يعززُ هذا الراي ويدعمه.

لقد جاء عن علي بن أبي طالب عليه السّلام أنه قال «كنتُ إذا سألتُ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أعطاني، وإذا سكتُّ ابتدأني»[١٤]. وفي حديث طويل تحدث الامام علي عليه السّلام في هذا الصدد قائلاً: «ما نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم آيةٌ إلاّ أقرانيها وأملاها عليُّ، فكتبتها بخطي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا اللهَ لي أن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيتُ آيةً من كتاب الله تعالى وعلماً أملاهُ عليَّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك رسول الله علما

علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي كان أو يكون إلا علمنيه وحفظته، ولم أَنسَ حرفاً واحداً منه...»[١٥].

وقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: «إنَّ القرآن أُنزل عَلى سبعة أحرف، ما منها حرفٌ إلا وله ظهرٌ وبطن وإنَّ علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن»[١٦] وورد عن ابن عباس أنَّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عهد الى عليٍّ سبعين عهداً، لم يعهد الى غيره...»[١٧].

وذكر السيوطي أن معمر روى عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: «شهدتُ علياً يخطبُ وهو يقول سلوني، فوالله لا تسألونني عن شيءٍ إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آيةٍ إلا وأنا أعلمُ: أبليل نزلت أم بنهارٍ أم في سهل أم في جبل»[١٨].

ومن هنا يتضح لدينا أنَّ القرآن الكريم قد تكفّل بتقديم الحلول والمعالجات لسائر الشؤون الأنسانية، وفي مختلف المجالات، وأن هذه تغطي المساحة الكبيرة والأساسية للتشريع الاسلامي، «ومصدر استكشاف هذا النوع من التشريعات هو الرجوع الى القرآن الكريم مباشرةً أو الى سنة نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أو الى خلفائه المعصومين الذين يمثلون امتداده التشريعي»[١٩].

وقد قدمنا من الأدلة: والنصوص ما يكفي في تثبيت المطلب، وأما ملامح النظرية ومعالمها فقد اتضحت لدينا أيضاً، ولم يبق إلا الخوض في التفاصيل والكشف عن الجوانب الأساسية الاخرى للنظرية القرآنية، وهذا ما نعرض له في المبحث الثاني.

المبحث الثاني: تقنين فعاليات الفرد والمجتمع

إنَّ القرآن الكريم يتجه فعلاً، وفي سبيل اثبات مصداقيته، في وفائه بالحاجات الأساسية، وتنظيم العلاقات داخل الأطار الأجتماعي، يتجه الى تقديم اطروحته فيحدد (القواعد الملزمة) والمناهج العملية في هذا الأطار.

وحتى نتبين ذلك بوضوح نلجأ الى تعريف القانون والقاعدة القانونية، ونعرض للهيكلية التي يقدمها القانون، في هذا المجال، ثم نتبين في ضوء ذلك نظرية القرآن، فالقانون: «هو مجموعة القواعد التي تنظم نشاط الأشخاص والمجتمع، وتقوم على احترامها سلطة عامة توقعُ الجزاء على من يخالفها».[٢٠]

والقاعدة القانونية باعتبارها قاعدة

سلوك ونظام يتحتم الخضوع لها. أما مضمون القاعدة من الناحية العملية فهو تخويل الفرد حقاً أوفرض واجب عليه.(٢١)

وقد مُثّل بأنّ القاعدة التي تقضي بأن العقود المنشأة على الوجه القانوني تلزم المتعاقدين.

ولتصوير هذه المسألة في القرآن فاننا نجد النصّ على لزوم الوفاء بالعقد المنشأ على الوجه الشرعي؛ يتبين ذلك في قوله تعالى: ﴿**أوفو بالعقود**﴾[المائدة:]، والآية تتضمن صفة الالزام. وهي بضميمة قوله تعالى: ﴿**ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾[البقرة:١٨٨] التي مقتضاها النهي عن الأكل بالباطل بمعنى اجراء العقد على خلاف الشرع (٢٢)، فيتحصل لدينا نصٌّ قانوني محدد. وقد ذهب الفقهاء الى أصالة اللزوم في العقود.(٢٣)

ثم إن القانون، في تنظيمه لسلوك الأفراد وعلاقاتهم في المجتمع، إنّما يفعل ذلك ببيان حقوقهم وواجباتهم ... والقاعدة القانونية بلحاظ انّها قاعدة اجتماعية «تفرض نظاماً معيناً، وهي ذاتُها التي تخّول الحق فتضع بين يدي الشخص سلطة تمكّنه من أن يعمل على وجه معين، في علاقاته بغيره، أو تفرض عليه واجباً في هذا السبيل».(٢٤)

وسنتبين ذلك بوضوح، في نطاق الأسرة حسب النظرية القرآنية، وفي نطاق التعامل والعلاقات بين الأفراد، وما ينشأ عادة من التصرفات الشرعية والفعلية من إلتزامات.

وهنا يلزم التنبيه الى أمر مهم، وهو إنّ القرآن الكريم وإن اعتنى عناية مباشرة بعملية التقنين والتشريع، في نطاق الاسرة والمجتمع، ولكنه أوكل جانباً من ذلك الى النخبة المتخصصة أي (الفقهاء) كما أشار الى ذلك في قوله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم ....**﴾ [التوبة:١٢٢]. وهنا قيمة حضارية كبرى ينبه اليها القرآن العظيم، وهي احترام ذوي الاختصاص. إنَّ دور الفقهاء، في هذا الصدد، أي في سن القوانين يكون في مجال ما اصطلح عليه بمنطقة الفراغ، كما نبّه الى ذلك الشهيد الصدر (رض).(٢٥)

وذكر السيد الهاشمي «أنّ للفقهاء دورين في هذا المجال (أي التشريعي).

الأول: دور الكشف وتفسير التشريعات الاسلامية الثابتة، في أصل الشريعة والافتاء بها، من قبل الفقيه، وهو في هذا المجال ككل مكتشف يبتغي الوصول الى الواقع الموضوعي المشرّع،

من قبل الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، ومن خلال الأدلة المقررة لعملية الاجتهاد. والاجتهاد لا يعني التشريع.

والثاني: دور مل منطقة الفراغ بوصفه وليّاً للأمر بناءً على النظرية السياسية التي ذهب إليها أكثر علماء الإمامية . . . ». [٢٦]

إنَّ التشريع أيَّ تشريع، بوجه عام، له ثلاث وظائف كبرى في المجتمع ،كما يقول الدكتور الزرقا، وهذه الوظائف هي «العلاج والوقاية، والتوجيه. فهو علاج للعلل الأجتماعية، رهو وقاية من العلل والمشكلات المتوقعة ،وهو توجيه وتمهيد لاستمرار التكامل حتى يبلغ تنظيم الحقوق والالتزامات والمصالح مستواه الأكمل. ولكي تتحقق هذه الوظائف الثلاث يجب أن يكون ـ أي التشريع ـ إلزامياً، وإلا كان من قبيل المواعظ والإرشادات الأخلاقية. ثم لكي تضمن له الطاعة في العمل والتطبيق يحتاج الشرع الى نوع من الأحكام يسمّى بالمؤيدات، وهي إما زواجر مدنية كبطلان العقود المخالفة للنظام، وإما عقوبات تأديبية كالسجن والغرامات على الجرائم العدوانية». [٢٧]

ونبّه الدكتور الزرقا الى أنَّ «النظام القانوني في الشريعة الإسلامية تضمن قواعد وأحكاماً أساسية في كلا الميدانين، أي ميدان الحقوق الخاصة بنوعيها المدني والجنائي، وميدان الحقوق العامة بفرعيها الداخلي والخارجي أي الدستوري والاداري والمالي والدولي». [٢٨]

وهذه في الواقع أهم فروع القانون كما أشار اليها الدكتور الصدّة في كتابه مبادئ القانون. [٢٩]

ونحن يهمنا إلقاء الضوء على وجود مثل هذه الحقوق المشار اليها في النصوص القرآنية إما تصريحاً أو اشارة..

واستناداً الى ذلك سنتناول بالعرض قسم (الحقوق الخاصة) أولاً، ونتكلم في البداية على (الأحوال الشخصية) أي القواعد القانونية ،في نطاق الاسرة، كما ثبتّها القرآن الكريم، ثم ننتقل الى الحديث عن الإلتزامات ونتكلم في هذا المجال على العقود بشكل عام وما يتعلق بها، ثم نتحول الى الحديث عن الحقوق الجنائية والمبادىء التي يحتكم اليها في هذا النطاق. وننتقل بعد ذلك الى (الحقوق العامة)، ونتناول أولاً ما اصطلح عليه (بالحقوق الداخلية) التي تتضمن الناحية الدستورية وما يتصل بها من مبادئ ، ثم الناحية الادارية، ثم الناحية المالية.. ونتحول الى الكلام على الحقوق الخارجية أي (الدولة) فنتكلم على المبادئ القانونية، في هذا الإطار.

ونحن إنما اعتمدنا وترسمنا هذا (المنهج القانوني)، للتأكيد على أن القرآن قد كان سبق التشريعات الحديثة في الأهتمام بهذه الجوانب المهمة، ووضع القواعد والأحكام الملزمة التي تكشف عن شموليته وطابعه القانوني أيضاً.

المطلب الأول: تقنين الأسرة

إنَّ الأسرة في نظر القرآن الكريم تُعدُّ اللبنة المهمة في البناء الأجتماعي، وعلى مدى سلامتها ومتانة العلاقات القائمة في داخلها، يتوقف سلامة البناء برمته. ولقد أشارت الآية المباركة الى هذه الحقيقة **﴿يا أيها الناس اتَّقُوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ...﴾**[النساء:١]. كما اشار القرآن الى أمر له مدخلية في استقامة البناء الأُسري، قال تعالى: **﴿خلق لكم من انفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ...﴾** [سورة الروم:٢١]. فالسكن هنا والمودة والرحمة عناصر أساسية في التماسك. ثم لفت القرآن النظر الى أن الزواج، وفق قواعد الشرع، يتسق ويتناغم مع سائر الوجودات الأخرى التي هي من بدائع صنع الله تعالى، فقال تعالى: **﴿خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسكم ومما لاتعلمون﴾**[يس:٣٦]. إذ فيها تنبيه الى أنَّ ظاهرة الزوجية تحكم الموجودات كلها، وأن هذه الموجودات تجري على نواميس وقوانين لا تحيد عنها. قال تعالى: **﴿وخلق اللّه السموات والأرض بالحق ...﴾**[الجاثية:٢٢]. وقال تعالى: **﴿وأنبتنا فيها من كلِّ شيءٍ موزون...﴾** [الحجر:١٩]. وقال تعالى: **﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ...﴾**[يس:٣٨]. وفي كل ذلك تنبيهات واشارات واضحة الى تحكّم القوانين في كل أنحاء الوجود وأجزائه. [٣٠]

وبناء على ذلك، فإنَّ الاسرة يجب أن تتكون وتتشكل وفق قانون، وانها يجب أن تنضبط فعالياتها وفق قانون، وأن تنشأ العلاقات وتتوزع الحقوق والواجبات أيضاً وفق قانون.

لقد جعل القرآن الكريم قيام الأسرة على أساس المودة والرحمة، كما أُشير في الآية المذكورة. وألزم الزوج بالمعاشرة بالمعروف كما في قوله تعالى **﴿وعاشروهن بالمعروف﴾**[النساء:١٩]. والأمر هنا ليس (وعظياً) بل هو يتضمن صفة الألزام، [٣١] وهنا أصل عظيم ومرتكز مهم في بناء الاسرة وسلامتها.

لقد أوكل القرآن الكريم إنشاء العلاقة

الزوجية الى الطرفين (الذكر والأنثى) ونبّه الى أنّ تكون هناك قناعة لكل واحدٍ بالآخر، ثم طلب اجراء العقد شكلاً وغايةً أي في الصيغة والمقصد استناداً الى قواعد اجرائية معينة. وقد قال تعالى في هذا الصدد: **﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾** [النساء:٣]. وقال تعالى: **﴿وأنكحوا الأيامى منكم...﴾** [النور:٣٢]. والأيم يطلق على الرجل والمرأة غير المتزوّج. وقال تعالى: **﴿ولا تمسكوهن ضراراً...﴾** [البقرة:٢٣١].

إنَّ القرآن حدد باديً ذي بدء من يجوز للأنسان أن يقترن بها، ومن لا تجوز سواء كان ذلك على سبيل التأبيد أو التاقيت [٣٢] فقال تعالى: **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، إنَّهُ كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، حرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وامهاتكم اللآتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللآتي في حجوركم من نسائكم اللآتي دخلتم بهنَّ فإنَّ لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الّذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إنَّ اللّه كان غفوراً رحيماً والمحصنات من النساء...﴾** [النساء:٢٣ـ٢٥].

(والقاعدة الآمرة)[٣٣] هنا في حرمة الأصناف التي ذكرت في الآيات المباركة روعي فيها احترام إنسانية الإنسان وفطرته من وجه، واجتناب تداخل الحقوق والواجبات من وجه آخر.

وعلى أية حال فالقرآن يقرر أنَّهُ إذا تمَّ عقد الزواج، وفق القواعد المذكورة، أخذ صفة الإلزام استناداً الى كلّية (أوفوا بالعقود) [المائدة:١]. ويترتب الأمر الشرعي ويجب المهر بالدخول [٣٤] قال تعالى: **﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾** [النساء:٤]. ثم يبدأ سريان الالتزامات المتقابلة.

فالزوج يلزمه المعاشرة بالمعروف، ويلزمه الإنفاق على الزوجة، وأداء الاستحقاقات المطلوبة قال تعالى: **﴿وعلى المولود له رزقهن﴾** [البقرة:٢٣٣]. والزوجة يلزم أن تطيع الزوج ولا تخلَّ بمقتضى العقد، وبما بينها وبين زوجها قال تعالى: **﴿ولهنَّ مثلُ الّذي عليهن﴾** [البقرة:٢٢٨].

وقال تعالى: **﴿فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حفظ اللّه﴾** [النساء:٣٤].

وقال تعالى: **﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلاً﴾** [النساء:٣٤].

وعندما يحصل الأنجاب، ويرزقان الولد كما أشار اليه تعالى: **﴿يهب لمن يشاء**

إناثاً ويهبُ لمن يشاء الذكور﴾ [الشورى:٤٩].

فحينئذٍ تتسع دائرة الإلتزامات وتنشأ حقوق جديدة: فيثبت النسب، وينشأ حق البنوة وحق الأبوة.

قال تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم من املاقٍ﴾**[الانعام:١٥١].

وفي نطاق الحقوق التي تنشأ من العلاقات بين أفراد الاسرة الواحدة، نجد القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصاً فيوجب على الأبناء حسن معاملة الآباء، ووجوب النفقة لهما، وعدم التضجر منهما ، مهما كانت الظروف والأحوال. والقواعد هنا كلها من قبيل (القواعد الآمرة) كما يصطلح عليها في القانون. أي لايجوز مخالفتها.

قال تعالى: **﴿وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنَّ عندكَ الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما﴾** [الإسراء:٢٣].

قال الأردبيلي في بيانه لمعنى الآية:

ولقد بالغ اللّه سبحانه وتعالى في التوصية لهما حيث شفّع الإحسان لهما بتوحيده تعالى ... ثم لم يرخّص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجّر ... ثم أمر بالخضوع والتذلل لهما [٣٥] بقوله تعالى: **﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة﴾**[الإسراء:٢٤].

ولم يقتصر الأمر في الإحسان والمعروف في حالة كونهما مسلمين، بل حتى لو كانا مشركين قال تعالى: **﴿ووصينّا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداك لتُشركَ بي ماليس لك به علمٌ فلا تطعهما ...﴾**[العنكبوت:٨].

وفي سورة أُخرى **﴿وإن جاهداك على أن تشرك ماليس لك به علمٌ فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾** [لقمان:١٥].

وفي الكشّاف قال في التفسير:

وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا ثم اليَّ مرجعُك ومرجعهُمَا فاجازيك على ايمانك واجازيهما على كفرهما، علم بذلك حكم الدنيا ... [٣٦]

ونظراً لما يتميز به القرآن الكريم من الواقعية ومعرفة خصائص البشر وطبيعتهم، ونظراً لكونه الشريعة الخالدة، لكل البشر، في جميع الأزمان، فقد أخذ في حسابه وقوع الافتراق بين الزوجين، واعطى هذا الأمر مشروعيةً في الحالات الموجبة، ولكنه تدخّل في هذه المسألة، ووضع جملةً من القواعد الملزمة والاجراءات المناسبة، تقليصاً لما ينتج عنه من آثار، ورعاية لحق المرأة من جهة اخرى:

قال تعالى: **﴿إذا طلقتُم النساء**

فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم ولا تخرجوهن من بيوتهنّ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾[الطلاق:١].

والظاهر هنا كما يقول الأردبيلي «أنه لابد من وقوع الطلاق، في وقت خاص صالح للعدة، وأنّ ذلك واجبٌ وشرط الصحة لأنها واردة لبيان تعليم الطلاق». (٣٧)

ثم ينتقل القرآن الى أمر آخر يتصل بالسابق فيقول:

﴿و إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهُنّ فأمسكوهنّ بمعروفٍ أو سرّحوهنّ بمعروف﴾[البقرة:٢٣١].

ثم يقول لاحقاً:

﴿و إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهُنّ أن ينكِحنّ أزواجهُنّ إذا تراضوا بالمعروف﴾[البقرة:٢٣٢].

والعضل يعني الحبس والتضييق.

ثم يبين التعليمات الأخرى فيما يتعلق بمسألة العدة فيقول:

﴿يا أيُّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ فما لكم من عِدّةٍ تعتدونَها فمتعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً﴾[الاحزاب:٤٩].

والمراد بالنكاح هنا «العقد، وبالمسّ: الدخول بهنّ». (٣٩)

أي تخلية من غير ضرار. كما قرّر في قوله تعالى: **﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً﴾**[البقرة:٢٣١].

ثم بيّن القرآن الكريم عدد التطليقات الممكنة فقال:

﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾[البقرة:٢٢٩].

وتتضمن الآية أيضاً «تخيير الأزواج بعد أن علمهم كيف يطلقوهنّ بين أن يمسكوا النساء بحسن المعاشرة والقيام بحقهنّ الواجب عليهنّ وبين أن يسرّحوهنّ السراح الجميل الذي علّمهم». (٤٠)

ولم يكتف القرآن بذلك التدخل الواسع والتفصيلي، في هذا الميدان، بل بيّن أيضاً انواع انحلال عقد الزواج، فقد يتمّ الانحلال والفرقة بغير الطلاق، كما اصطلح عليه الفقهاء مثلاً بالخلع والمبارات.

قال تعالى: **﴿لا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً إلا أن يخافا الا يقيما حدود الله فإن خفتم الاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فاولئك هم الظالمون﴾**[البقرة:٢٢٩].

وهناك ما اصطلح عليه بالظهار: وهو

كما لو أقدم الإنسان على عدم مراعاة الحدود الشرعية وسمّى الأشياء بغير أسمائها كمن قال لزوجته «أنت عليّ كظهر أمي» [٤١] واليه الإشارة في قوله تعالى: **﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾** [المجادلة:٢]. فهذا قول منكر وباطل في نظر القرآن الكريم، ولذا حرّم القرآن الزوجة هنا على الزوج مالم يقدّم الكفّارة أي الغرامة.[٤٢]

وهناك نوع آخر من انحلال الزواج يُسمى بالإيلاء كمن حلف أن لايقرب زوجته قال تعالى: **﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر فإن فاؤوا فإنَّ الله غفور رحيم ... وإن عزموا الطلاق فإنَّ الله سميع عليم﴾** [البقرة:٢٢٧].

ثم هناك الخيانة الزوجية وهي موجبة للإفتراق، وأخيراً الارتداد وإليه الإشارة في قوله تعالى: **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾**[الممتحنة:١٠].

أما إذا انحلَّ الزواج بالموت فتنشأ هنا التزامات وحقوق من نوع آخر، فتجب على المرأة عدة المتوفى عنها زوجها واليه أشارت الآية المباركة **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفُسهِنَّ أربعةَ أشهُرٍ وعشراً﴾** [البقرة:٢٣٤].

ثم ذكرت الآيات المباركة أنّه **﴿فإذا بلغنَ أجلَهُنَّ فلا جُناحَ عليكم فيما فعلنَ في أنفُسهنَّ بالمعروف﴾** [البقرة:٢٣٤].

أي «إذا انقضت عدّتهن، فلا مانع من التعرض للخطبة، والخطاب بالتزويج بالوجه الذي لاينكر شرعاً» (٤٣)

وإذا حصل الموت فهنا يتمُّ التوارث، وتوزع التركة وفق الموازين والأنصبة والأسهم التي تكفلت بها منظومة المواريث كما اشارت الآية المباركة: **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثُر نصيباً مفروضاً﴾**[النساء:٧]. فالميراث أمر قهري لايحق لأحد تعديله أو إلغاؤه . . . **﴿وللذكر مثل حظّ الأُنثيين﴾**[النساء:١١].

لقد توسعنا نسبياً في ايراد أكثر الاحكام المتعلقة بالاسرة فيما يتصل (بالقواعد الملزمة) غالباً في مجال الحقوق والواجبات. ويحقُّ لنا أن نتساءل قبل أن ننهي البحث في هذا المطلب عن السر في تدخُل القرآن تدخلاً واسعاً وتفصيلياً ، في نطاق الأسرة، كما اتّضح لدينا من العرض السريع للآيات السابقة. ونحن نرى في هذا الصدد أنَّ حرص القرآن الكريم على الإهتمام بهذه الوحدة الإجتماعية المصغّرة، وتشريع الأحكام في كل أمر يتصل بها إنما

هو بهدف أن تكون أحسن واكمل وأحكم ضبطاً وتنظيماً، ليتحقق الاستقرار والانضباط في أجوائها، حتى إذا اتصل الفرد بالمجتمع، وتمَّ التعامل بأي صورة ونحو، من أنحاء التعامل، فإنَّه سيجري وفق المقررات والقواعد واللوائح التي وضعها (الشارع المقدّس)، فلا يجد الإنسان كلفة زائدة، ولا يتبرم عندما يطلب منه أن يخضع للقواعد القانونية، في نطاق التعامل الاجتماعي، بلحاظ أن التنشئة الاجتماعية التي تمت في نطاق الأسرة كانت قد رَسَّخت احترام القانون والخضوع (لقواعده الآمرة). وهذا ضابط آخر يساعد على عدم حصول المنازعات والمخاصمات.

وهناك ملحظ آخر:

إنَّ القرآن الكريم في سعة تدخله بوضع (اللوائح القانونية) أعني التفصيلات الوافية، في نطاق الأسرة، أخذ بضرورة وضع الاحتياطات المناسبة والضرورية، في عدم ترك العلاقات، بين أفراد الأسرة الواحدة، عرضة للأجتهاد، فالأحكام هنا يجب أن تكون قطعية واضحة ومحددة، كما لاحظناه في مسائل الطلاق ومسائل الإرث مثلاً، وأخذ الاحتياطات هنا بلحاظ أن المجتمع قد ينفلت من الخضوع للقواعد والأحكام التي أرادها الشرع، إذا كان فيها مجال للإجتهاد والتأويل، وكما وقع ويقع مثلاً، في نطاق التعامل التجاري والمالي، إلا أن ذلك قد لايؤدي الى خراب شامل، لان المجتمع حينئذٍ قد يتعارف ويتواضع على أساليب واصول في التعامل وإن كانت غير مشروعة في نظر الشرع. وهذا أمرٌ لايؤدي الى انفراط عقد المجتمع، ولا الى فوضى (الحقوق والواجبات)، وهو ربما يمكن تلافيه واصلاحه بينما لو قدر أن يحدث مثل هذا في نطاق الأسرة أعني الانفلات لأدّى ذلك الى الإنهيار الشامل الذي لا اصلاح بعده، ولا استدراك لما يمكن أن ينشأ من جرائه. ومن هنا نلاحظ تكرار مثل قوله تعالى: **﴿تلك حدود اللّه فلا تعتدوها﴾**[البقرة:٢٢٩]. ونحو ذلك.

وبناءً على ذلك فنحن نعتبر أكثر أحكام الأسرة جاءت تفصيلية في القرآن الكريم.ولذلك لانتفق مع الدكتور الزرقا في قوله: «إنَّ قليلاً من الأحكام تناولتها ـ أي الشريعة ـ [٤٥] بالتفصيل، ويذكر أحكام المواريث وبعض العقوبات فقط، دون الإشارة الى أحكام الأسرة.

المطلب الثالث: الحقوق الخاصة والحقوق العامة

يهدف القرآن الكريم، في عملية تقنين

المجتمع، الى ضبط الفعاليات الاجتماعية المتنوعة، سواء في نطاق التعامل المالي أو غيره، ويرمي أول ما يرمي الى الحيلولة دون نشوء حالة النزاع والخصومة، وذلك با قرار الحقوق والواجبات، كما يستفاد مثلاً من قوله تعالى **﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن﴾**[البقرة: ٢٢٨] إذا أعطينا صفة التعميم لهذه القاعدة. بقاعدة نفي الضرر[٤٦]، بمعنى أنه ـ أي القرآن ـ في الوقت الذي يقر للانسان حقاً يفرض عليه واجباً فالانسان في ممارساته لحقه في التصرف الشرعي مثلاً يلزم أن لا يُلحق بالغير ضررا، وهذا ما يستفاد مثلاً من قوله تعالى **﴿وأشهدوا إذا تبايعتم ولايضارّ كاتب ولا شهيد﴾**[البقرة:٢٨٢]. وقوله تعالى: **﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً﴾**[البقرة: ٢٣١]، وقوله تعالى: **﴿من بعد وصيةٍ يوصي بها أو دين غير مُضار﴾**[النساء:١٢]، وقوله تعالى: **﴿لاتضارّ والدةٌ بولدها ولا مولود له بولده﴾**[البقرة: ٢٣٣].

ومع كل ذلك فإن وقوع النزاع والتخاصم أمرٌ لا مفرّ منه، ولذا اتّجه القرآن، في هذا الصدد، الى وضع لائحة النظام القضائي، كما سنشير اليه في محله.

اننا هنا ـ وكما أشرنا ـ سنتكلم على الحقوق الخاصّة والعامة، وفق الهيكلية القانونية، وسنكتفي هنا بذكر المبدأ القانوني، وايراد الآية التي تصرّح به أو تشير اليه. لأنَّ غايتنا هنا هو رسم أبعاد النظرية القرآنية لا الدخول في التفاصيل. وسنلتزم بما نبّه عليه الدكتور الزرقا من الهيكلية المذكورة، لتتكون لدينا صورة كلية، عن تقنين المجتمع في القرآن الكريم. لقد ذكر الدكتور الزرقا[٤٧] أنَّ النظام القانوني في الشريعة تضمن قواعد وأحكاماً أساسية في كلا الميدانين، ميدان الحقوق الخاصة بنوعيها المدني والجنائي، وميدان الحقوق العامة بنوعيها الداخلي والخارجي أي الدستوري والاداري والمالي والدولي. وعليه سنعرض أولاً لميدان الحقوق الخاصة.

أولاً: الحقوق الخاصة

استوفينا الحديث في حقوق الاسرة في المطلب السابق، وهي تدخل ضمن هذا القسم أصلا، وقد أفردناها بالبحث لأكثر من اعتبار نوهنّا عنه. أما هنا فسنتحدث عن الحقوق المدنية أولاً ثم الحقوق الجنائية ـ كما اصطلح عليها ـ

١ـ الحقوق المدنية:

أـ الالتزامات:

أ: اعتبر القرآن كلَّ فعل ضارٌ بالغير موجباً لمسؤولية الفاعل أو المتسبب بالتعويض عن الضرر[٤٨] ولو كان عن خطأ:

قال تعالى: ﴿**ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة وديّة مسلّمة إلى أهله**﴾[النساء:٩٢].

وإذا كان عن عمدٍ وقصد فقد أوجب العقوبة قال تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**﴾ [البقرة:١٧٩]. وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى**﴾[البقرة:١٧٨].

وهناك التزامات تنشأ بارادة الفرد كالوصية مثلا كما أشار القرآن ﴿**إن ترك خيراً الوصية**﴾[البقرة:١٨٠].

ب ـ في العقود: أقرّ القرآن في العقود الاسس الآتية:

أولاً: العقد المشروع ملزم لعاقده دون غيره، كما إنَّ اقرار الشخص لا يسري إلاّ على نفسه [٤٩] قال تعالى: ﴿**أوفوا بالعقود**﴾[المائدة:١].

ثانياً: الشروط العقدية ملزمة للعاقدين[٥٠] إلاّ ما يخالف النظام العام والآداب. واليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهد**﴾[الإسراء:٣٤]. وإنما يلزم الوفاء بالعقد وبالشرط إذا لم تخالف اصول الشريعة ومبادئها استناداً الى قوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾[النساء:٢٩].

ثالثاً: العقود كلها رضائية [٥١] أي انها تنعقد بالتراضي، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم**﴾[النساء:٢٨].

رابعاً: الإلتزام بحسن النيّة في العقد. ويقصد به خلوه من الغبن والغش والتغرير والتدليس ونحو ذلك [٥٢]. وهذه الأمور يعتبرها الشرع اكلاً للمال بالباطل، وقد جاء قوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾[النساء:٢٩].

٢ـ الحقوق الجنائية:

أ ـ كل فعل ممنوع يعتبر ارتكابه جريمة، وكل جريمة لها عقوبة قال تعالى: ﴿**ولا تعتدوا إنَّ الله لايحب المعتدين**﴾[البقرة:١٩٠].

وقال تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾[البقرة:١٩٤].

وقال تعالى: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها**﴾[الشورى:٤٠].

ب ـ حددت الشريعة في القرآن الكريم جرائم معينة أوجبت عليها نوعاً من العقوبة. وقد اطلق على هذه الجرائم جرائم الحدود، وهي:

ـ حد الزنا ﴿**والزانية والزاني فاجلدوا**

كلُّ واحدٍ منهما مائة جلدة﴾ [النور:٢].

ـ ثم حد السرقة **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾** [المائدة:٣٨].

ـ ثم جـريمـة قطع الطـريـق والسلب وحدّها القتل قال تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يحـاربـون الله ورسـولـه ويسعـون في الأرض فساداً أن يقتّلوا...﴾** [المائدة:٣٣].

ـ ثم جريمة القذف أي رمي المحصنات بالزنا ونحوه: قال تعالى: **﴿والذين يرمون المحصنات ثـم لم يأتـوا بأربعة شهـداء فاجلـدوهم ثمـانين جلدة ولا تقبلـوا لهم شهادةً أبداً﴾** [البقرة:١٧٩].

إلا أن القـرآن هنـا أجـاز العفـو لـولي الدم(٥٣) قال تعالى: **﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾** [البقرة:١٧٨].

وقال تعـالى: **﴿وجزاء سيئـة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فاجره على الله إنَّ الله لا يحبُّ الظالمين﴾** [الشورى:٤٠].

وقد يكـون من المناسب أن نـورد هنا جملة مـن المبادئ والقواعـد القانونيـة في اطار القانون الجنائي، ومنها:

١ـ لاعقوبة إلا بنصٍ خاص أو عام. قال تعالى: **﴿ومـا كنّا معـذبين حتـى نبعث رسولاً﴾** [الإسراء:١٥].

٢ـ العقوبة على الجاني فقط مباشراً أو متسبباً قال تعالى: **﴿ولا تـزر وازرة وزر أُخرى﴾** [الإسراء:١٥]، [الانعام:١٦٤].

٣ـ مبـدأ المعاملة بالمثل يعتبـر ساري المفعول **﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾**.

٤ـ جواز الأخذ بمبـدأ العفو في جريمة القتل بالنسبة لولي الدم. **﴿فمن عفي له من أخيه شيٌ﴾** [البقرة:١٧٨].

ثانياً: قسم الحقوق العامة

١ـ الحقوق الدستورية:

أقرّت الشـريعة والقـرآن الكريم ثـلاثة مبادئ أساسية هي:

أ ـ الحريّة التامة للناس دون اخلال بالنظام العام والآداب أو التجاوز على حدود حرّية الغير، وفي هذا الصدد نجد:

ـ قوله تعالى: **﴿لا اكراه في الـدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾** [البقرة:٢٥٦].

وقولـه تعالى: **﴿افانت تكـره النـاس حتى يكونوا مؤمنين﴾** [يونس:٩٩].

وقوله تعالى: **﴿ولا تعثـوا في الأرض مفسدين﴾** [البقرة:٦٠].

ب ـ المساواة أمام القانون، فلا امتياز لنسب ولا لطبقة(٥٤) من الناس، قال تعالى: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: **﴿خلقكم من نفس واحدةٍ**

...﴾.

ج ـــ قيام الحكم على أساس الشورى: ونعني به اعطاء الأمة دور الحكم (٥٥) أو الرقابة والاشراف (٥٦).

قال تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[الشورى:٣٨].

وقال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾[آل عمران١٥٩].

٢ـ الناحية الإدارية:

وقد أشار القرآن الكريم أنَّ لولي الأمر في الدولة صلاحيات ادارية تنفيذية وأنَّ في يده جميع السلطان. (٥٧)

قال تعالى: ﴿وأطعيوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء:٥٩].

٣ـ في الناحية المالية العامة:

حدد القرآن أن الأموال في واقعها هي للأمة، وإنما الحاكم له النيابة فيها. (٥٨)

واليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد:٧].

وقال تعالى: ﴿فإنَّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين...﴾ [الانفال:٤١].

أما في مجال الحقوق الخارجية أي في نطاق العلاقات مع المجتمعات الأخرى فقد أقرَّ القرآن المبادئ والقواعد الآتية:

١ـ الشعوب متساوية في الحقوق الأنسانية:

قال تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[الحجرات:١٣].

٢ـ المعاملة يجب أن تقوم على أساس العدل:

قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين أن تبروهم وتقسطوا اليهم﴾

وقال تعالى: ﴿لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[المائدة:٨].

٣ـ المعاهدات محترمة بين الأمم والدول وهي ملزمة:

وقال تعالى: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾[الرعد:٢٠].

وقال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئولا﴾[الإسراء:٣٤].

وقد ذكر العلامة الطباطبائي أنَّ الوفاء بالعهد يشمل الفردي والإجتماعي. (٥٩)

٤ـ المعاملة بالمثل جائزة، ولايجوز المحاربة بدون انذار:

قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[البقرة:١٨٨].

وقال تعالى: ﴿ولا تعتــدوا إنَّ الله لا يحبّ المعتدين﴾.

وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ [البقرة:٨٤].

والى هنا نكون قد بينّـا الملامح العامة للنظريـة القرآنية، في تقنيـن المجتمع، على سبيل الاختصار. ويشفع لنا في هذا الإيجاز أننا إنمـا نريد أن نـرسم صورة كليـة. وقد اكتفينا بهذا القدر، ونعتقـد أنَّ فيه كفاية إن شاء الله.

والحمد لله ربّ العالمين

* * *

● الهوامش:

(١) نهج البلاغة:الخطبة ٦٠:١٨ ـ ٦١. ضبط الدكتور صبحي الصالح.

(٢) السيوطي؛ الاتقان في علوم القرآن ١٩٦:٤.

(٣) الشهيد الامام الصدر (رض)؛ منابع القدوة في الدولة الإسلامية: ١٧ـ١٨(طبعة طهران، مؤسسة بعثت).

(٤) الدكتور مصطفى الزرقا؛ المدخل الفقهي العام ٣٢:١.

(٥) ابن أبي الحديد المعتزلي؛ راجع الخطبة في نهج البلاغة:٩٣:٤،٧٨.

(٦) العلامة الحجة عبدالله الجوادي الأملي؛ خمس رسائل: ٧ ـ ٨: (مؤسسة النشر الاسلامي: قم ١٤٠٤هـ).

(٧) فخر الدين الطريحي؛ مجمع البحرين ١: ٢٧٦ باب الألف أوله طاء، وراجع الكشاف للزمخشري ٥٢٥:١.

(٨) الحــر العــاملي؛ وســائل الشيعـــة ١٨:١٨(طبعة طهران،١٤٠١هـ).

(٩) الطبرسي؛ مجمع البيان ١٥:١ من المقدمة (دار احياء التراث العربي، ط١٤١٢،١هـ).

(١٠)نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٨:ضبط الدكتور الصالح.

(١١) الخطبة رقم ١٥٨: المصدر السابق.

(١٢) العلامـة السيد محمود الهـاشمي؛ مصدر التشـريع ونظام الحكم:٤٢(مطابع نمونه، قم، ١٤٠٨هـ).

(١٣) راجع مسنـد الإمـام أحمد بـن حنبل٣:١ (طبعـة دار صادر، في قصة تبليغ سورة براءة) وراجع الكشاف للزمخشري ٢٤٢:٢، والروايـة في صحيح التـرمذي ٥٩٤:٥.

(١٤) الشيخ منصور ناصف؛ التاج الجـامع للأصول من أحاديث الـرسول(ص)٣٢٥:٢ (طبعـة مصـــورة، باموق، اسطنبول).

(١٥) نهج البلاغة:خطبة رقم ٢١٠. ضبط الدكتور الصالح. وراجع بحار الانوار للمجلسي ٩٩:٩٢(طبعة طهران).

(١٦) السيـوطـي؛ نقلـه فـي الإتقـان ٤: ٢٢٤ (الطبعـة المحققة).

(١٧) حلية الأولياء ٦٨:١(طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥).

(١٨) الإتقان:السابق، وراجع طبقات ابن سعد ٣٣٨:٢ (دار الكتب العلمية، بيروت).

(١٩) السيد الهاشمي؛ مصدر التشريع:٧٠.

(٢٠) الدكتور عبدالمنعم فرج الصدّة؛ مبادئ القانون:٦ (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٧).

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) الزمخشري؛ الكشاف:١: ٢٣٢(طبعة دار الكتاب العربي، بيروت،ط٣، ١٩٨٧).

(٢٣) راجع هداية العبادللمرجع الديني السيد محمدرضا الگلپايگاني:١: ٢٥٢.

(٢٤) الصدّة؛ مبادئ القانون:٧.

(٢٥) الشهيد الصدر؛ لمحة فقهية تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية في ايران:١٤.

(٢٦) العلامة السيد محمود الهاشمي؛ مصدر التشريع:٧٠.

(٢٧) الدكتور الزرقا؛ المدخل الفقهي العام:١: ٣٤، راجع الميزان:٤: ١٠٩.

(٢٨) المصدر السابق.

(٢٩) الصدّة؛ مبادئ القانون: ٢٤.

(٣٠) الميزان:٥: ٢٠و١٧: ٨٨ـ ٩١.

(٣١) الأردبيلي؛ زبدة البيان: ٦٠٧.

(٣٢) المصدر نفسه: ٥٢٢ـ ٥٢٣.

(٣٣) الصدّة؛ مبادئ القانون :٥٤.

(٣٤) زبدة البيان: ٥١٠.

(٣٥) المصدر السابق.

(٣٦) الزمخشري؛ الكشاف٣: ٤٩٤.

(٣٧) زبدة البيان:٥٩١.

(٣٨) السابق:٥٨٨.

(٣٩) المصدر السابق:٥٩٧.

(٤٠) المصدر السابق. ٦٠٠.

(٤١) المصدر السابق: ٦٠٥.

(٤٢) المصدر السابق: ٦١٠.

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) الشيخ الجوادي الأملي؛ خمس رسائل:٢٠٤.

(٤٥) المدخل الفقهي العام ١: ٣٢.

(٤٦) راجع في حاكمية قاعدة الضرر:رسائل الشيخ الانصاري٢٩٦(الطبعة القديمة، وجداني، قم).

(٤٧) الزرقا؛ المدخل الفقهي ١:ص٣٤.

(٤٨) المصدر السابق ١: ٤١.

(٤٩) المصدر السابق ١: ٤٢.

(٥٠) الأردبيلي؛ زبدة البيان:٦٢٤، راجع الميزان للعلامة الطباطبائي ٥: ١٠٨.

(٥١) الأردبيلي؛ زبدة البيان:٦٢٤.

(٥٢) المدخل الفقهي: المصدر السابق.

(٥٣) زبدة البيان:٦٦٧.

(٥٤) السيد الهاشمي؛ مصدر التشريع:٩٠.

(٥٥)و(٥٦) المصدر السابق:١٠٣، وراجع في تفصيل المسألة.

الامام الراحل الخميني(رض)؛ الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه. الشهيد الصدر؛بحث حول الولاية:ولمحة فقهية.

السيدمحمد باقر الحكيم؛ الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق. أساس الحكومة الإسلامية للسيد كاظم الحائري.

(٥٧) المصادر السابقة.

(٥٨) الشهيد الصدر؛ راجع خطوط تفصيلية عن اقتصاد المجتمع الإسلامي:١١.

(٥٩) راجع الميزان:٥: ١٥٨ـ ١٥٩، ١٦٠ـ ١٦١.

* * *

أضواء حول نظريّة الدولة في القرآن

الاستاذهاشم الموسوي

تقديم:

منذ أقدم العصور عرف الانسان السياسة ومارسها في حياته ومجتمعه، فقد حدثنا القرآن عن صراع الانبياء والطواغيت، وحدد في مساحة الصراع البشري خطين متناقضين، واتجاهين متعاكسين، هما خط الانبياء واتجاههم الالهي في الحياة... وخط الطواغيت واتجاههم الجاهلي، على هذه الارض: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين**﴾ فقد كان هذا الصراع يمثل، في بعض جوانبه، أبرز مظاهر السياسة والعمل السياسي.. ذلك لأن هذا الصراع كان يدور حول مشكلة قيادة الانسان والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وتحديد منهج حياته على هذه الارض... وهذان الأساسان هما جوهر القضية السياسية، ومحور نشاطها، والقرآن الكريم لم يستعمل كلمة (سياسة) كاسم للنشاط الاجتماعي المتعارف عليه، ممّا يتعلّق برعاية شؤون الامة وممارسة السلطة فيها، بل استعمل كلمة (امامة) و(خلافة) و(ولاية) و(ولي امر) و(مُلك) و(مَلك)، و(حكم) و(وزير)، للدلالة على مفهوم السلطة والسياسة، وادارة شؤون الامة، والحكم والقضاء.

كما استعمل اسماء اخرى، للدلالة على الزعامة السياسية أيضاً مثل (طاغوت) و(عزيز مصر) و(سادتنا) و(كبراءنا).

ولقد احتلت هذه المسألة جانبا كبيرا من تاريخ الانسان ومشكلته الحياتية، ذلك لأن القضية السياسية هي قضية يمتد تأثيرها، ليشمل كل انسان يعيش في هذا العالم، فهي قضية تتعلق بحياة كل فرد من أفراد الجماعة البشرية، وتمسها بالصميم، خصوصا بعد ما طرأ على هذا العالم من

تطور وتعقيد، وتشابك في العلاقات الانسانية... إذ لم يعد بوسع أحد من الناس أن يكون في منأى عن تبعات السياسة والحياة السياسية، كما انه ليس بوسع أحد ان يستغني، أو يعيش بعيدا عن مجال الحياة السياسية، فيما تقدمه له من خير ومنفعة.

ومما يلفت النظر أن الدراسات السياسية والتاريخية العلمانية (اللادينية) قد أهملت، عن عمد، الدور السياسي والتاريخي للانبياء والرسالات الالهية، بشكل عام، الاّ ما فرض نفسه على التاريخ والفكر السياسي، لذا وددنا التنبيه على هذه الحقيقة العلمية والتاريخية، نظراً لما لها من أهميّة بالغة، ودور فعّال في تفكير الانسان السياسي ومصيره التاريخي على هذه الارض، ولقد جعل القرآن السياسة وقيادة الانسان جزءا من رسالته وأهدافها الاصلاحية في الحياة، فقد كان رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم نبيّاً مبلّغاً عن الله سبحانه، وإماماً حاكماً؛ لذا فقد أقام الدولة الأسلامية، وأسّسها في المدينة، من حين وصوله المبارك اليها، ومارس مهمة القيادة والامامة والحكم بين الناس... وهدف هذا الموضوع هو البحث في منهج الحكم والسياسة في الاسلام، ومحاولة المساهمة في التعريف بنظرية القرآن السياسية.

ان من المشاكل الأساسية، التي يواجهها الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية، هي سيطرة الفكر السياسي الجاهلي بمدارسه الرأسمالية والاشتراكية، على الحياة السياسية، والفكر، والثقافة في الجامعات والمؤسسات والأحزاب السياسية غير الاسلامية، في بلاد المسلمين.. وغياب الفكر السياسي الاسلامي ونظريته السياسية.

تعريف السياسة: ان كلمة (السياسة)، كغيرها من الكلمات، ذات الدلالة العلمية والفنية المستعملة على ألسن العلماء والكتاب والمفكرين وغيرهم، فهي تحمل معنيين اثنين: معنى لغويا، ومعنى اصطلاحيا.

فكلمة سياسة تعني، في المدلول اللغوي «القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة فعل السائس، يقال هو يسوس الدّواب اذا قام عليها وراضها»[1].

يسوس يتعهد الشيء بما يصلحه، سواء أكان آدميا، أو دابة، «أسوسه أي اقوم عليه»[2].

«وساس زيد سياسة، امر وقام بأمر»[3].

واذن فمعنى كلمة سياسة، في اللغة، تأتي مرادفة؛ للترويض والتدريب على

وضع معين: والتربية والتوجيه، واصدار أمر، والعناية والرعاية، والاشراف على الشيء، والاهتمام به، والقيام عليه.

وهي مستفادة من عمل السائس، أو مدرّب الخيل ومروّضها.

وعند انعام النظر في ما تعنيه كلمة (سياسة)، في اللغة العربية، نستطيع ان نفهم المعنى الاصطلاحي المستعمل، في الاطار الاسلامي، وعند الفقهاء والمتكلّمين والباحثين الاسلاميين.

قال الفقيه اللغوي الشيخ فخر الدين الطريحي في «مجمع البحرين»: «وفي وصف الائمة عليهم السّلام انتم ساسة العباد» وفيه: «الامام عارف بالسياسة» وفيه: «ثم فوض الى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أمر الدين والأمة ليسوس عباده».

كل ذلك من سستُ الرعية سياسة أمرتها ونهيتها، وفي الخبر: «كان بنو اسرائيل يسوسهم انبياؤهم».

وروي عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام انّه قال واصفاً رسول الله صّلى الله عليه وآله وسلّم «ان رسول الله كان مُسدَّداً موفَّقاً، مؤيَّداً بروح القُدُس، لا يزلُّ ولا يُخطىء في شيء ممّا يسوس به الخلق أي يتولى امرهم، كالامراء والولاة، بالرعيّة من السياسة، وهو القيام على الشيء بما يصلحه.

مفهوم السياسة في القرآن:

باستقراء ومتابعة كلمة السياسة، والراعي، والرعية، والامام، والسلطان، والحكم، وولي الأمر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والشورى.. الخ الواردة في النصوص والدراسات الاسلاميّة الصريحة.. أو النصوص والمجالات ذات العلاقة سنعرف أن مفهوم السياسة، في المدرسة الاسلامية، قريب من معناه اللغوي... فكلمة (سياسة) تطلق (على كل عمل يتعلّق برعاية الأمة وتدبير شؤونها)، وهي من الواجبات الكفائية، في الاسلام، التي كلفت الامة الاسلامية ابتداءً بكاملها بالقيام بهذه المهمّة.. فان تصدّت فئة، أو تصدى فرد لهذه المهمة، وقام باعبائها على النحو المطلوب، سقط هذا التكليف عن الباقين، وتحوّل العمل السياسي الى حق يتمتع به كل مؤهل لممارسته.. وان لم ينهض أحد بهذه المهمه، وعُطِّل الجانب السياسي الاسلامي، في الامة، فان الامة بأسرها مسؤولة عن ذلك، إلاّ مَنْ أدّى واجبه، ولم يستطع النهوض بهذه المهمة.

ويوضّح القرآن هذه الحقيقة بعموم خطابه للأمة، وتوجيه الأمر اليها بأداء

وتنفيذ المهام السياسية، مثل قوله تعالى:

﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ١٧٩]، **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾** [المائدة: ٣٨].

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في دين الله﴾ [النور: ٢].

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافةً﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ٤].

وهكذا يأتي الخطاب في مجالات القضاء والسياسة الخارجية والجهاد، التي هي من أبرز المهام السياسية للدولة، موجهة للامة بعمومها. ممّا يوجب على الأمه اقامة السلطة السياسية، كمقدمة لتنفيذ هذه الواجبات وأمثالها من المهام التي لا تنفّذ إلاّ بوجود سلطة سياسية.

اذن فالعمل السياسي وممارسة المهام السياسية هي واجب، وحق، بشكل ترتيبي، وهذه الحقيقة التشريعية تكشف لنا جانبا، من مفهوم السياسة، والعمل السياسي، فالحكومة مسؤولة عن رعاية شؤون الامة.

والامة مسؤولة عن رعاية شؤونها، ومن رعاية شؤونها، اقامة السلطة السياسية، ومراقبتها، ومحاسبتها، واداء النصح والمشورة اليها، وتحديد الموقف عند الانحراف والخروج على الخط الاسلامي.. ذلك لان السلطة السياسية هي أحدى ادوات الامة للقيام بمهامها السياسية.

وهكذا نفهم ان معنى السياسة ليس هو (الكفاح من أجل السلطة والصراع عليها) وليس معناها محصورا في «فن الحكم المجرد»، و«ليس هي اداة تسلط طبقي، ولا هي «فن الوصولية»، كما تذهب بعض المدارس العلمانيّة الى ذلك.

ويشترك في هذا الواجب ابتداء الامة الاسلامية بأجمعها، ثم تتركز المهمة «بالسلطة السياسية» مع بقاء مسؤولية الامة السياسية قائمة، من خلال واجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح، والمشورة، والرقابة، والمعارضة، عندما تشذ السلطة عن الخط المنهجي للسياسة الاسلامية.

وواضح ان الرعاية والاهتمام بشؤون الأمة ومصالحها، يدخل فيها فن الحكم، ونشاطات السلطة، ونشاطات الامة السياسية، بما فيها الكفاح والثورة، ضد

الحاكم الظالم.

وهكذا يتسع مفهوم السياسة في الاسلام، ليشمل «كل ما من شأنه ان يرعى شؤون الامة ومصالحها».

وبعبارة اخرى ان السياسة: «عمل تقوم به الامة وجهاز السلطة فيها، من اجل تحقيق الاهداف الاساسية للرسالة الاسلامية» التي شخّصها الفقهاء بـ«جلب المصالح ودرء المفاسد».

وهكذا يتسع هذا المفهوم، ليشمل كل عمل ونشاط تمارسه الحكومة، أو يقوم به الأفراد والجماعات والمنظمات والاحزاب، القائمة على أساس الاسلام، (لجلب المصالح ودرء المفاسد) كتحقيق الامن، والدفاع الخارجي، والقضاء، وتقديم الخدمات التعليمية، والطبية، وتقويم السلطة، وتحقيق العدل، وازاحة الظلم، وحماية الفكر الاسلامي، واستقامة السلوك، وتوجيه الاقتصاد، وفن ادارة السياسة الخارجية، وامثال ذلك، ممّا يدور في دائرة الرعاية والعناية بشؤون الامة، والحفاظ على مصالحها ودرء المفاسد عنها..

ويلاحظ هذا الشمول والاتساع، في مفهوم السياسة، واضحاً في التطور الذي حصل في الدساتير وموضاعاتها التي تعتني بعلاجها.. فقد أصبحت الدساتير، على اختلاف مذاهبها السياسية، وثيقة تحوي الأسس العامة، لتنظيم الحياة وتوجيهها وتطورها، بشتى مجالاتها وابواب نشاطها.

ولقد تحدث القرآن عن السياسة والحكم، في موارد كثيرة من اياته، تحت عنوان الامامة، والخلافة، والولاية، والحكم.. فجعلها أمانة بيد الحاكم، وضرورة عقيدية، لهداية الانسان، واصلاح الحياة البشرية، لتحقيق العدل، وتطبيق القانون والنظام، الذي يحفظ ارادة الحق، والعدل، والخير، في هذا الوجود، ارادة الله سبحانه، وفيما يلي نقرأ مجموعة، من هذه النصوص، التي تعطينا صورة واضحة، لمفهوم السياسة في القرآن.

قال تعالى مخاطباً النبي داود عليه السّلام:

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب•وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين امنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين

كالفجار﴾[ص: ٢٦ـ٢٨].

﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾[يونس: ١٤].

﴿واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، ﴿ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا﴾، ﴿يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم﴾، ﴿فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تاويلا﴾ [النساء: ٥٨ـ٥٩].

﴿وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين﴾ [المائدة: ٤٢].

﴿إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿وان احكم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾[المائدة: ٤٩].

﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿قال اني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾.

﴿تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين..﴾.

﴿الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور﴾ [الحج: ٥١].

﴿ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك يخزي القوم المجرمين﴾[يونس: ١٣].

﴿وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيل﴾.

﴿أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع أمَّن لا يهدي..﴾.

﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد..﴾.

﴿الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ٤].

﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم يهتدون﴾ [التوبة: ١٢].

﴿وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾.

وتتحدث النصوص الواردة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والائمه الهداة عن مفهوم السياسة والحكم، والمسؤولية السياسية والعمل السياسي في الاسلام.

فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قوله «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على اهل بيته، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٤].

وروي عنه قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من لم يهتم بامور المسلمين فليس منهم».

وروي عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من ولي من أمر المسليمن شيئاً فولّىّ رجلا وهو يجد منْ هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[٥].

«ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم، الاّ حرّم الله عليه الجنّة»[٦].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم «إنا لا نولّي أمرنا هذا من طلبه»[٧].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة الاّ لم يجد رائحة الجنة».

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم لأبي ذر الغفاري في الامارة: «وانها أمانة، وانها يوم القيامة خزي وندامة، إلاّ من أخذها بحقها، وادى الذي عليه فيها»[٨].

وروى البخاري في صحيحه قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اذا ضُيّعت الأمانة، فانتظِروا الساعة، قيل يا رسول الله وما اضاعتها؟ قال اذا وُسِّد الأمر الى غير أهله، فانتظروا الساعة»[٩].

وروي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قوله: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[١٠].

وروي عن الامام علي عليه السّلام ان رسول الله قال: «من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرام الله ناكثا عهده، مخالفا لسنة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله ان يدخله مدخله»[١١].

وروي عن الامام الحسين بن علي بن

ابي طـالب عليه السّـلام قولـه عندمـا أعلن الثورة على حكومة يزيد بن معاوية، ورفض بيعته: «لم اخرج اشـرا، ولا بطرا ولا مفسدا، ولا ظالما، ولكن خـرجت لطلب الاصلاح في امتي جدي رسول الله لآمر بالمعروف وانهى عن المنكر»[١٢].

وروي عن رسـول الله صلّـى الله عليـه وآله وسلّـم قوله: «سيـد الشهداء حمـزة بن عبـد المطلب، ورجـل قـام الى إمـام جـائر فأمره، ونهاه فقتله»[١٣].

وروي عنـه قولـه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم: «ان الله لَيـزع بـالسلطـان ما لا يـزع بالقرآن».

وكتب الامام علي عليه السّلام الى مالك الاشتـر، واليه على مصـر، كتـابا يبيّن فيـه منهـج العمـل السيـاسـي، وادارة شـؤون الدولـة، وتثبيت أسس الحقوق والـواجبات، وسلوك الحاكم وعلاقته بـالأمة ومسؤولياته نقتطف منه: «واشعـر قلبك الرحمة للـرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبُعا ضـاريا، فانهم صنفان، إمـا اخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق..»[١٤].

«.. فـانك فـوقهم، ووالـي الامـر عليك فـوقك، والله فوق مـن ولاك، وقد استكفـاك امرهـم وابتلاك بهم..»[١٥].

«انصف الله وانصف الناس من نفسك، ومن خـاصـة اهلك، ومن لك بـه هـوى من رعيتك، فانك الا تفعل تظلـم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده..»[١٦].

«وليكن أحب الامـور اليك اوسطهـا في الحق، وأعمهـا في العدل، واجمعها لـرضى الرعية»[١٧].

وهكذا نفهـم ان معنى السياسيـة، في الاسـلام، هـو أعـمّ مـن فن الحكـم وإدارة اجهزة الـدولة، والمعارضة المشـروعة، من قبل الامه للسلطـة المنحرفة والظـالمة.. الخ واعـم مـن أن يكـون الحكـم مـوضـوعـا للسيـاسة.. بـل الانسان ومـا حـولـه، بكل نشاطـاته وحـاجاتـه، ضمن دائرة الحـاكم والمحكوم، هو محور السياسة وموضوعها.

النصوص الاسـلامية، التي أوردنـاها انّما توضح لنا معنى السياسة في الاسلام، ذلك لأنها تشمـل ادارة جهاز الدولـة، وقيام الحاكم بـواجبه المحدد له، تجـاه المحكوم، وفسح المجال أمامه ليمـارس حقه، وموقف المحكـوم من الحـاكـم الملتزم والمتجـاوز، وعـلاقة الـدولة بغيـرهـا من الـدول، وتلك بمجموعها تشكل مفهوم السياسة.

فالسياسة فـي الاسلام تعني كل هذه المعاني مجتمعة:

إدارة شؤون الحكـم، وتربيـة الانسان على القيم والمبادىء الاسـلامية، كما تعني

المعارضة ومقاومة الحاكم الظالم، وتقديم الخدمات، واعمار البلاد وتطويرها، وتوجيه شؤون الاقتصاد وترشيدها، وحفظ اموال الامة وانمائها، كما تعني الانتصار للمظلوم، والوقوف بوجه الظالم، في علاقة يدخل فيها الحاكم والمحكوم، وتعني القيام بمهمة القضاء، والدفاع، وحماية الامن، وتمثيل الحاكم للامة، والنيابة عنها، وحفظ حقوقها الادبية والانسانية.. الخ.

وهكذا يتضح لنا ان كلمة سياسة، في الفهم الاسلامي، تشكل وعاء لفظيا يحوي كل هذه المعاني وأمثالها...

وبذا يتّضح ان الفهم الاسلامي للسياسة يختلف عن الفهم الميكافلي والماركسي والراسمالي وأمثالها، من المفاهيم المذهبية السياسية.

وقد عُرِّفت السياسة، في الفكر السياسي الاسلامي، بأنها «رعاية شؤون الأمة» كما يمكننا أيضاً أن نعرّف السياسة من وجهة النظر الاسلامية تعريفاً اخر بأنها: «كل عمل اجتماعي يستهدف توجيه الحياة الانسانية توجيها تكامليا، ضمن علاقة الحاكم والمحكوم».

ولذلك نستعمل مصطلحات السياسة المالية، والسياسة العسكرية، والسياسة التربوية، والسياسة الاعلامية.. الخ.

ولا يكون النشاط الانساني نشاطا سياسيا، بمفهومه الاصطلاحي، الاّ اذا كانت السلطة تشكّل احد محاوره، كفن ادارة الحكم، أو معارضة السلطة، أو القيام بمهام القضاء، أو تدبير شؤون العلاقات الخارجية بين الأمة الاسلامية والامم الاخرى، وكتوجيه التربية والتعليم والأوضاع الاقتصادية في البلاد، من قبل السلطة... الخ

نشأة الدولة والمجتمع السياسي:

والدولة، كما نعرف، هي أرقى صيغة، من صيغ التنظيم السياسي، في المجتمع البشري، وأعظم مؤسساته الاجتماعية كلها.

ولقد تطور مفهوم الدولة ومسؤولياتها، وعلاقة الافراد والجماعات بها، تطوراً كبيراً، مع تطور العلوم، والمعارف، والتكنولوجيا، ووسائل الحياة المدنية وتعقيداتها.

فهي بالاضافة الى كونها الجهة الوحيدة المخولة بامتلاك القوة، ولها السلطة والسيادة، فانها تؤثر في طبيعة الحياة الاقتصادية، انتاجا واستهلاكا وتوزيعا، كما تؤثر في مستوى وحجم الخدمات المدنية، والاوضاع الاجتماعية، والفكرية، والسلوكية للافراد والجماعات، ذلك لأنها تملك القدرة،

على التدخل في الحياة الاقتصادية والخدمية، وهي التي تقرر نوع التربية، والاعلام، والثقافة، ومستوى التصنيع، والتطور في المجتمع.

وبذا أصبحت الدولة القوة القائدة والموجهة للافراد والجماعات، والمُنظِّمة لحياتهم السياسية، والاقتصادية، والمدنية، والمُصمِّمة لنمط التفكير، وطبيعة الشخصية، بما تتبناه، من ايديولوجيه سياسية، في شتى الحقول والميادين، وبما تملكه من قدرة تفوق قدرات الافراد، والجماعات، والمنظمات، والمؤسسات الاخرى، وبما لديها من سلطة وسيادة.

ويرى الشهيد الصدر: «ان الدولة ظاهرة اجتماعية أصيلة في حياة الانسان، وقد نشأت هذه الظاهرة على يد الأنبياء، ورسالات السماءِ، واتخذت صيغتها السويّه ومارست دورها السليم في قيادة المجتمع الانساني وتوجيهه، من خلال ما حققه الانبياء، في هذا المجال، قال تعالى: **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾**[البقرة: ٢١٣].

ونلاحظ، من خلال هذا النص، ان الناس كانوا امة واحدة، في مرحلة تسودها الفطرة، ويوّحد بينها تصورات بدائية للحياة، وهموم محددة، وحاجات بسيطة، ثم نمت، من خلال الممارسة الاجتماعية للحياة، المواهب والقابليات، وبرزت الامكانات المتفاوتة، واتسعت افاق النظر، وتنوعت التطلعات، وتعقدت الحاجات فنشأ الاختلاف، وبدأ التناقض بين القوي والضعيف، وأصبحت الحياة الاجتماعية بحاجة الى موازين تحدد الحق، وتجسّد العدل، وتضمن استمرار وحدة الناس، في إطار سليم، وتصب كل تلك القابليات والامكانات التي نمَّتها التجربة الاجتماعية، في محور ايجابي، يعود على الجميع بالخير والرخاء والاستقرار بدلاً من ان يكون مصدرا للتناقض، وأساسا للصراع والاستغلال، وفي هذه المرحلة ظهرت فكرة الدولة، على يد الانبياء، وقام الانبياء بدورهم، في بناء الدولة السليمة، ووضع الله تعالى للدولة أسسها وقواعدها، كما لا حظنا في الاية الكريمة المتقدمة الذكر.

وظل الانبياء يواصلون، بشكل واخر، دورهم العظيم في بناء الدولة الصالحة، وقد

تولّى عدد كبير منهم الاشراف المباشر على الدولة كداوود وسليمان وغيرهما، وقضى بعض الانبياء كل حياته، وهو يسعى في هذا السبيل، كما في حالة موسى عليه السّلام، واستطاع خاتم الانبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم ان يتوّج جهود سلفه الطاهر باقامة انظف وأطهر دولة في التاريخ، شكلت بحق منعطفا عظيما في تاريخ الانسان، وجسّدت مبادىء الدولة الصالحة تجسيدا كاملا ورائع[(١٨)]، ولقد تقدّم الباحثون والمفكرون السياسيون من روّاد الفكر العلماني بنظريّات تفسر نشوء الدولة وهي:

١ـ النظرية العقدية.

٢ـ نظرية القوة.

٣ـ نظرية التطور العائلي.

٤ـ نظرية العامل الاقتصادي.

٥ـ نظرية التطور التاريخي.

وقد علق الفقيه الشهيد السيّد محمد باقر الصدر على هذه النظريات بقوله: «فمن ناحية تكوُّن الدولة ونشوئها تاريخيا نرفض اسلاميا نظرية القوة والتغلب، ونظرية التفويض الالهي للجبارين، ونظرية العقد الاجتماعي، ونظرية تطور الدولة عن العائلة ونؤمن بان الدولة ظاهرة نبوية، وهي تصعيد للعمل النبوي، بدأت في مرحلة معيّنة من حياة البشرية».

ويتطابق رأي الشهيد الصدر مع ما عَرَضَهُ العلامة الفقيه الراحل السيّد محمد حسين الطباطبائي ـ صاحب تفسير الميزان ـ من تحليل نشأة المجتمع السياسي، وقيام السلطة والدولة، في المجتمع البشري، من الآية الكريمة ذاتها.

فقد كتب العلامة الطباطبائي موضحا حديث القرآن، عن المجتمع الفطري، وتفسيره لنشأة المجتمع السياسي، من خلال تحليله للآية الكريمة **﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الاّ الذين أوتوه بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾** [البقرة: ٢١٣].

﴿وما كان الناس الاّ امة واحدة فاختلفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ [يونس: ١٩].

ولكي يتضح لنا الرأي الاسلامي فلنتابع تفسير العلامة السيد الطباطبائي، ودراسته وتحليله للفطرة البشرية، ولنشأة المجتمع السياسي..

ولقد مرَّ علينا ان الفلاسفة والكتاب

السياسيين غير الاسلاميين، بمختلف مدارسهم، يرون ان الانسان مرَّ بمرحلتين في حياته، على هذه الارض هما:

١ـ مرحلة الحياة الطبيعية والفطرية.

٢ ـ مرحلة الجماعة السياسية، أي التي انتقل اليها الانسان فيما بعد.

ويختلف الرأي الاسلامي، في بعض جوانبه، مع هذا التحليل للمجتمع الانساني والحياة الفطرية، فان الدراسات الاسلامية ترى، كما سيتضح لنا، ان المجتمع البشري قد مر بثلاثة مراحل، اعتمادا على دلالة الاية (٢١٣)، من سورة البقرة، وهذه المراحل هي:

١ ـ مرحلة الوحده والوئام: وهي على ما يستشف، من ايحاء الاية الكريمة، كانت حياه حرية وسلام ووئام، ووفاق وتوجيه فطري خيّر **﴿كان الناس امه واحدة﴾**.

٢ ـ مرحلة الاختلاف والصراع: وهي المرحلة الثانية التي عاشتها البشريه، بعد المرحلة الاولى، وهذا ما يوضحه القرآن الكريم بقوله: **﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾**، ولقد كانت تلك الوضعية وضعية شريرة، كمرحلة الغاب والوحوش، سادها النزاع والصراع والعدوان والاختلاف.. يتغلّب فيها القوي على الضعيف ويتسلط عليه.. ويبدو من سير التفسير، وايحاءات الاية ان الانسان قد عرف نوعا من السلطة والاستبداد في هذه المرحلة.

٣ ـ مرحلة وجود القانون والنظام الالهي (مرحلة بعثة الانبياء): ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ وهي مرحلة القانون، ومحاولة ايجاد العدل الاجتماعي، التي استهدفت رفع الخلاف وحالة العدوان والصراع.

وبذا يتضح لدينا الفارق، بين تحليل ودراسات الفريقين، من الكتاب والمفكرين غير الاسلاميين أمثال: (روسو ولوك وهوبس وبوسيه) ورأيهم في الحياة البدائية للانسان القائل بانها حياة خيِّرة أو شريرة، ثم الانتقال الى المرحلة السياسيّة، يتضح الفارق، بين ذلك الراي، وبين الرأي الاسلامي، الذي يرى ان المرحلة الاولى مرحلة خيِّرة، وبذا يتفق مع روسو ولوك، بينما كانت المرحلة الثانية مرحلة شريرة، ولم يتحدث عن هذه المرحلة أيٌّ من الفريقين.

ولقد اوضح العلامة الطباطبائي الرأي الاسلامي بقوله: «الآية تبيّن السبب، في تشريع اصل الدِّين، وتكليف النوع الانساني

بـه، وسبب وقوع الاختـلاف فيه ببيـان ان الانسان ـــ وهو نوع مفطـور على الاجتماع والتعاون ـ كان في أول اجتماعه امة واحدة، ثم ظهـر فيه بحسـب الفطرة الاختـلاف في اقتناء المزايا الحيوية، فاستدعى ذلك وضع قـوانيـن، تــرفع الاختــلافـات الطــارئة، والمشــاجرات فــي لوازم الحيــاة، فــالبست القـوانين الـوضعية لبـاس الدِّيـن، وشُفِّعت بـالتبشيـر، والانـذار بـالثـواب والعقـاب، وأُصلحت بـالعبادات المنـدوبة اليهـا ببعث النبيين وارسـال المرسليـن، ثم اختل بـذلك امـر الـوحـدة الدينيـة، وظهـرت الشعـوب والأحزاب، وتبع ذلك الاختلاف في غيره ولم يكن هـذا الاختلاف الثـاني بغيـا من الـذين اوتوا الكتـاب، ظلما وعتواً فهم بعـد ما تبيّن لهم اصوله ومعارفه وتمت عليهم الحجة.

فالاختلاف اختلافان: اختلاف في امر الدِّين مستند الى بغي الباغين، دون فطرتهم وغريزتهم.

واختلاف في أمر الـدنيا، وهو فطري، وسبب لتشريع الدين، ثـم هدى الله سبحانه المؤمنين الى الحق..»[19].

ثم قـال: «وكيـف كان فظـاهـر الآيـة: ﴿كـان النـاس امـة واحـدة فبعـث الله النبيين..﴾ يدل علـى ان هذا النوع، قـد مرَّ عليهم في حياتهم زمان، كـانوا على الاتحاد والاتفـاق، وعلى السـذاجـة والبسـاطـة، لا اختلاف في المذاهـب والآراء... والدليل على نفي الاختـلاف قولـه تعـالى: ﴿فبعث الله النبيين مبشـرين ومنذرين وأنـزل معهم الكتـاب بالحق ليحكـم بين الناس فيمـا اختلفوا فيه﴾، ثم قال الانسان الاولي الذي لا يوجـد عنده الاّ النـزر القليل من المعـرفة بشؤون الحياة، وحـدود العيش كأنَّهم ليس عندهم الا البـديهات، ويسير من النظـريات الفكـريـة، التي تهيـىء لهم وسـائل البقـاء بأبسط ما يكون، كالتغذي بالنبات، أو شيء من الصيـد، والايـواء الى الكهـف، والدفـاع بالحجارة والاخشاب، ونحو ذلك، فهذا حال الانسان في أقدم عصوره..

ومن المعلوم ان قوما حالهم هذا الحال، لا يظهـر فيهم الاختـلاف ظهـوراً يُعتَّد بـه، ويبدو فيهم الفساد بدوا مؤثرا، كالقطيع من الغنم، هَمُّ أفـراده الاهتداء لبعض مـا اهتدى اليـه بعـض اخــر، والتجمع فــي المسكـن والمعلف والمشرب»[20].

ثم قال: «وقـد تبيَّن من الاية ثـانيا، ان الدِّيـن أوّل ما ظهر، ظهـر رافعا لـلاختلاف النـاشيء عـن الفطـرة، ثم استكمـل رافعـا للاختلاف الفطري، وغير الفطري معا.

وخـامسـاً: السبـب في بعـث الانبيـاء وانـزال الكتب، وبعبـارة اخـرى العلَّـة فــي

الدعوة الدينية، هو ان الانسان بحسب طبعه وفطرته سار نحو الاختلاف، كما انَّه سالك نحو الاجتماع المدني، واذا كانت الفطرة هي الهادية الى الاختلاف، لم تتمكن من رفع الاختلاف، وكيف يدفع شيء يجذبه اليه نفسه، فرفع الله سبحانه هذا الاختلاف بالنُبوَّة والتشريع بهداية النوع الى كماله اللائق بحالهم، المصلح لشأنهم..»[21].

«ومن هذا يظهر انّ هذه اعني تأدية الفطرة الى الاجتماع المدني من جهة، والى الاختلاف من جهة اخرى، وعنايته تعالى بالهداية الى تمام الخلقة مبدأ حجة على وجود النبوة، وبعبارة اخرى دليل النبوة العام.

تقريره ان النوع الانساني مستخدم بالطبع، وهذا الاستخدام الفطري يؤديه الى الاجتماع المدني، والى الاختلاف والفساد في جميع شؤون حياته، اذ يقضي التكوين والايجاد برفعه.

ولا يرتفع الاّ بقوانين تصلح الحياة الاجتماعية برفع الاختلاف عنها بهداية الانسان وكماله وسعادته بأحد أمرين، اما بفطرته، واما بأمر وراءه، لكنَّ الفطرة غير كافية، فانها هي المؤدية الى الاختلاف، فكيف ترفعها؟ فوجب أن يكون بهداية من غير طريق الفطرة والطبيعة، وهو التفهيم الالهي غير الطبيعي المسمى بالنبوّة والوحي..

فلا الانسان انصرف، في حين من احيان حياته، عن حكم الاستخدام، ولا استخدامه لم يؤد الى الاجتماع، وقضى بحياه فردية، ولا اجتماعه خلا عن الاختلاف، ولا الاختلاف ارتفع بغير قوانين اجتماعية، ولا ان فطرته وعقله، الذي يعدّه عقلا سليما قدرت على وضع قوانين تقطع منابت الاختلاف، وتقلع مادة الفساد..»[22].

وبعد أن وضح لدينا تفسير الاية المباركة، التي تحدثت عن طبيعة الانسان البدائي، واوضاعه الفطرية والغريزية، وما طرأ عليه من تحولات، فلنقرأ ما ورد عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السّلام، من بيان وتعريف بالمجتمع الفطري الأول.. قال عليه السّلام: «كان الناس قبل نوح امة واحدة، على فطرة الله، لا مهتدين، ولا ضالّين، فبعث الله النبيين»[23].

وهكذا تحدد لنا هذه النصوص والدراسة التفصيلية:

١ــ ان المجتمع الانساني الاول كان مجتمعا فطريا طبيعيا تسيِّره قوانين الفطرة والغريزة الانسانية، كحياة الطير والطفل «... على فطرة الله لا مهتدين ولا ضالّين...».

٢ــ ان الانسان يحمل في تكوينه الذاتي

غريزة حب الاجتماع «فهو كائن اجتماعي هو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون».

٣ـ ان هذا المجتمع كان يسوده الوئام والاتحاد بعيدا عن الصراع والنزاع، يجد الانسان في ارجاء الطبيعة ما يحتاجه، في حياته الساذجة البسيطة، ﴿كان الناس امة واحدة﴾.

٤ـ ان غريزة حب الذات، والاتجاه في تسخير الاشياء الطبيعية والانسان والحيوان لصالحه، جعلت من الانسان كيانا يحمل الاستعداد للاختلاف والنزاع والسيطرة على الاخرين. «كان في اول اجتماعه امة واحدة ثم ظهر فيه بحسب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايا الحيوية».

٥ـ بعد ذلك نشأت مرحلة الصراع على الحاجات المادية، فصارت حياة المجتمع الانساني حياة شرّيرة، لا تطاق ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

وهكذا نصل الى فهم المراحل الثلاث:

١ـ مرحلة الفطرة (الحياه الغريزية) الوحدة والوئام.

٢ـ مرحلة الصراع والاختلاف على المكاسب المادية.

٣ـ مرحلة بعثة الانبياء، لحل مشاكل الصراع وهداية الانسان، والاختلاف الفكري والعقيدي ﴿وما اختلف فيه الاّ الذين أوتوه بغيا بينهم﴾.

تعريف الدولة:

تعني كلمة دولة في اللغة العربية: «الاستيلاء والغلبة والشيء المتداول»[٢٤].

واذا كان هذا هو تعريف الدولة اللغوي، فان كتّاب الفكر السياسي ورجال القانون الوضعي قد عرّفوا الدولة بتعاريف عديدة، قدّرها بعض الباحثين بمائة وخمسة وأربعين تعريفا.

ويختلف تعريف الدولة من كاتب ومفكر الى كاتب ومفكر اخر، وفق فهمه ونظريته، في السياسة والقانون، وفلسفته الفكرية العامة وقد تفاوت هذا الفهم والتعريف، بين اعتبار الدولة تعبيرا عن الأحساس الأخلاقي، وبين كونها اداة قهر وارتباط واستغلال وخداع للمحكومين، كما يوضّح بعض الكتّاب ذلك.

ومن المفيد ان نورد بعضا من تعاريف الدولة هذه بغض النظر عن فنيتها وسلامتها المنطقية، من تلك التعاريف ما ورد في المعجم الوسيط فقد عرّف الدولة بأنها: «مجموع كبير من الأفراد يقطن بصفة دائمة اقليما معينا، ويتمتع بالشخصية المعنوية، وبنظام حكومي، وبالاستقلال السياسي».

ونقل الدكتور ثروت بدوي في كتابه: «النظم السياسية» تعريفا للدولة بقوله: «ويُعرِّف بعض رجال الفقه الدولة بانها تشخيص قانوني للامة»[٢٥].

وعرفها الدكتور محمود حلمي بقوله: «فالدولة، كما رأينا، مجموعة من أفراد مستقرة على اقليم معيّن، وتسيطر عليهم هيأة حاكمة، تتولى شؤونهم في الداخل والخارج»[٢٦].

وبذا نعرِّف الدولة تارة، بأنها تشخيص قانوني للأمة، وتارة بأنها عبارة عن الأمة المستقرة، في اقليم معين، والخاضعة لهيأة حاكمة.

ومن قراءة النصوص القرآنية التي تحدثت عن الأمامة، والسلطة، والشريعة، والعهود، والمواثيق، وولاية الأمر، والامارة، والمُلْكيّة، وصلاحيات الحاكم.. نستطيع ان نثبت للدولة شخصية اعتبارية «شخصية معنوية».

ونعرّفها بأنها كيان سياسي، ذات شخصية اعتبارية، يتعامل معها القانون، كجهة صالحة، لتحمّل الواجبات، واكتساب الحقوق.

وتأسيساً على ما يستفاد، من مفاهيم القرآن، التي حملتها نصوص الموضوعات المشار اليها آنفاً، نستطيع أن نعرّف الدولة بأنها: «عبارة عن الكيان السياسي المتشخص في المجموع البشري، المقيم في اقليم محدد ترعى شؤونهم سُلطة على اساس قانون معيّن.

عناصر الدولة:

بعد ان تشخّص أمامنا تعريف الدولة، المعبّر عن اراء ونظريات مختلفة، واستطعنا أن نصوغ تعريفا نرى مناسبته للفهم الاسلامي، وتعبيره عنه، وعرفنا ان الدولة كيان يتألف من عدة عناصر وذو شخصية معنوية، نحاول الآن دراسة وتحليل العناصر، التي تتكون منها الدولة، وينتج عن وجودها وائتلافها هذا الكيان السياسي، الذي نسميه (دولة)، وتترتب على وجوده اثار قانونية كثيرة، في الداخل والخارج، لعل من أبرزها، في عالمنا المعاصر، هو الأعتراف الدولي بهذا الكيان، والتعامل معه كجهة ممثلة للامة، وكعضو في الهيأة الدولية، له حقوق، وعليه واجبات والتزامات دولية.

وتذهب الغالبية العظمى، من رجال الفقه والسياسة غير الاسلاميين، الى ان الدولة تتألف من ثلاثة عناصر هي:

١ـ الاقليم.

٢ـ الشعب.

٣ـ السلطة.

وسبق وان أشرنا، الى ان عناصر الدولة، من وجهة النظر الاسلامية، كما نفهمها، هي:

١ـ الشعب (الأمة).

٢ ـ الجهاز الحاكم الذي يملك الولاية (السيادة).

٣ـ (السيادة، أو الولاية).

٤ـ القانون.

أما الاقليم فهو شرط في اقامة الدولة، وليس ركنا من أركانها، ولا يدخل في بنية الدولة، وانشاء كيانها الذاتي.

ولعلنا نستطيع أن ننتزع فكرة عناصر الدولة، من تحليل العلامة الفيلسوف الفقيه المفسر السيّد محمد حسين الطباطبائي، والفقيه الفيلسوف المفكر الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليهما من تحليلهما للآية الكريمة (٢١٣) من سورة البقرة فالاية وما استفيد منها، من تحليل قد عرضناه آنفا، تفيد أن الدولة والمجتمع السياسي قد نشأ، على يد الانبياء، وبذا فهي تحمل المفاهيم السياسية الآتية:

١ ـ ان الناس قد كانوا امة واحدة ـ جماعة متوافقة، تعيش في وئام وسلام، تسيّر حياتها الفطرة.

٢ ـ فحدث النزاع والصراع، نتيجة لتعارض المصالح الذاتية، مع مصالح الجماعة.

٣ـ فارسل الله النبيين.

٤ـ انزل معهم الكتاب بالحق.

٥ ـ ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وهكذا تفاعلت العناصر الأربعة فكونت الدولة، وظهرت ككيان سياسي في المجتمع البشري، رغم البساطة والبدائية، في بنيتها وأجهزتها.

والعناصر الأربعة كما تفيد الاية هي:

١ـ الناس: (الامة أو الشعب).

٢ ـ السلطة التي كلفت بالحكم، بين الناس، فيما اختلفوا فيه: وهم النبيون في الاية الكريمة، في بداية النشأة، أي الجهاز الحاكم في المجتمع.

وقد افاض الباحثون، في شؤون العقيدة، والامامة، والنبوة، في بحث الامامة والصلاحيات المناطة بها، وأوضحوا ان النبي محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم يحمل شخصيتين، بالاضافة الى شخصه الطبيعي، يحمل شخصيّة النبوة، كمبلّغ عن الله سبحانه بواسطة الملك.

وشخصية الامامة، وتعني القيادة السياسية والولاية، نكتشف ذلك بوضوح من سيرة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم

العمليـة، ومن قـول الله عـزوجـل **﴿يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى باذنه وسراجا منيراً﴾**.

وقوله: **﴿النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم﴾** [الاحزاب: ٦].

وقوله: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾** [النساء: ٦٥].

وقوله: **﴿وما كان لمؤمن ومؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾** [الاحزاب: ٣٦].

٣ـ القانون: فقد أشارت الآية الكريمة ان الكتاب الذي جاء به النبيّون، والذي يحمل الحق، هو الأساس لتنظيم المجتمع، وحلّ الخلافات الفكرية والاقتصادية والاجتماعيّة، ولولاه لما استطاع النبيّون أن يحكموا المجتمع، ويحلّوا خلافاته، ذلك لأن القانون يمثل قوة عليا خارجة عن خلاف الجماعة وتنازعها، والاّ لكان جزءاً من مشكلة الخلاف التي تحتاج الى حل.

٤ـ السلطة: (السيادة أو الولاية): فقد أُعطي النبيون صلاحية الحكم بين الناس، على اساس الحق والعدل ـ القانون ـ كما صرحت الآية بذلك.

وهكذا نشأ المجتمع السياسي ببدائيته الأولى، وتكوّنت الدولة، وظهرت للوجود، على يد الانبياء عليهم السّلام كما صرّح الشهيد الصدر بذلك: «ان الدولة ظاهرة اجتماعية أصيلة في حياة الانسان، وقد نشأت هذه الظاهرة، على يد الانبياء ورسالات السماء».

وواضح أن كل ذلك كان قد جرى على أرض واقليم، وفي أُناس مستقرين، فكان وجود الاقليم «الأرض التي يقطنها الناس» شرطا في قيام هذا المجتمع السياسي، ونشوء الدولة وممارستها للسيادة.

واذا كان نشوء الدولة قد تحقق، على يد الأنبياء عليهم السّلام كوجود اجتماعي، يعبّر عن قيم الخير، ويسعى لأقامة الحق والعدل، فان وجود هذا الكيان الذي أنشأه الأنبياء عليهم السّلام يعبر عن قيمة اخلاقية، ويجسد اللطف الالهي في حياة الانسان، فمهمّة الانبياء التي ارتبطت بالحكم والسلطة ـ كما تصرّح الاية ـ هي حل التناقض بين مصالح الفرد والجماعة، واقامة الحق والاصلاح، وهداية الانسان.

وبذا يتضح مفهوم الدولة والسلطة، في رسالات الانبياء، وفي مفهوم الرسالة الاسلامية، التي اعتبرت الحكم والسياسة

والامامة جزءا من تكوينها، وجسدت ذلك تجسيداً عمليا بسيرة نبيها الكريم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي أسس الدولة الاسلامية، في المدينة المنورة، عند وصوله اليها. واتخذها قاعدة للانطلاق والدعوة، واداة لتجسيد قيم الدعوة وشريعتها تجسيداً عمليا في الحياة.

وهكذا نفهم ان الدولة ليست اداة قهر واستغلال وتسلط، بل هي وفق المفهوم الاسلامي ظاهرة اخلاقية في حياة الانسان، تعبّر عن لطف الله بعباده، وتسعى لحل مشاكل البشرية، واقامة الحق والعدل وهداية الانسان.فانحرف الانسان بهذا الكيان: الذي أُريد له أن يكون أداة للخير والهداية، وحل مشاكل الانسان.. انحرف به الطواغيت الى الظلم والطغيان، فتحوّل بأيديهم الى أداة قهر واستغلال، وتسلط وجريمة.

الدولة والشخصيّة الاعتبارية:

تقسم الدراسات الفقهية الوضعية الشخصية على قسمين هما:

١ ــ الشخص الطبيعي: ويقصد به الانسان المفرد، ويكتسب الانسان الشخصية من حين انعقاد نطفته، وحتى مماته.

٢ ـ الشخصية الاعتبارية أو الشخصية المعنوية.

عرّف الدكتور أنور سلطان الشخصية الطبيعية والمعنوية بقوله: «يقصد بالشخص في سائر علوم الاجتماع ــ عدا القانون ـ الانسان.

ففي مفهوم القانون الشخص:

هو كل كائن ثبت له صلاحية اكتساب الحقوق والتحمل بالواجبات، وعلى النحو ينصرف مدلول اصطلاح الشخص والشخصية، الى الانسان وهذا هو الشخص الطبيعي، أو الى مجموعة من الأفراد، أو مجموعة من الأموال تتوافر لها الشخصية القانونية، وهذا هو الشخص المعنوي أو الاعتباري، كالدولة، أو الشركة، أو الجمعية»[٢٧].

«ثم قسّمت الدراسات الفقهية الشخص المعنوي على قسمين هما:

١ ــ الاشخاص المعنوية الخاصة: وتخضع لأحكام القانون الخاص، مثل مجموعات الاموال ومجموعات الاشخاص.

٢ ــ الاشخاص المعنوية العامة: وتخضع لأحكام القانون العام، وفي طليعه الأشخاص المعنوية العامة نجد الدولة، فالدولة شخص معنوي، بل هي اقدم

الأشخاص المعنوية، وهي تكتسب شخصيتها من اعتراف(*) الدول بها».

وقد عرفنا، من خلال قراءتنا للتعاريف المختلفة للدولة، المعبّرة عن آراء عديدة لرجال الفقه والسياسة غير الاسلاميين، أنّ بعض هؤلاء المفكرين يرى ان للدولة شخصية اعتبارية، وكيانا معنويا مستقلا عن عناصرها المادية المكونة لها، في حين ينكر فريق آخر أمثال الفقيه الفرنسي «ديجي»، وكثير من فقهاء القانون الوضعي، وجود شخصية معنوية للدولة: «فذهب الفقيه الفرنسي ديجي الى انكار فكرة السيادة، ووجود الدولة كشخص معنوي، ويرى المجتمع عبارة عن طبقة حاكمة وطبقة محكومة»(٢٨).

أمّا دراسات الفقه السياسي الاسلامي فيفهم منها الأعتراف بوجود شخصية اعتبارية للدولة، مستقلة عن شخصية الأمة وسلطتها السياسية.

ونجد ذلك واضحاً في الفقه السياسي الاسلامي، من خلال دراسة الامامة، كمنصب وموقع لها حقوق وصلاحيات وواجبات واستحقاقات مالية، ولذلك أيضاً ملّك الدولة كجهة، وكوجود اعتباري ولولا هذا الاعتراف بالشخصية القانونية للدولة لما ملّكتها الشريعة الاسلامية، وقد جاء هذا التشخيص واضحاً في ملكيّة الأنفال التي نص عليها القرآن جعلها حقاً للرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم باعتباره رئيساً للدولة. قال تعالى: **﴿يسالونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسولِ﴾** وقد حكم الفقهاء برجوع ملكية الانفال الى منصب الامامة، باعتبار الامام الرمز الأعلى والممثل للدولة، ولو كانت ملكا لشخص الرسول الطبيعي، لما انتقلت ملكيتها للامام، والى الذي يلي شؤون الدولة، من بعده، وعلى هذا الاساس عرَّف الفقيه المرجع الديني الشهيد الصدر (رض) ملكية الدولة بقوله: «هي ملكية النبي أو الامام بأعتباره منصبا، وينوب عنهما الحاكم الشرعي الذي يتمتع بصلاحياتهما القيادية شرعا»(٢٩).

ومن نصوص الآيات الكريمة وايضاح الفقهاء لها، كما تبين لنا، في تعريف الشهيد الصدر، في ملكية الدولة، يتشخص بوضوح وجود الشخصية الاعتبارية للدولة، وكما تتضح شخصية الدولة الاعتبارية من تمليكها كجهة وكيان مستقل عن الأفراد تتضح شخصيتها الاعتبارية كذلك من خلال دراسة العهود والمواثيق الدولية التي تتعامل مع الدولة، كشخصية قانونية، وجهة اعتبارية: لذلك يستمر التزام الأجيال والحكومات بتلك العهود والمواثيق التي لم

تكن موجودة عند توقيعها، وبذا أقرّ الفقه الاسلامي الشخصية الاعتبارية للدولة واعترف لها بشخصية معنوية مستقلة عن أفرادها، ومتجسدة في امتداد المجموع، قال تعالى متحدثا، في ابرام العهود والمواثيق التي ألزم المسلمين بأعتبارهم السياسي الذي تمثّله الدولة كشخصية اعتبارية، بتنفيذها، قال تعالى: **﴿الاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتّموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين﴾** [التوبة:٤].

الدولة الاسلامية دولة قانونية:

مما يميز الدولة الاسلامية، ورقيّ الفكر السياسي الاسلامي أن الدولة القائمة، على أساس الاسلام، هي دولة قانونية، والدولة القانونية تعكس حالة من التحضر السياسي، والرقي الفكري والمدني، في حياة المجتمع الانساني.

وقد اختلف فقهاء القانون الوضعي، ورجال الفكر السياسي في صياغة النظرية المفسِّرة لخضوع الدولة للقانون، وحل مشكلة التعارض بين سيادة الدولة، من جهة، وخضوعها للقانون، من جهة أخرى، وفيما يلي نورد بعض تعاريف الدولة القانونية، ونعرِّف بنظرية خضوعها للقانون، فقد عرَّف «جيركه» أحد رجال القانون السياسي الدولة القانونية بأنها: «الدولة التي تخضع نفسها للقانون، وليست تلك التي تضع نفسها فوق القانون»[٣٠].

وعرَّفها الفقيه الألماني مستال بأنها: «تلك التي تُعيِّن، عن طريق القانون، وسائل مباشرة نشاطها، وحدود تلك النشاطات، كما تحدد مجالات النشاط الفردي الحر»[٣١].

وهكذا تتضح هوية الدولة القانونية بأنّها الدولة التي يحكم القانون نشاط السلطه فيها، كما يحكم نشاط الأفراد، فهي شخصية قانونية تخضع للقانون كما يخضع بقيّة الأشخاص الطبيعيين والقانونيين.

وبما أن أفراد السلطة والجهاز الحاكم، في الدوله الاسلامية، هم عبارة عن جهاز تنفيذ للقانون الصادر، من جهة عليا، هي الله سبحانه حتى عندما يمارسون السيادة وصلاحية الالتزام، فان هذه السيادة مقيدة بقانون صلاحيات الالزام والولاية، وقائمة على اساس الزام الآخرين بتنفيذ القانون الالهي، وان قرارات الولاية والالزام التي تُصدِرها قائمة على أساس (جلب المصالح ودرء المفاسد).

ونستطيع ان نفسّر العلاقة بين سيادة الدولة وخضوعها للقانون، وعدم التناقض بينهما بان الولاية أو السيادة، في الدولة الاسلامية، هي سلطة (صلاحية اصدار القرار الملزم) تُعطى لمن يتولّى مهمه تنفيذ القانون الاسلامي، واجراء مصالح الامة، وليس الدولة هي مصدر القانون.

فالقانون الاسلامي ليس تعبيراً عن ارادة الحاكم، بل هو تعبير عن مبادىء الحق والعدل؛ لذلك فان هذه المبادىء تحكم نشاط الفرد والجماعة المحكومة، كما تحكم نشاط الدولة والجهاز الحاكم، وأفراد السلطة على حد سواء.

والخطابات الالهية التي وردت في القرآن وايضاحات السّنة المطهرة تشرح لنا قانونية الدولة الاسلامية بجلاء كامل، فهذا الرسول الكريم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم يخاطبه رب العزة بأنه شخص خاضع للقانون الالهي قانون الحق والعدل، ومقيَّد به، وليس من حقه أن يتصرف خارج القانون، أو يغيِّره بحكم سلطته فسلطته ونشاطه وسلوكه السياسي، بأعتباره ولي أمرٍ للمسلمين، بالأضافة الى كونه نبيا مبلغا، خاضع لأراده القانون الذي يسمو على ارادة الدولة والأفراد، قال تعالى موضحا هذه الحقيقة **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾**، **﴿وأن احكم بينهم بما أنزلَ الله﴾**، **﴿فان تنازعتم في شيء فَردُّوه الى الله والرسول﴾** وقال: **﴿قُل ما يكونُ لي أن أُبدِّله من تلقاء نفسي إن اتّبع الاّ ما يوحى اليّ﴾**، **﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه..﴾**، **﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون﴾**[المائدة: ٤٥]، **﴿وما ارسلنا من رسول الا ليُطاع بأذن الله﴾**.

وورد عن الرسول الكريم ايضاح وبيان لهذه الحقائق مثل قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٣٢].

«ليس لمستعصٍ يمين».

وترجم الامام الحسين بن علي الثائر على دولة الامويين التي فقدت شرعية سلطتها بخروجها على القانون الاسلامي بقوله: «فلعمري ما الامام الاّ الحاكم القائم بالقسط، الداين بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله»[٣٣].

من ذلك كله نستنتج ان ليس من حق السلطة الحاكمة أن تقرر شيئاً، أو تمارس سلطة، الاّ في حدود ما يلي:

١ ـ تنفيذ القانون الالهي:

٢ ـ اصدار اللوائح القانونية، لتحقيق مصلحة، أو درء مفسدة، ضمن ضوابط القانون الالهي (ضوابط الحق والعدل).

وقد عرَّف الفقهاء الحكم الشرعي بأنه: «التشريع الصادر، من الله تعالى، لتنظيم حياه الانسان»[٣٤].

وعُرِّف بأنَّه: «الاعتبار الشرعي المتعلق بأفعال العباد تعلقا مباشراً، أو غير مباشر»[٣٥].

وقد حلل الفقهاء بنية الحكم، ودرسوا عناصره الأساسية، واثبتوا في تحليلهم ان الحكم مُتقوِّم بثلاثة مبادىء هي:

١ ـ الملاك (مقدار ما في التشريع من مصلحة).

٢ ـ الارادة: ارادة المشرِّع المتعلقة بالملاك، والمشرِّع هو الله سبحانه ـ كما وضح من تعريف الحكم.

٣ ـ الاعتبار: وهو عبارة عن عمل تنظيمي وصياغي لابراز الحكم. من ذلك نفهم ان الدولة في الاسلام لا تملك حق التشريع وانما أُعطيت صلاحيّة ممارسة عملية تشخيص ملاك الحكم، وتحديد درجة الاعتبار (الوجوب، المنع، اقتضاء الحليّة) اعتماداً على تشخيصها للملاك، في المجالات التي لم يرد فيها حكم (قانون محدد) في حدود اختصاصاتها.

كما أُعطيت صلاحية تشخيص العمل بأحد القوانين ذات الطبيعة الاجتماعية المتنازعة، وتقديم الأهم على المهم، وترجيح الراجح، في حال التزاحم، والخوف من ضياع المصالح وحدوث المفاسد.

وينبغي ان نعرف أن القاعدة القانونية لا تكتسب صفتها الالزامية، من سلطة الدولة، بل من كونها صادرة عن الله مباشرة، أو استفادة، ولكونها تحقق مصلحة أو تدرأ مفسدة؛ لذا فان خضوع الدولة للقانون لا ينافي سيادتها، لأنها ليست الجهة المُصدِّرة للقانون، بل هي الجهة المنفذِّة له، أو المشخِّصة للمصلحة الداعية لأصداره، وأن سيادة الدولة الاسلامية، أو الولاية هي عبارة عن سلطة تخوّلها الزام الآخرين بتنفيذ القانون المقرَّر، من سلطة تشريعية عليا تسمو على الدولة والأمة.

واذن فالدولة تخضع للقانون، كما يخضع الأفراد بكامل نشاطاتهم، وهي تخضع للقضاء، كجهة ذات شخصية قانونية، كما يخضع أفراد الجهاز الحاكم ورئيس الدولة، لنفس احكام القضاء التي يخضع لها الأفراد المحكومون.

واذن فتقييد سيادة الدولة بالقانون، وخضوعها له في مجال الادارة والقضاء

واصدار القانون المُخوَّلة باصداره هو من وجهة النظر الاسلامية قائم على اساس ان الدولة تكتسب سيادتها، من مبدأ تنفيذها للقانون الالهي.

وان هذه السيادة جاءت مقيدة بارادة المشرع الممثلة للحق والعدل، والمتعلقة بالمصالح، وهو الله سبحانه ابتداء؛ لذا فهي ولاية مقيدة بقانون.

وقد شرح الشهيد الصدر مصدر السيادة بقوله: «ان الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات جميعا.. وتعني هذه الحقيقة ان الانسان حُر، ولا سيادة لأنسان على آخر أو لطبقة، أو لأي مجموعة بشرية عليه، وانما السيادة لله وحده، وبهذا يوضع حد نهائي لكل ألوان التحكم واشكال الاستغلال، وسيطرة الانسان على الانسان»[٣٦].

ثم يوضِح مبدأ خضوع الدولة الاسلامية للقانون، ويؤكد قانونيتها بقوله. «ومن ناحية شكل الحكومة تعتبر الحكومة قانونية. أي تتقيد بالقانون على أروع وجهة لأن الشريعة تسيطر على الحاكم والمحكوم على السواء»[٣٧].

مسؤوليّة الدولة في القرآن:

يختلف مفهوم المسؤولية السياسية والمهام التي تتحملها الدولة، من نظرية سياسية الى نظرية اخرى، بل ومن عصر الى عصر، فقد تطوَّرت نظرية مسؤولية الدولة، واتسعت دائرتها، في عصرنا الحاضر فشملت مجالات الحياة، بأوسع افاقها.

ولقد كان مفهوم المسؤولية محدوداً بحدود ضيقة لدى النظم والنظريات غير الاسلامية فبعض النظريات التي تفسر قيام الدولة، على اساس العقد بين الحاكم والمحكوم، كانت ترى مسؤولية السلطة محصورة في حماية الحريات والحقوق الطبيعية للانسان.

والنظرية القائمة، على أساس الفهم الاشتراكي، حمّلت الدولة مسؤولية السيطرة على الحياة الاقتصادية، والاستيلاء عليها.

في حين يرى بعض المفكرين السياسين أن المسؤولية الاساسية للدولة تتلخص في (القضاء) وحفظ الأمن الداخلي والدفاع الخارجي وحسب، ولايهمنا ان نخوض كثيرا في مسؤولية الدولة تأريخيا، أو استعراض الفلسفات والنظريات التي فسّرت قيام الدولة، بل نريد ان نعرِّف بمسؤولية الدولة في الاسلام.

وفيما يلي سنورد مجموعة من الآيات التي تحدثت عن مسؤولية الدولة، بعد أن جعل القرآن تلك المهام من مسؤولية الانبياء

أو الأمة ككيان عام أو الملوك الصالحين، أو جزءا من ارادة الله سبحانه.. الخ، فكل ذلك تتحمل الدوله مسؤوليته، ويدخل ضمن مهامها لاسيما في حال عجز الأفراد والجماعات عنها فبالاستقراء المتأمل، في القرآن، يظهر لنا ان القرآن نظام حياة، ومنهج سياسة، وقيادة للبشرية.

ومسؤولية الدولة في القرآن هي مسؤولية السلطة السياسية فيها (أو الجهاز الحاكم).

فقد أوجب الاسلام، على الأمة وجوبا كفائيا، العمل برسالة الله وبناء الحياة السياسية والأجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، والقضاء بين الناس على أساسها، وان مثل هذا العمل الاجتماعي الكبير لا يتم الاّ بوجود سلطة سياسية، وجهاز حاكم.

قال الله تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون﴾.**

﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون﴾.

﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون﴾.

﴿ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل﴾.

﴿ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَرون﴾ [النحل: ٩٠].

﴿والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو انشاكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان رَبِّي قريب مجيب﴾[هود: ٦١].

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ [التوبة: ١٢].

﴿يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[ص: ٢٦].

﴿الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤١].

﴿ويسالونك عن ذي القرنين قل

سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكّنا له في الارض وآتيناه من كل شيءسببا﴾[الكهف: ٨٤].

﴿قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا﴾.

﴿قال ما مكّني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما﴾ [الكهف: ٩٠].

﴿قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

﴿انّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [المائدة: ٣٣].

﴿خذ من اموالهم صدقة وتطهرهم وتزكيهم بها﴾[التوبة: ١٠٣].

﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ٦٠].

﴿.. كي لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم﴾ [الحشر: ٧].

﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾[البقرة: ١٧٩].

وباستقراء هذه المجموعة من الايات والتأمل فيها نستنتج ان مسؤولية الدولة في مشروع القرآن السياسي هي:

١ـ بناء الانسان والعمل على توجيهه، وهدايته وتربيته، باستخدام وسائل التربية والدعوة والاعلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. الخ.

٢ ــ بيان أحكام الشريعة ودعوة البشرية الى الاسلام.

٣ـ بناء الحياة المدنية والاصلاح في الارض، واعمارها وتوفير الخدمات، ووسائل تقدم الأمة، ورقيها العلمي والحضاري، فكل ذلك من الاحسان الذي امر الله به، وحفظ مصالح الامة.

٤ـ القضاء بين الناس بالعدل، باقامة المحاكم وأجهزة القضاء، ووسائل اثبات الحق، وإعادته الى اصحابه.

٥ ــ حفظ الأمن الداخلي ومكافحة الجريمة.

٦ ــ محاربة الطاغوت الفكري والسياسي والعسكري، ونصرة المستضعفين، وحماية الانسان من شروره

وعدوانه.

٧ـ حل مشاكل الانسان الاقتصادية والمعاشية، وتحقيق حالة التوازن الاقتصادي في المجتمع.

٨ـ التدخل في انشطة الفرد والجماعة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، من أجل تحقيق العدل، ورفع تجاوز الفرد على حقوق الجماعة، أو استئثاره بالمكاسب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

هذه هي أبرز مسؤوليات الدولة، في مشروع القرآن السياسي، وهي تمثل أرقى فهم حضاري، لمسؤوليات الدولة وعنايتها بالانسان.

فالقرآن الذي دعا الى الحق والعدل، والاحسان واصلاح الارض، والفكر، والحياة وتطويرها جعل السلطة السياسية اداته، في تنفيذ هذا المنهاج، ودعا الأمة للتعاون مع السلطة، باطاعة أوامرها القائمة على اساس الحق، والعدل، والمعروف فقال: ﴿يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم﴾.

فجهاز السلطة، في دولة القرآن، هو جهاز يملك الولاية ويقوم باداء الخدمات وحماية الحق، والعدل، وحمل الدعوة الى الاسلام، ومكافحة الفساد، والشر، والجريمة، والضلال، وليس جهاز تسلط، واستئثار بالمال والقوة والسلطة.

وخلاصة القول: انه جهاز تنفيذ لمبادىء الحق، والعدل، والمعروف، والاحسان المتمثلة في رسالة القرآن، ولذلك أُعطي حق الطاعة على الأمة ما دام مؤدياً لمسؤولياته في حدود الاستطاعة والامكان أما اذا تحوّل الى جهاز تسلّط واستئثار.. فعندئذ يفقد شرعيته وحقه في الطاعة والولاء.



● الهوامش:

(١) ابن منظور؛ لسان العرب.

(٢) ابن حجر؛ تفسير غريب الحديث: ١٢٧ (دار المعرفة، بيروت).

(٣) فخر الدين الطريحي؛ مجمع البحرين.

(٤) البخاري: صحيح البخاري ٣: ١٩٦.

(٥) رواه الحاكم في صحيحه، نقلاً عن ابن تيمية، في كتابه، السياسة الشرعية: ١٨.

(٦) صحيح البخاري ٩: ٨٠.

(٧) اخرجه مسلم في كتاب الامارة، نقلاً عن المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) أخرجه ابو داود الترمذي.

(١١) ابن الاثير ٣: ٣٥ (ط٥).

(١٢) يراجــع السيد ابن طــاووس: مقتل الامــام الحسين: ١١.

(١٣) مستدرك الحاكم ٢: ١٩٥.

(١٤) ـ (١٧) نهج البلاغة.

(١٨) الشهيد الصدر؛ لمحة فقهيــة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الاسلامية في ايران: ١٠ ـ ١٢.

(١٩) ــ (٢١) الميزان فــي تفسير القــرآن، تفسير الآيــة (٢١٢) من سورة البقرة.

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) الطبرســي؛ مجمع البيان، تفسير الآيــة (٢١٢) من سورة البقرة.

(٢٤) المعجم الوسيط: الجزء الأول.

(٢٥) د. ثروت بدوي؛ «النظم السياسية»: ٥٣.

(٢٦) نظام الحكــم الاسلامي مقارنــاً بالنظم المعــاصرة: ١٢.

(٢٧) المبادىء القــانونية العــامة (لطلبة كليــة التجارة): ٢٠٩.

(*) لا علاقــة للاعتراف الــدولي بتكوّن شخصية الـدولة وظهورها الى الوجود، انّما تتكون شـخصيتها بتوفر العنــاصر المكــوّنــة لهــا، ويأتي الاعتـراف الـدولي كنتيجة لا كتمال شـخصيتها والاقرار بوجود سياسـي متحقق.

(٢٨) د. رمـزي الشــاعـر؛ النظـرية العــامـة للقــانـون الدستوري: ١٩.

(٢٩) الشهيـد الصـدر؛ الاسلام يقـود الحيـاة (خطـوط تفصيلية عن اقتصاد المجتمع الاسلامي): ٢١.

(٣٠) د. ثروت بدوي؛ المرجع السابق: ١٦٩.

(٣١) المصدر السابق.

(٣٢) مسند أحمد بن حنبل ١: ١٣١.

(٣٣) الشيخ المفيد؛ الارشاد: ٢٠٤.

(٣٤) الشهيـد الصدر؛ دروس في علـم اصول الفقـه ٢: ١٣.

(٣٥) محمد تقي الحكيم؛ الاصول العـامة للفقه المقارن: ٥٥ ـ ٥٦.

(٣٦) الشهيد الصدر؛ لمحة فقهية: ٢٠.

(٣٧) المصدر السابق: ٣٥.



الضمان الاجتماعي بين علي (ع) والقرآن

الشيخ محمد علي التسخيري

مقدمه:

ربما كان من نافلة القول الحديث عن أن علياً هو ربيب القرآن والمتشبع به، الى حد التجسيد الكامل.. فكل الدلائل والأقوال والأفعال والصفات تحكي هذه الحقيقة.

فلسنا اذن بصدد بيانها فهي أوضح من الشمس، وانما نريد التركيز على جانب منها، لنخلص منه الى التصور الاسلامي العام فيما يرتبط به.

وهذا الجانب هو موضوع (الضمان الاجتماعي) الذي طرحه القرآن لأول مرة، في تاريخ البشرية، بهذا الشكل المتكامل، ووضحه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وشرحه الامام أمير المؤمنين عليه السّلام، وطبقه في حكومته الفريدة، والتي ظلت البشرية تتحسر على مثيلتها عبر القرون.

واقع المشكلة الاقتصادية:

هذا ولمّا كان الاسلام دين الواقع والفطرة فهو لا يعمل على اغفال الحقائق الخارجية، ومنها حقيقة الانسان وفطرته الا انه يسعى بكل جد للارتفاع بمستوى الواقع الى الشكل الأمثل المطلوب.

وبناءً على هذا نجد الاسلام يلاحظ - في تصوره للوضع الاقتصادي السليم - واقع الانسان ودوافعه، وواقع الساحة التي يعيشها، ومن ثم يخطط لاسعاد المجتمع، في هذا المجال، ضمن تخطيطه العام الأوسع منه.

واذ لم نكن بصدد اعطاء النظرية الاسلامية في هذا الموضوع، فلا اقل من الاشارة الى اطارها العام.

وما نتصوره ان الاسلام حدد المشكلة الأساسية ثم سعى لاعطاء الحل الجذري، وهذه المشكلة يمكن أن تتلخص في أمرين:

الاول: الكفر بالنعم الالهية، وعدم شكرها باستثمارها الاستثمار المطلوب، واهدار الطاقات والمنابع الطبيعية التي سخرها الله تعالى للانسان.

الثاني: الظلم في توزيع الثروة، والاعتداء على حقوق الافراد فيها، والعمل على حجبها عن القيام بدورها الاجتماعي المطلوب.

والقرآن الكريم يؤكد كل حقيقة من هاتين الحقيقتين، في شتى الموارد، وربما جمعها كما في الايات الشريفة، من سورة ابراهيم عليه السّلام حيث يقول:

﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاه وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل ان ياتيهم يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ ﴿الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بامره وسخر لكم الانهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * واتاكم من كل ما سالتموه * وان تعدوا نعمه الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار﴾[1]

والملاحظ في هذا النص القرآني الشريف:

انه يمهّد لطرح المشكلة بذكر العناصر العقائدية (عبودية الله، والايمان بالتوحيد والمعاد والرزق الالهي).. والعناصر السلوكية الايمانية (الصلاة)، وحقيقة التسخير الكوني للانسان ثم ينطلق للحديث عن الاحتياجات الانسانية ككل فيؤكد بان الله تعالى أودع في الطبيعة ما يسدّها بشكل دقيق، إلّا ان الانسان نفسه يبتلى بعنصرى (الظلم والكفر) مما يمنع تحقيق السير الطبيعي للبشرية الى أهدافها المنشودة.

وعلى هذا الغرار يقول أمير المؤمنين متأففاً من زمن لا يزداد الخير فيه الاّ ادباراً ولا الشر فيه الا اقبالاً ولا الشيطان في هلاك الناس الا طمعاً وهي تعابير مختلفه عن المجتمع المنحرف عن خط الاسلام، يقول عليه السّلام:

«اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر الا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو غنياً اتخذ البخل بحق الله وفراً»[2].

انهما الفقر والكفر بعينهما وهما السبب في هلاك المجتمع.

علاج المشكلة:

وعلى هذا فان العلاج الأساس للمشاكل الاقتصادية يكمن في:

١ـ تنمية الانتاج والاستفادة القصوى من النعم الالهية.

٢ـ تحقيق العدالة الاجتماعية والقسط.

وربما كانت آية سورة الحديد أوضح بيان قرآني على هذه الحقيقة اذ يقول تعالى:

﴿لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز﴾[٣].

فالحديد من النعم الالهية، والقسط سبيل العدالة الاجتماعية، والمتقون هم اولئك الذين استفادوا من الطبيعه خير استفادة، وسلكوا طريق التقوى والعدالة بأفضل سلوك يقول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«واعلموا عباد الله ان المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الاخرة فشاركوا اهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركوا اهل الدنيا في آخرتهم سكنوا الدنيا بافضل ما سكنت، واكلوها بافضل ما اكلت فحضوا من الدنيا بما حضي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابح»[٤].

والتجارة في رأية تصب في مصب التنمية فيقول موصياً مالكاً الاشتر «واستوصي بالتجار وذوي الصناعات، وأوصى بهم خيراً، المقيم منهم، والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق»[٥].

مقوّمان للقسط الاسلامي:

واذا كانت فكرة تنمية الانتاج واضحة المعالم، بشكل اجمالي، فان فكرة العدالة الاجتماعية تبقى غامضة لانها تتبع الكثير من التصورات عن واقع الانسان وتركيبه، وعن علاقته بالطبيعة وعن اسلوب تحقيق التوازن في اشباع نوازعه، وعن القيم والمباني العملية المقبولة في حياته وغير ذلك.

الامر الذي يتطلب التفصيل؛ومن هنا نجد الاسلام عندما يطرح دعوته للعدالة الاجتماعية يوضح مقصوده بالتفصيل من خلال مفاهيمه، واحكامه، ونظمه الاقتصادية فالتركيز اذن يتم على خطوط العدالة وان كانت فكرة تنمية الانتاج تنال شيئاً من نصيبها في التوضيح.

فما هي مقومات العدالة الاجتماعية في التصور الاسلامي.

الظاهر من استقراء ابعاد هذا التصور، هو ان العدالة الاجتماعية (من زاويتها الاقتصادية) تتبنى على اساسين رئيسيين

هما:

الاول: التكافل الاقتصادي.

الثاني: التوازن في مستويات المعيشة.

وهما العنصران اللذان شرحهما المرحوم الشهيد الامام الصدر في كتابه القيم (اقتصادنا) وبين ابعادهما بشكل رائع وحصر المقومات بهما والحق معه في هذا الحصر.

اما التكافل الاقتصادي: فهو دعوة القرآن الدائمة في الموارد العديدة، فالانفاق يسير مع الصلاة جنباً الى جنب وكفالة اليتيم والمسكين وذوي الحاجة في طليعة الصفات الفضيلة التي يدعو اليها، وحق السائل والمحروم حق معلوم في منطقه الالهي، بل يعتبر القرآن المال من قوام المجتمع فاذا حاول سفيه التفريط به منعه المجتمع **﴿ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾**[6].

وحينئذ فلا يتصور والحال هذه ان يصاب عضو من المجتمع بالحاجه والشلل في حين يتكدس العلاج لدى عضو آخر.

يقول تعالى:

﴿ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم﴾[7].

الى غير ذلك من النصوص الشريفة التي لسنا بصدد استقصائها اما علي عليه السّلام فهو يركز في كثير من الموارد على هذه الحقيقة والنص الذي ذكرناه سابقاً يوكدها، ويقول في موضع آخر **(ان الله فرض في اموال الاغنياء اقوات الفقراء فما جاع فقير الا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك)**[8].

ويقول في وصف الانبياء: «وكانوا قوماً، مستضعفين، قد اختبرهم الله بالمخمصة وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة، والاختبار في موضع الغنى والاقتدار فقد قال سبحانه وتعالى **﴿ايحسبون ان ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات، بل لا يشعرون﴾** فان الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في انفسهم باوليائه المستضعفين في اعينهم[9].

والفرد مسؤول عن الاخرين وكذلك الدولة متكفلة لسد النقص.

يقول عليه السّلام: «فمن آتاه الله مالاً فليصل به القرابة وليحسن منه الضيافة، وليفك به الاسير والعاني وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق»[10].

ثم يقول «وقد علمتم انه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل، فتكون في اموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله»[11].

ويقول لمالك الاشتر: «ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، واهل البوسى والزمنى، فان في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الاسلام في كل بلد فان للاقصى منهم مثل الذي للادنى»[12].

كما اعلن عن الاتجاه الاسلامي لمنح العمل على الماده الابتدائية أو شبهها (كما يوخذ في الحرب) للعامل نفسه ولهذه القاعدة تاثيرها الى حد ما حتى في المجال الاخر (العمل على غير المادة الابتدائية) فيقول عليه السّلام لاحد اصحابه وقد جاءه يطلب مالاً:

«ان هذا المال ليس لي ولا لك وانما هو فيء للمسلمين، وجلب اسيافهم فان شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم والا فجناة ايديهم لا تكون لغير افواههم»[13].

وقد عمل على توفير اقصى حد من الامن الاجتماعي الذي يساعد للغاية على تحقيق الاهداف الاسلامية في المجال الاقتصادي وذلك عبر تطبيق نظام العقوبات الصارم بحق عمليات الاغتيال الاقتصادي والسرقة وقطع الطريق والربا والاحتكار والكنز والقمار واهدار الثروات وراح يعلن انه سيسترجع اموال الامة حتى ولو تزوجت بها النساء.

كما طرح فكرة التسوية في العطاء في الاموال العامة التي يشترك فيها المسلمون وكانت هذه خطوة ثورية ازعجت الكثير من ذوي التكبر والاشراف فراحوا يتوسلون بمختلف الوسائل ليعدل عن هذه السياسة الا انه كان يجيبهم دائماً بالنفي.

كما عمل عليه السّلام على منع تركز الثروة في طبقة معينة وربما توسع في مسألة الزكوات اذ ورد عنه عليه السّلام في رواية صحيحة انه وضع على الخيل العتاق الراعية في كل فرس في كل عام دينارين وجعل على البراذين ديناراً وهكذا تتابعت خطواته على هذا السبيل.

وهناك تفصيلات في موضوع التكافل لا تتحملها هذه المقالة المختصرة الا اننا نشير الى الاتفاق التام لفقهاء المسلمين على أنّ كل فرد مسلم يكفل الحاجات الضرورية لأخيه المسلم اينما كان فمنعها بمعنى (منع الماعون).

اما الدولة فالرأي السائد هو انها تضمن أيضاً الحاجات الطبيعية للفرد من خلال ما تملكه من ثروات وانفال ولا مجال هنا للتفصيل.

واما التوازن في مستويات المعيشة، فنلمح له جانبين رئيسين:

احدهما: الضغط على المستويات الرفيعة لتهبط الى المستويات الطبيعية من المعيشة.

والثاني: العمل على الارتفاع بالمستويات الهابطه لتقرب من المستويات الطبيعية ايضاً.

وبهذا يتحق المطلوب من التوازن.

فمهما ارتفع الدخل أو انخفض نتيجة عوامل يقرّها الاسلام في كثير من الاحيان كالتجارة والابداع والاحياء وامثال ذلك الا انه يجب ان لا يحدد مستوى الدخل مستوى المعيشة نفسها وانما عليه ان يساهم في تحقيق التوازن بينها ولا نريد من التوازن بين المستويات وحدتها. كلّا فان ذلك امر لا يصر عليه الاسلام وانما يندب اليه.

وانما المراد الوصول الى حالة يكون التفاوت فيها بين مستويات المعيشة تفاوت درجة لا تفاوت طبقه (كما يعبر المرحوم الشهيد الصدر رحمه الله تعالى) والتعبير الشرعي لهذه الحالة يعرف من الاتجاهين الشرعيين التاليين:

الاول: تحريم الاسراف والتبذير والاتراف والبطر وهذا ما اكدته نصوص كثيرة متواترة.

الثاني: لزوم تحقيق مستوى الغنى لكل فرد في المجتمع الاسلامي وهذا ما اكدته نصوص كثيرة أيضاً منها:

«ما عن محمد بن يعقوب، عن علي بن ابراهيم، عن ابيه، عن ابن ابي عمير، عن سعيد بن غزوان، عن ابي عبد الله عليه السّلام قال: تعطيه من الزكاة حتى تغنيه»[١٤].

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه ان علياً عليه السّلام كان يقول: يعطى المستدينون من الصدقة والزكاة دينهم كل ما بلغ اذا استدانوا في غير سرف...[١٥].

فاذا هبطت الفئات المتمكنة مالياً الى مستوى عدم الاسراف وارتقت الفئات المسحوقة مالياً الى حد الغنى لم يعد الفارق بين المستويين فارقاً كبيراً أي فارقاً طبقياً، وانما يعبر حينئذٍ عن حالة محفزة للفئات الفقيرة لتعمل على الارتقاء ومضاعفة مستوى الدخل مما يمكنها من القرب من مستويات معيشة الاغنياء.

وعلى أي حال فان المتتبع لنصوص القرآن الكريم ونصوص نهج البلاغة يجد

تأكيداً على هذه الحالة.

فالقرآن الكريم يشن حرباً على الترف والمترفين والاسراف والمسرفين وكل حالات البطر ومظاهره.

يقول تعالى مثلاً:

﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾(١٦).

﴿وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين﴾(١٧).

﴿وان المسرفين هم اصحاب النار﴾(١٨).

﴿واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾(١٩).

﴿واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها العذاب﴾(٢٠).

﴿حتى اذا اخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون﴾(٢١).

﴿وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾(٢٢).

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾(٢٣).

ويقول علي عليه السّلام في كتابه الى زياد:

«فدع الاسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وامسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك، اترجو ان يعطيك الله اجر المتواضعين وانت عنده من المتكبرين، وتطمع وانت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والارملة، ان يوجب لك ثواب المتصدقين، وانما المرء مجزى بما اسلف، وقادم على ما قدم»(٢٤).

ويتحدث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيقول عنه.

«ولقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ياكل على الارض، ويجلس جلسة العبلا، ويخصف بيده نعله، ويرفع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول:

يا فلانة ـ لاحدى زوجاته ـ غيبيه عني، فاني اذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها»(٢٥).

ويتحدث عن الانبياء فيقول عنهم بانهم كانوا قوماً مستضعفين(٢٦).

وكان هو في القمة من حيث بساطة مستوى المعيشة وهو القائل.

«فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ولا اعددت لبالى ثوبي طمراً، ولا حزت من ارضها شبراً...

وايم الله ـ يميناً لا استثنى فيها بمشيئة الله لا روضن نفسي رياضة تهش معها الى

القرص اذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح ما دوماً، ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغه دموعها، اتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك وتشبع وتشبع الربيضه من عشبها فتربض، وياكل علي من زاده فيهجع قرت اذاً عينه اذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة».

ويقول عن نفسه ايضاً:

«ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني جشعي الى تخير الاطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع أو ابيت مبطاناً وحولي بطون غرثى واكباد حرى أو اكون كما قال القائل:

«وحسبك داءً ان تبيت ببطنةٍ... وحولك اكباد تحنّ الى القدِّ».

أأقنع من نفسي بان يُقال: هذا امير المؤمنين، ولا اشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون اسوة لهم في جشوبة العيش فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها..»[٢٧].

ويقول عليه السّلام للعلاء بن زياد الحارثي وقد رأى سعة داره.

«ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وانت اليها في الاخرة كنت أحوج؟ بلى ان شئت بلغت بها الاخرى تقرى فيها الضعيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها فاذا انت قد بلغت بها الاخرة»[٢٨].

كما اننا رابنا تأكيده على عنصر كفالة الافراد والدولة وضمانهم للاخرين وقلنا ان مستوى الضمان يرتفع من مستوى الحاجات الضرورية الى مستوى الحاجات الطبيعيه وهو ما عبرت عنه النصوص بالغنى وهو ضمان يشمل حتى اهل الذمه وقد روى عنه عليه السّلام انه مرّ بشيخ مكفوف كبير فسأل:

ما هذا؟ فقيل له يا امير المؤمنين: انه نصراني: فقال الامام عليه السّلام استعملتموه حتى اذا كبر وعجز منعتموه. انفقوا عليه من بيت المال.

أما حربه عليه السّلام ضد المترفين والمسرفين والبطرين فان التاريخ يشهد له بالباع الطويل في ذلك.

وربما كانت هذه هي السبب في تاليف الطبقات المترفة والمسرفة عليه.

يقول عليه السّلام لرجل سأله ان يعظه: «لا تكن ممن يرجو الاخرة بغير عمل.. ان استغنى بطر وفتن وان افتقر قنط ووهن»[٢٩].

ويقول أيضاً: «والدهر يومان: يوم لك ويوم عليك فاذا كان لك فلا تبطر، واذا كان

عليك فاصبر»[٣٠].

ويقول: «نسال الله سبحانه ان يجعلنا واياكم ممن لا تبطر نعمه»[٣١].

ويخاطب معاوية فيقول عليه السّلام «فانك مترف قد اخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك امله، وجرى منك مجرى الروح والدم»[٣٢].

ويقول: «الا وان اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف»[٣٣].

وحذر من اهل النفاق واصفاً اياهم بانهم ان حكموا اسرفوا»[٣٤].

ويامر عليه السّلام مالكاً بان «يكسر نفسه عن الشهوات ويزعها عند الجمحات فان النفس امارة بالسوء الا ما رحم الله»[٣٥].

وختاماً:

فان الواقع القائم اليوم في عالمنا الاسلامي ينأي كثيراً عن الصورة المثالية للعدالة بل حتى عن أدنى صورها وما ذلك الا علامة انحطاط نسأل الله جل وعلا ان يوفق هذه الامة لا سترجاع خصائصها القرآنية والعمل بتعاليم السنة النبوية الشريفة والاستهداء بالتطبيق العلوى الرائع لتعليمات الاسلام.

* * *

● **الهوامش:**

(١) ابراهيم: ٣١ـ٣٤.

(٢) نهج البلاغة: ١٨٧ (صبحي الصالح).

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) نهج البلاغة (صبحي): ٣٨٣.

(٥) ن م: ٤٢٨.

(٦) النساء: ٥.

(٧) الحشر: ٧.

(٨) نهج البلاغة: ٥٣٢.

(٩) نهج البلاغة: ٢٩١.

(١٠) نفس المصدر: ١٩٨.

(١١) ن.م: ١٨٩.

(١٢) نهج البلاغة: ٢٩.

(١٣) نهج البلاغة: ٣٥٣.

(١٤) وسائل الشيعة ٦: ١٧٨.

(١٥) ن. م: ١٨٠.

(١٦) الاعراف: ٣١.

(١٧) يونس: ٨٣.

(١٨) غافر: ٤٣.

(١٩) هود: ١١٦.

(٢٠) الاسراء: ١٦.

(٢١) المؤمنون: ٦٤.

(٢٢) القصص: ٥٨.

(٢٣) الانفال: ٤٧.

(٢٤) نهج البلاغة: ٢٧٧.

(٢٥) نهج البلاغة: ٢٢٨.

(٢٦) ن.م: ٢٩١.

(٢٧) نهج البلاغة: ٤١٨.
(٢٨) ن.م: ٤٢٠.
(٢٩) نهج البلاغة: ٤٩٨.
(٣٠) ن.م: ٥٤٦.
(٣١) ن.م: ٩٥.
(٣٢) ن.م: ٣٧٠.
(٣٣) ن.م: ١٨٣.
(٣٤) ن.م: ٣٠٨.
(٣٥) ن.م: ٤٢٧.



العدالة الاجتماعيّة على ضوء القرآن الكريم

د. زهير الأعرجي



■ الاجر والمكافأة الاجتماعية:

لا شك ان مشروعية وجواز الاجارة شرعاً وعرفاً لا يحتاج الى بيان، باعتبار ان البشرية، وعلى مر العصور، أكدت على ضرورة دفع العوض أو الاجر، مقابل العمل الذي يقوم به الفرد، أو المنفعة التي يملكها. وقد امضى الشارع ذلك العرف بقوله تعالى في آية الرضاع: **﴿فان ارضعن لكم فاتوهن اجورهن﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿قالت ان ابي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾**[2].

وقوله في آية المتعة: **﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة﴾**[3].

وجاء في سورة الزخرف: **﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا﴾**[4] حيث ورد في تفسيرها، ان معنى التسخير هو ان يستسخر الناس بعضهم البعض الآخر لقاء أجر معين.بمعنى «ان الوجه في اختلاف الرزق بين العباد، في الضيق والسعة، زيادة على ما فيه من المصلحة، ان في ذلك تسخيراً، من بعض العباد لبعض، بإحواجهم اليهم يستخدم بعضهم بعضاً، فينتفع احدهم بعمل الآخر له، فينتظم بذلك قوام أمر العالم»[5].

والسؤال المطروح اليوم على الساحة الفكرية الاجتماعية هو: هل ان اختلاف اجور العمل والمكافاة الاجتماعية، بين الافراد، يؤدي الى ترسيخ العدالة الاجتماعية، ام يؤدي الى انعدامها؟

فاجابت النظرية الغربية المسماة بـ«المدرسة التوفيقية»، وهي المدرسة التي لا ترى مبرراً للصراع الاجتماعي، تحت ظل

النظـام الرأسمـالي القـائم اليوم، وروادهـا امثال «اميلي ديركايهم» و«هربرت سبنسر» و «تالكـوت بارسون» وغيرهـم.. بـان انعدام العدالة الاجتماعيـة، ضمن اطار اجور العمل والمكافـأة، لها نواح ايجـابية نافعـة للنظام الاجتماعي، لان اختـلاف ادوار الافراد، على ضـوء المهـارة الشخصية والابـداع، تخـدم اهداف المجتمع والنظام الذي يديره. وطالما كـانت هـذه الادوار تتطلب جهـداً جسـديـاً وفكريـاً متبايناً، تبـاين الافراد، فـي استلام المكافات الاجتماعية. ولان الطبيب اكثر نفعاً من المجتمع، مـن العامل غيـر الماهـر، كان المفتـرض مكـافأة الطبيـب مكـافأة تفـوق مكـافأته لـذلك العـامل غير المـاهر. وهـذا التوزيـع غير المتكافـىء للثروة والمكـافآت الاجتمـاعيـة ضـروري، حسـب رأي هـذه المـدرســة، في ثبـات واستقــرار النظـام الاجتماعي. لأن المال، والمكافأة الاجتماعية، همـا اللـذان يجـذبان الافـراد نحـو انجـاز الاعمـال التي تتطلـب جهـداً اشـد من بقيـة الادوار الاجتماعية الاخرى. وعلى ضوء ذلك، فان انعدام العدالة الاجتماعية نتيجة واقعية، لثبـات واستقرار النظـام الاجتماعـي. ولكن هذه المدرسـة جوبهت بنقد شـديد، من قبل مفكري المدارس الاجتماعيـة الاخرى، لانها تبـرر بشكل صـارخ التفـاوت الواسـع، في نظـام الاجور والمكـافأة الاجتمـاعيـة، في النظـام الرأسمـالي فـالمدرسـة التوفيقيـة أهملت، تمامـاً، ضـوابط العدالة الاجتمـاعية، أي ضمان الحد الادنى للاجور، التي تضمن معيشة كـريمة لكل العامليـن في المجتمع، على اختلاف اختصاصـاتهم المهنية، ودرجة نفعهم الاجتماعي. ولاشك ان انعـدام العدالة الاجتمـاعية لا يـؤدي الـى ثبات واستقـرار النظـام الاجتماعي، بـل يؤدي الى اختـلال المـوازين الاساسيـة، في اشبـاع حاجـات الافراد وتمتعهم بالثروات الاجتماعية.

امـا النظـريـة الاسلاميـة فقـد نـادت بالعدالة الاجتماعيـة، لا من باب عدالة الأجر والمكافأة الاجتماعية، التي امضاها الشارع فحسب، بـل من باب عـدالـة توزيع الثـروة الاجتمـاعية، فـزيـادة الثروة فـي المجتمع، ليست بالضرورة ان تكون عاملاً من عوامل نشر الظلم والحرمان الاجتمـاعي، كما ترى المـدرسـة الغـربيـة التلفيقيـة التي وعـدت بـانتخاب محـاسن المـدرستين التوفيقيـة والماركسية. لان العدالـة الاجتماعية ترتبط، في الاصل بنظـام يساهم في تـوزيع عادل للثروة، ولا ترتبـط بالزيادة المـالية نفسها، وهناك شواهد تاريخية عـديدة تؤكد صدق هذا الـرأي، كما ورد فـي كتب التاريـخ، عن رجوع الصـدقات الى بيت المـال، في صدر

الاسـلام، لان الثروة المـاليـة انتشـرت عن طريق التـوزيع، بين عدد كبيـر من الافراد، ولم تتكدس بـايدي جماعة محـدودة العدد. وليس غريباً ان نـرى ان أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليـه السّلام ابى إلاّ ان يرجع الاموال التي منحها الخليفة الثـالث لاقربائه وخاصته، قائلاً بشأن ذلـك: «والله لو وجدته قد تزوج بـه النساء وملك به الامـاء لرددته، فان في العدل سعه، ومـن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق»[٦]. اضـافة الـى ذلك، فان الـوازع الاخلاقي، الـذي يتحسس لالآم المعذبيـن والمستضعفين، يجعل التنـافس الاقتصادي عملية يقوم بها الافراد، من اجل التكامل الاجتماعي، لا مجرد تكديس المال.

معـــالجـــة الفـــوارق بيـن الطبقات الاجتماعية:

ولا شك ان القـرآن الكـريم ينظـر الى الافراد، في المجتمع الانسـاني، على اساس رابطهم التكـوينـي، في الخلـق، وهـو رابط الانسـانية. وهـذا الرابـط الانسانـي يجمع الافـراد، في شتـى المنـاسبـات من أفـراح وأتـراح وتعارف، فـالفـرد بغض النظـر عن نوعية ارتباطه الفكـري والعقائدي بالاخرين يعيش بالدرجة الاولى ارتباطاً انسانياً معهم. فيشير القرآن الى هذا المعنى عندما يتحدث عن دعوة الأنبياء للشعـوب الكافرة، فيقول: **﴿والى ثمود اخاهـم صالحاً﴾**[٧]، **﴿والى مدين اخاهم شعيباً﴾**[٨]، فمنطوق الايتين الشريفتيـن يدل على أنّ القاسـم المشترك، والقدر الجـامع بين كفار ثمود ومـدين، من جهـة، والنبيين صـالح وشعيـب، من جهـة اخـرى، هو اشتـراكهم جميعـاً في الاخـوة الانسانيـة، على اختلاف ميولهم العقـائدية ووظائفهم الاجتماعية.

وبطبيعـة الحال، فـان تصميم القـرآن الكـريم على فهـم الرابط الانسـاني، الـذي يـربط الافـراد، دون النظـر الـى منشأهـم وعقيـدتهـم، ضـروري ضمـن النظـريـة الاسلامية، في تكامل النظام الاجتماعي، لان الانســان حسب تلك النظـرية، مصمم منـذ نشـأتـه الاولى علـى التحسـس والشعـور والانفعـال والتفـاهم والتغيـر، وهي امـور يتميز بها الافراد عن غيرهم من الكائنات.

وهذه الـرابطة الانســانية التـي يعلنها الاسـلام، بكل صـراحـه، ويطبقها فـي كل احكامه وتشريعاتـه، تميزه عن بقية الأديان والعقـائد، في الاهتمـام بكـرامـة الانسـان واشباع حاجاته الاسـاسية، فيصرح القرآن المجيد بكل وضوح منادياً: **﴿يا ايها الناس انـا خلقناكـم من ذكـر وانثى وجعلنـاكم شعوبـاً وقبائل لتعارفوا ان اكـرمكم عند**

الله اتقاكم﴾[9].

فالتفاضل الالهي بين الافراد يستند في الاصل، على الجهد البشري في العمل الاجتماعي، والصفاء الروحي والشخصي للفرد، وحق الطاعة للخالق عزوجل لأن جعل الافراد، عن طريق الاجتماع شعوباً متميزة، يحتاج بصورة اساسية الى جهودهم، في التعاون والتكاتف، لبناء صرح الانظمة الاجتماعية العظيمة.

ولما كان المجتمع الانساني مبني على تفاوت قابليات الافراد، في التحصيل وبذل الجهد اولاً، ولما كانت الثروة العينية والقيمية في تحرك وتداول مستمر، بين الافراد ثانياً، أصبح نشوء الاختلاف في تملك الثروة وبذلها امراً حتمياً، وبدل هذا الاختلاف على تنوع وتفاوت الادوار، والوظائف الاجتماعية بين الافراد وهذا التنوع يتطلبُ اختلافاً، في درجات العيش، ضمن الطبقة الواحدة فحسب، ولا يتطلب تعدداً للطبقات الاجتماعية كما تؤكد المدرسة التوفيقية.

وبطبيعة الحال فان الاسلام لم يتعامل مع مشكلة الفقر تعاملاً هامشياً، بل دخل في معترك الصراع الاجتماعي مسلحاً بضوابطه الشرعية الدقيقة، في تضييق الفوارق الطبقية، فشرّع أولاً اصالة اشباع حاجات الأفراد الأساسية، من الطعام، واللباس، والسكن، وامضى ما أقرّه العرف، فيما يتعلق بالخدمات الصحية، والخدمات الأساسية الأخرى كالنقل ونحوه، وقرر ثانياً ان للفقراء حقاً في أموال الاغنياء **﴿والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾**[10]، ففرض ضرائب على الثروة الحيوانية والزراعية والمعدنية والنقدية ونحوها، وبذلك تعامل الاسلام، مع صميم المشكلة الاجتماعية، بهدف ازالة أسباب الفقر والحرمان، واقتلاع جذور الفساد الاقتصادي.

فالزكاة التي اوردها القرآن الكريم: **﴿خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾**[11]، **﴿ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾**[12]، وهي ضريبة عينية أو قيمية محددة بنسبة مئوية في الأنعام الثلاثة: (الابل والبقر والغنم) وفي الغلات الاربع (الحنطة والشعير والتمر والزبيب) وفي النقدين: (الذهب والفضة)، تشبع الفقراء من المأكل والملبس، وتسد حاجاتهم الأساسية الأخرى، والخمس في قوله تعالى: **﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾**[13]، وهو اخراج

عشرين بالمائة، من الواردات السنوية، خمس الغنيمة كانت أو خمس الفائدة أو الربح، كالمعادن المستخرجة من الارض، وما يخرج من البحار، وما يعثر عليه من الكنوز، وما يفضل من مؤونة سنة الأفراد تعكس حقيقة مهمة في فكرة العدالة الاجتماعية، وهي أن خمس الثروة الاجتماعية يجب ان تذهب لمساعدة الفقراء والمشاريع والخدمات الاجتماعية، التي ترفع من مستواهم، وتمنحهم فرصاً حقيقية للعمل والانتاج، وتساعد الدولة، أيضاً، على بناء المدارس والمستشفيات، ووسائل التدريب والتأهيل الاجتماعي، هذا اضافة الى ان الضرائب التي فرضها الاسلام كالصدقة الواجبة: **﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها﴾**[١٤]، والكفارات **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة اطعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾**[١٥]، والأضحية **﴿فصّل لربك وانحر﴾**[١٦]، **﴿فان احصرتم فما استيسر من الهدي﴾**[١٧]، والضرائب التي شجع الافراد على دفعها، بدافع الاستحباب، كالصدقة المستحبة والانفاق في سبيل الله **﴿الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[١٨]، **﴿ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون﴾**[١٩]، ترفع حوائج المعدمين، وتسد رمقهم وتشبعهم، ولعل الواقع يشير الى ان المجتمع الاسلامي يصرف اكثر من خمسة وعشرين بالمائة، من ثرواته العينية أو النقدية، على الطبقة الفقيرة، في سبيل رفعها الى مستوى الطبقة الاجتماعية الواحدة التي صممها الاسلام، في نظامه الاجتماعي، وهذا الوارد الضخم الذي يخرج من جيب الطبقة الغنية، ليدخل في دخل الطبقة الفقيرة يساهم مساهمة عظيمة، في تضييق الفوارق الطبقية، بين الافراد، حتى يمحوها محواً من الخارطة الاجتماعية، ويضع بدلها نظاماً انسانياً عادلاً مؤلفاً من طبقة موحدة مختلفة الدرجات، بينما يصرف النظام الرأسمالي الامريكي مثلاً اثنين بالمائة فقط من وارداته، على الفقراء، كاعانات غذائية لاشباعهم، أو صحيّة لمنع تفشي الأمراض بينهم، وانّ نظاماً كالاسلام يأمر بصرف ربع واردات الثروة الاجتماعية، على الفقراء، جدير بان يحقق اعلى درجات العدالة الاجتماعية، في المجتمع البشري، وجدير بقيادة العالم والبشرية المعذبة بعذاب

الجوع، والفقر، والمرض نحو شاطىء الامان، والعدالة، والاستقرار الاجتماعي.

ولاشك أن الاسلام يرفض فكرة النظرية الغربية التوفيقية، والقائلة بأن انعدام العدالة الاجتماعية يمكن جبره، بزيادة الانتاج، لان انعدام العدالة بين طبقات المجتمع الانساني لا يمكن تبريرها، بأي منفعة اجتماعية، مهما كان لونها ومنشؤها، ولكن أقرار الاسلام بالمساواة التامة، في دفع المكافأة الاجتماعية، لكل الافراد، مهما كان لونهم أو جنسهم، يساعد على زيادة الانتاج الاجتماعي، ويساهم في تمتين الأواصر النفسية، بين جميع العمال، على الساحة الانتاجية، فالفرد ذو البشرة البيضاء لا يختلف عن نظيره، من ذوي البشرة السوداء أو الصفراء، بل ان الكل سواسية أمام رب العمل، والمقياس في دفع الأجر هو الجهد المبذول وقيمة العمل، وهذه هي عين المساواة الحقيقية.

تعريف الفقر والفقراء:

والفقر الذي ورد في قوله تعالى بخصوص انكاح الايامى: **﴿إنْ يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾**[٢٠]، حُدّد عن طريق الشارع بحاجة الفرد الذي لا يملك مؤونة سنته اللائقة لحاله له ولعياله، بمعنى ان المؤونة السنوية هي الفصل، في كشف حالة الفرد، فيما يتعلق بالغنى أو الفقر، فالفقير من لا يملك مؤونة سنته، والغني هو الذي تحقق له مؤونة سنوية لائقة بوضعه الاجتماعي.

وقيل ان الاولى ايكال معرفة النفقة المستثناة أو المؤونة الى العرف[٢١].

وبذلك، فان كل فرد في المجتمع الاسلامي مضمون، على الصعيد التطبيقي، من الناحية المعيشية، لمدة سنة كاملة، فاذا دخلت السنة الجديدة، وليس لديه وعائلته ما يكفيهم، عندئذ يحق له أخذ ما يكفيه، مع من يعيلهم من الموارد المالية الشرعية لسنة أخرى، وهكذا الى أن يتبدل وضعه الاقتصادي فيصبح غنياً، وهذا الضمان المالي يشبع حاجات الطبقة الفقيرة، ثم يرفعها الى مستوى عامة الناس، وهي الطبقة المتوسطة في النظام الاجتماعي الاسلامي.

وبطبيعة الحال فان النظرية الاجتماعية الاسلامية لا تلوم الفقراء، على فقرهم، ولا تلزمهم مسؤولية تحميل الاخرين كاهل الانفاق، بل ان الاسلام ينظر، ضمن منهجه الاجتماعي الشامل، الى الفقراء نظرة ملؤها الترحّم وروح المساواة، ويؤكد ان للفقراء حقاً ثابتاً في أموال الاغنياء، كما ورد عن

الامام الصادق عليه السّلام: «ان الله تبارك وتعالى شرك بين الفقراء والاغنياء في الاموال، فليس لهم أن يصرفوا الى غير شركائهم»[٢٢]، بمعنى ان الله سبحانه قد جعل للفقراء حقاً في اموال الاغنياء، كحق غرماء الميت المتعلق بتركته، فان امتنع الغني عن اداء ذلك الحق، كان للحاكم الشرعي أو لعدول المسلمين، من باب الحسبة، استيفاء ذلك الحق قهراً، وليست الضريبة الواجبة من (زكاة، وخمس، وكفارات، وزكاة فطر، وهدي) هو كل ما يقدمه الاسلام للفقراء، بل ان الانفاق المستحب، وصدقة السر تسد جزءاً كبيراً، من حاجاتهم أيضاً، الى حد الكفاية والغنى.

وبالاجمال، فان الاسلام عالج مشكلة الفقر بالخطوات التالية:

اولاً: أمر بفرض ضريبة ثابتة، على اموال الاغنياء **﴿انهم كانوا قبل ذلك محسنين... وفي اموالهم حقٌّ للسائل والمحروم﴾**[٢٣]، **﴿خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾**[٢٤]، **﴿فلا اقتحم العقبة * وما ادراك ما العقبة * فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة * او مسكيناً ذا متربة﴾**[٢٥].

ثانياً: اعطى الفقراء حد كفايتهم، من الناحية المعيشية، ممّا يوفر لهم فرصاً حقيقية، لالحاقهم بالطبقة المتوسطة **﴿وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم﴾**[٢٦]، **﴿فكلوا منها واطعموا البائس الفقير﴾**[٢٧]، فلا يتحقق الاطعام الا بتحقق حد الكفاية والاشباع.

ثالثاً: حثَّ على الانفاق المندوب، وشجع على السخاء والكرم في العطاء **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**[٢٨]، **﴿يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وممّا اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم باخذيه الا ان تغمضوا فيه﴾**[٢٩]..، **﴿ثم لا يتبعون ما انفقوا منّاً ولا اذى﴾**[٣٠]، **﴿ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في الباساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون﴾**[٣١].

رابعاً: أمر بتحريك المال الصامت، لتنشيط الطاقات والابداعات المختلفة، في النظام الاجتماعي، فلا ريب اذن ان يثق

الاسلام ثقة مطلقة بنظامه الاجتماعي، الذي يعالج فيه الفقر معالجة حقيقية، كما يشير الى ذلك قول الامام الصادق عليه السّلام: «لو ان الناس أدّوا زكاة اموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً»[٣٢].

ولا شك ان الفرد الجائع يمثل ادانة حقيقية للنظام الاجتماعي الذي يعيش فيه، خصوصاً اذا كان ذلك النظام يساهم في تجويعه وحرمانه، من ابسط مقومات الحياة، ولما كان الاسلام يمثل جوهر العدالة الاجتماعية، فانه يعتبر من أخطر الانظمة الفكرية العقائدية المضادة للنظام الاجتماعي الراسمالي، الذي يحصر الثروة الاجتماعية بالطبقة العليا، غير مكترث بحرمان افراد الطبقات المحرومة، من خيرات النظام الاجتماعي.

على اي اساس يتم التفاضل؟

ويختلف المجتمع الانساني، في نظرته الى الافراد، والتمييز والتفاضل بينهم، وعلى ضوء ذلك الاختلاف، ينقسم المجتمع البشري الى قسمين، ففي بعض المجتمعات يتم التمييز في المكافأة، على أساس اللون والجنس والمنشأ، وهذا هو القسم الاول. وفي البعض الاخر يتم التمييز، في المكافاة والتفاضل، على اساس العلم والمهارة والجهد وهذا هو القسم الثاني.

وقد حرّم الاسلام التفاضل القائم على الاعتبار الأوّل، وشجع التمييز القائم على أساس الاعتبار الثاني: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[٣٣]، **﴿ان الله يامر بالعدل والاحسان﴾**[٣٤]، **﴿يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾**[٣٥].

ومنشأ تحريم التفاضل على أساس لون البشرة كالأبيض والأسود، أو جنس الانسان كالذكر والانثى، أو منشأ الفرد كالمولود في الريف والمولود في المدنية، ان هذه المقاييس تتنافى مع العدالة الاجتماعية التي يقرها الدين، بل ان التفاضل الذي أمضاه الشرع الحنيف وشجع الافراد على ممارسته، هو التفاضل القائم على اساس بذل الجهد وقيمة العمل، ولما كانت قابليات الافراد، في التحصيل والفهم والادراك، متفاوتة، كان تمايز الافراد من الناحية العلمية الاكتسابية أمراً حتمياً، وأفضل ما يسلط الضوء الكاشف، على الفارق بين الطاقات البشرية، وقابلياتها على الانتاج، قوله تعالى: **﴿وضرب الله مثلاً رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كلّ على مولاه اينما يوجهه لايأت بخير هل**

يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾[٣٦].

والخلاصة، ان التفاضل بين الأفراد على أساس الجهد، وقيمة العمل أصل مشروع، وقاعدة عامة لتنمية المواهب، والطاقات الخلاقة، شرط ان لا يخرج ذلك عن اطار العدالة الاجتماعية، في سد الحاجات الاساسية، لكل افراد النظام الاجتماعي.

الضمان والتكامل الاجتماعي في الاسلام:

وواجب الدولة، في النظام الاسلامي، ضمان معيشة الافراد، وهي بذلك تتبع أحد هذه الطرق الثلاثة:

اولها: ان توفر لهم اعمالاً يرتزقون بها، الى حد الكفاية.

ثانيها: أن تضمن معيشتهم الأساسية، في حالة عدم توفر فرص العمل.

ثالثها: ان تنشيء لهم هيئات ولجاناً متخصصة، لاستحداث مختلف الاعمال في الزراعة والصناعة والاعمال التجارية.

وكل هذه الطرق الهادفة، لضمان معيشة الافراد يمكن ايجادها، ضمن حدود الدولة والنظام الاجتماعي، لأن الارض بكل خيراتها لا تبخل على الانسان بعمل، وان العقل البشري، بكل طاقته الجبارة، يفتح افاقاً واسعة، لتطوير مصادر الغذاء، في البحار والمحيطات والانهار، وهذه الخيرات تستطيع اشباع ملايين الافراد، خصوصاً اذا استخدمت وسائل الانتاج الزراعي والحيواني الميكانيكية، التي تستطيع مضاعفة الانتاج الغذائي بكلفة أقل، وكل هذا النشاط والاستثمار يقع تحت عنوان «حق الجماعة في التمتع بمصادر الثروة الاجتماعية»، فتضمن الدولة حقوق القاصرين والعاجزين عن العمل، فضلاً عن حقوق عموم الافراد، باستثمار مصادر الثروة الطبيعية، بكل أنواعها واشكالها المعروفة، فالأرض بخيراتها الهائلة، انما خلقت للجميع كما ورد في قوله تعالى: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً﴾**[٣٧].

وهذا الضمان ينبع من جوهر النظرة القرآنية للانسان، فالفرد، حسب تلك النظرة، ليس كياناً مادياً فحسب، بل هو كيان مادي وروحي كريم، والجوع يمزق هذا الكيان، ويحط من قدره، وبذلك فلابد من اشباع حاجاته الأساسية في العيش الكريم، والى هذا التفضيل أشار الكتاب المجيد بقوله: **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا**

تفضيلا﴾[٣٨]، وليس غريباً ان نلمس بكل صراحة ادانة القرآن الكريم للبخل والبخلاء، واولئك الذين يكنزون أموالهم، ويبعدونها عن التداول الاجتماعي، لان البخل يحرم الافراد من التنعم بالثروات الاجتماعية **﴿ويلٌ لكل همزة لمزة * الذي جمع مالاً وعدده * يحسب ان ماله أخلده * كلا لينبذن في الحطمة﴾**[٣٩]، **﴿أرايت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدُعُّ اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين﴾**[٤٠]، **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾**[٤١].

ان من حق المخلوق على الخالق اشباعه وكسوته، وأي نقض لهذا القانون الكوني انما هو نقض لصميم مفهوم العبودية بين المربوب والرب، فالجائع لا يستطيع عبادة الله، ولا يقدر على تحمّل التكاليف الشرعية، فكيف يأمره الخالق اذن، بالعبادة، ولا يضمن له العيش الكريم؟ ولاشك ان المولى عزوجل خلق للأفراد مصادر غذائهم وكسوتهم، ولكن سوء التوزيع الذي يقوم به الانسان هو الذي يحرم البعض من حقوقهم، ويتخم البعض الآخر وهذا يفسر ـ الى حد ما ـ تأكيد الاسلام المستمر على الانفاق الواجب والمستحب على الفقراء والمساكين، خصوصاً في موارد الانفاق التي ذكرناها سابقاً كالصدقات الواجبة، والكفارات الأضحية، والانفال.

ولا تتوقف النظرية الاسلامية بمساعدة الفقراء، عند الضمان الاجتماعي فحسب، بل تتعدى في نظرتها الشمولية الى التكافل العام، بين جميع افراد المجتمع الانساني، الذي ينبغي ان يقوم على مبدأين، هما:

الاول: مبدأ كفالة الافراد بعضهم البعض كفاية، وهذا المبدأ لا يمكن تجزئته أو فصله، عن بقية احكام الاسلام، التي تفرض على المكلفين ضرائب، وغرامات مالية، أو عينية يرد أغلبها الى الفقراء، خصوصاً القاصرين والعاجزين.

الثاني: مبدأ الاخوة الذي يعتبره الاسلام حجر الأساس، في بناء العلاقات الاجتماعية النظيفة، وقد أشارت الأحكام الشرعية الاسلامية، في اكثر من موضع، الى ضرورة التحسس لآلام الآخرين، وأهمية مشاركة الافراد شعورهم الانساني، من أفراح وأفراح، فالمصائب الجماعية أخف ثقلاً، على كاهل الفرد، من تلك التي ينوء بحملها الانسان منفرداً، دون صديق أو حميم، ولذلك كان مفهوم الاخوة في

الاسلام، وما يترتب عليه من آثار اقتصادية في توزيع الثروة، من أكثر وسائل التكافل الاجتماعي تأثيراً، وأمضاها فعالية، في تضييق الفوارق الطبقية بين الافراد، ولئن كان «المذهب الفردي» الذي تدعي النظرية الرأسمالية تفوقه، على بقية المذاهب الاجتماعية السلبية، التي أوقعها ذلك المذهب بالمجتمع الرأسمالي، تجعله من أكثر المذاهب الاجتماعية فشلاً، في تحقيق سعادة الانسان، وطموحه في تحقيق مجتمع سعيد متكاتف، يقوم على أساس المساواة والعدالة الانسانية.

نقد فكرة (العدالة الاجتماعية) في النظريات الغربية:

وتتنافس على الساحة الفكرية الاجتماعية، في اوروبا وامريكا، أربع مدارس نظرية، في تفسير معنى العدالة الاجتماعية، وهي المدرسة التوفيقية، والمدرسة الماركسية، والمدرسة التلفيقية، ومدرسة «ماكس وبر». فالمدرسة التوفيقية بروّادها الثلاثة: «اميلي ديركهايم، هربرت سبنسر، تالكوت بارسون» تؤمن بكل قوة بان انعدام العدالة الاجتماعية الناتج من فوارق اجور العمل والمكافآت الاجتماعية يساعد، بشكل حتمي، على اثبات واستقرار النظام الاجتماعي، لان ارتباط الدور الاجتماعي، الذي يقوم به الفرد بالمكافأة المالية التي يستحقها، هو الذي يحرك الطاقات الابداعية في النظام الاجتماعي، وقد فندنا آراء هذه المدرسة، عندما درسنا موضوع الاجر والمكافأة، في بداية هذا المقال.

ولكن المدرسة الماركسية أصّرت على ان انعدام العدالة الاجتماعية ما هو الا نتيجة حتميّة للصراع الطبقي، الدائر على الساحة الاقتصادية، فتراكم الثروة، عند افراد الطبقة الرأسمالية، هو الذي ساهم في تصميم شكل القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي يسيطر بها هؤلاء، على مصير الطبقات الاجتماعية الاخرى، الا أن الفشل الذي منيت به الفكرة الماركسية في الاجابة على الاسئلة المطروحة أفقدها الكثير من الانصار، فقد عجزت النظرية عن التنبوء بظهور طبقة وسطى، في المجتمع الرأسمالي، وأن افراد هذه الطبقة لا يعملون بالضرورة ضمن توجه الطبقة الرأسمالية، وخدمة مصالحها، فاساتذة الجامعات، والعاملون في الحقول الطبية من بحوث وتطبيب وتمريض، والعاملون في خدمات النقل يعملون اما على أساس الدخل الشخصي، أو على أساس كونهم موظفين

لشركات كبيرة مملوكة من قبل أفراد عديدين، عن طريق الاسهم والسندات، وحتى ان ملكية وسائل الانتاج، التي تتحدث عنها النظرية الماركسية، فانها وان كانت موجودة في عالم اليوم، الا أن العديد من هذه المؤسسات الصناعية الكبيرة تقع تحت ملكية الالوف، من أصحاب الاسهم والسندات، وتدار من قبل موظفين يتقاضون اجوراً معينة، على جهدهم وعملهم.

وفي نهاية المطاف توزّع أرباح هذه المؤسسات على الأسهم ومالكيها بالتساوي، فتراكم الثروة في هذه المؤسسات اذن، يختلف اليوم عما كان عليه الوضع الاقتصادي في القرن التاسع عشر.

والمدرسة التلفيقية، التي حاولت الجمع بين حسنات المدرستين التوفيقية والماركسية لم تتوفق في طرح منهج مقنع جديد لمشكلة انعدام العدالة وسوء توزيع الثروة الاجتماعية، فقد آمنت هذه المدرسة بفكرة المدرسة التوفيقية القائلة بان حاجات المجتمع الأساسية من الخبرات لابد أن تشغل بالأدوار التي يتطلبها ذلك المجتمع.

وبسبب ملىء تلك الحاجات الاجتماعية بالادوار المختلفة، فقد اختلفت قيمة المكافآت الاجتماعية للعمال والخبراء، وآمنت في نفس الوقت بفكرة المدرسة الماركسية الزاعمة بحتمية الصراع الاجتماعي للمحافظة على ديناميكية المجتمع الانساني، باعتبار ان توفر الخيرات بشكل يفيض عن حاجة المجتمع سيؤدي حتماً الى التنافس والصراع الاجتماعي، ولكن هذه المدرسة وقعت في خطأ فادح، وهو ان زيادة الثروة في المجتمع، ليست بالضرورة عاملاً من عوامل نشر الظلم والحرمان الاجتماعي، فزيادة الثروة وحسن وعدالة توزيعها تؤدي الى رخاء اجتماعي، يساهم في رفع الحيف عن المظلومين والمحرومين، لأن العدالة الاجتماعية ترتبط، في الاصل بنظام يساهم في توزيع عادل للثروة، ولا يرتبط بالزيادة المالية نفسها.

ولم يمنع اعجاب الطبقة العاملة والمثقفة الاوروبية، في القرن التاسع عشر، بافكار «كارل ماركس»، من تكثيف الجهود العلمية لمناقشتها ونقدها، والتشكيك بسلامة اسسها الفكرية، وكان من روّاد هؤلاء الذين انتقدوا نظرية «كارل ماركس»، في تحليل العلاقات الاجتماعية، على ضوء الصراع الطبقي، العالم الاجتماعي الالماني «ماكس وبر»، حيث قدم خلال نقده لأفكار «كارل ماركس»، نظرية جديدة مناقضة تماماً للنظرية الماركسية.

وتتلخص نظرية «ماكس وبر»، بالقول بان فكرة نشوء الطبقات الاجتماعية لا

تحصل نتيجة الصراع الطبقي، بل تحصل نتيجه تداخل عوامل ثلاثة وهي:

الاول: العامل الاقتصادي.

الثاني: العامل السياسي.

الثالث: العامل الاجتماعي.

أو بمعنى آخر الثروة، والقوة، والمنزلة الاجتماعية، فاذا أردنا معرفة الطبقة الاجتماعية لمعلم المدرسة مثلاً، فما علينا الا ان نحسب ثروته المالية، ونلاحظ قوته السياسية، ونلمس منزلته الاجتماعية، ثم نحكم، من خلال هذه العوامل الثلاثة، على موقعه في الطبقات الاجتماعية ولكن «ماكس وبر» يقع، في خطأ واضح، وهو ان هذه العوامل الثلاثة متشابكة في الطبقة العليا في المجتمع، ومستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض، في الطبقتين الوسطى والفقيرة، فعالم الدين الورع مثلاً: غني في النفس (المنزلة الاجتماعية)، فقير في المال (العامل الاقتصادي)، حكيم في القيادة (العامل السياسي)! فأين تقع مرتبته في الطبقات الاجتماعية. الطبقة العليا، أم الوسطى، أم الفقيرة؟ ثم الا يمتلك أفراد الطبقة الراسمالية الثروة، والقوة السياسية، والمنزلة الاجتماعية بينما يمتلك الفقير، أحياناً، المنزلة الاجتماعية ولكنه لا يمتلك الثروة؟ فاين موقعه في هذه النظرية لطبقات النظام الاجتماعي، من منظار الطبقة العليا فقط، و«ماكس وبر» لم يعط تحليلاً صحيحاً وعلاجاً نافعاً لمشكلة انعدام العدالة الاجتماعية، في المجتمع الرأسمالي، ولو كان مصيباً في تحليله، لنظر الى جوهر المشكلة الاجتماعية، وهي مشكلة توزيع الثروات بين الافراد، وما يصاحب ذلك التوزيع غير العادل من تراكم للثروة، وتركيز للقوة السياسية والاقتصادية، وما يتبعها، من تحكم وسيطرة، تؤدّي الى انعدام العدالة بين الافراد، في النظام الاجتماعي.

وبعد ان اثبتنا فشل هذه النظريات، في معالجة انعدام العدالة الاجتماعية، يُرجع الى النظرية القرآنية، في تثبيت صرح العدالة الاجتماعية، في المجتمع الاسلامي، فقد تعامل القرآن الكريم مع قضيّة توزيع الثروة الاجتماعية على عدة محاور:

الاول: المحور التعبدي، حيث يتضح من دراسة الاحكام الشرعية الخاصة بالزكاة المالية، وزكاة الفطر، والخمس، والانفال، والاضاحي، والكفارات، والصدقات المستحبة، ان الانفاق يعتبر من صميم الأعمال التعبدية، التي يجازى بها المكلف أو يعاقب **﴿مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع**

عليم﴾[٤٢]. **﴿يا ايها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾**[٤٣].

الثاني: العامل الاخلاقي، الذي يعتبر المال مجرد وسيلة، من وسائل نفع الظام الاجتماعي، واشباع حاجات الأفراد الأساسية، فيوصي، مثلاً برد المال المأخوذ حراماً الى صاحبه، وصرفه على الفقراء، اذا عجز عن معرفة مالكه، ويوصي أيضاً بمساعدة الأفراد الذين ركبتهم الديون، بتسديدها من بيت المال، ونحو ذلك **﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾**[٤٤].

الثالث: عامل الاعتدال في حجم الضريبة المفروضة على أموال الأغنياء، والتاكيد على كون الضريبة تخص الفائض من الأرباح السنوية، حيث تُستثنى المؤونة ومصاريف العمل، من النسبة المئوية لأموال الأغنياء، وفي الوقت ذاته يوصي الاسلام بالاعتدال في صرف الزكاة بالنسبة للفقراء، فلا يحق للفقير تبذير المال الذي يستلمه من الحقوق الشرعية، بل لا يحق للافراد اطلاقاً، الاسراف والتبذير **﴿ولا تبذر تبذيرا... ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾**[٤٥].

الرابع: ان كميّة المال الوارد عن طريق الحقوق الشرعية، تعتبر في الواقع كمية هائلة، وتشديد الاسلام على صرف هذه الكمية الضخمة، من المال على الفقراء والمساكين، بالخصوص، لاشباع حاجاتهم الاساسية، في المأكل والملبس والمسكن، تضعه على صدر الأنظمة الاجتماعية التي تنجح، في معالجة مشكلة الفقر معالجة حقيقية، وهذا الدور الاسلامي، في معالجة المشكلة الاجتماعية، مستندٌ على فهم حقيقة الانسان الداخلية في العطاء، وحقيقة التكليف الشرعي للافراد، في التعاون والتضامن الاجتماعي.

الاسباب الداعية لاستمرار الظلم الاجتماعي:

واذا كانت الكثرة من أفراد المجتمع مظلومة اجتماعياً ومحرومة من حقوقها الاساسية فلماذا لا تطيح هذه الكثرة بالطبقة المتمكنة القليلة العدد؟

ولماذا يستمر الظلم الاجتماعي لأجيال عديدة وأحقاب زمنية طويلة دون ان يتزعزع النظام الاجتماعي الظالم؟

لاشك ان الجواب على هذا السؤال يتطلب ملاحظة عاملين مهمين يتمسك بهما النظام السياسي الحاكم وهما:

الأول: السيطرة على منابع القوة لحفظ النظام.

الثاني: ايجاد نظام فكري عقائدي، يبرّر للغالبية العظمى من افراد المجتمع،

احقية هذا النظام في البقاء.

أ ـ السيطرة على منابع القوة الاجتماعية

لاشك ان القاعدة الاقتصادية، لجماعة ما، تلعب دوراً مهماً، في التركيبة الاجتماعية والثقافية للمجتمع ككل، بمعنى ان الجماعة، التي لها قوة اقتصادية عظيمة، تترجم هذه القوه الاقتصادية، الى قوة سياسية، وتستطيع من خلالها السيطرة على المؤسسات الاجتماعية الاساسية، كمؤسسات الحكومة، والقضاء، والتعليم، والطب.. ونحوها، وقد أشار القرآن الكريم، بشكل اجمالي الى أهمية المال في القوة الاجتماعية، كما جاء على لسان موسى عليه السّلام، ﴿انك آتيت فرعون وملاه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا﴾[٤٦]، ﴿وامددناكم باموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيراً﴾[٤٧]، ﴿كانوا أشد منكم قوة واكثر اموالاً وأولاداً﴾[٤٨]، ﴿وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة﴾[٤٩].

فالمال في النظام السياسي الظالم، هو المحرّك الأساس لكل المؤسسات الاجتماعية، والقانون في ذلك المجتمع يدافع عن الثري ولا يحمي الفقير، والمؤسسات المتلبسة بالدين، في المجتمع الرأسمالي، تدعم النظام الاجتماعي الظالم، ولا تنادي بالاطاحة به، وحتى المؤسسات التعليمية تمجد حسنات النظام السياسي، ولا تنتقد أخطاءه وسلبياته، وبالتالي فان الطبقة الغنية الحاكمة تصبح هي الوطن والعرض والدين، ومن يهاجمها فانما يهاجم كل المقدسات التي يؤمن بها الافراد، في الطبقات الاجتماعية، وشخص كهذا يعرفها، خارج عن الاجماع العام الذي أقرّه العرف الاجتماعي وأمضته الشريعة.

ب ـ النظام الفكري لطبقة الاقوياء:

ولاشك ان النظام الفكري والثقافي لأي مجتمع هو النظام الفكري، الذي تتبناه الطبقة الحاكمة، فطبقة العمال في المجتمع الشيوعي المندثر مثلاً، تفرض بكل قوة الفكر الذي تتبناه وتؤمن به، وعندها يصبح الفكر الشيوعي هو الفكر المسيطر على الساحة الفكرية في المجتمع، والفكر الذي تؤمن به النظرية الرأسمالية يسيطر على كل توجهات المجتمع الرأسمالي. وهكذا ترى ان الأفكار تابعة للحكام، كما ان الأحكام تابعة للاسماء في المصطلح الاصولي، ويشير القرآن الكريم الى هذا المفهوم، أيضاً، عندما يتعرض لممارسات فرعون، في اقناع الأفراد، بانه هو الاله الذي ينبغي أن يعبد ﴿وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمتُ لكم من الهٍ غيري﴾[٥٠]، ﴿وقال فرعون يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلي ابلغ الاسباب﴾[٥١]، وهو المستخف المستهتر

بقيم المعارضة ﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾[٥٢]. ﴿قال فرعون ما أريكم الا ما ارى وما اهديكم الا سبيل الرشاد﴾[٥٣]، وهو الذي يبث الرعب في قلوب الناس ﴿على خوفٍ من فرعون وملائهم أن يفتنهم﴾[٥٤]، وهو الذي يمتلك القوة والارادة الطاغوتية ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾[٥٥]، ﴿قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم﴾[٥٦] وهو الذي يؤمر فيطاع ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾[٥٧]، ﴿فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم من غشيهم﴾[٥٨]، ﴿فارسل فرعون في المدائن حاشرين﴾[٥٩]، وهو الذي طغى واستعلى في الارض ﴿وان فرعون لعالٍ في الارض وانه لمن المسرفين﴾[٦٠]، ﴿اذهبا الى فرعون انه طغى﴾[٦١]، ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[٦٢].

ولا شك ان احفاد فرعون اليوم يمارسون طرقاً فكرية تؤدّي الى نتائج تشابه ما ادت اليه سياسة فرعون، وهي السيطرة على الحكم والنظام الاجتماعي بالقوة، وأقرب مثال على ذلك هو سياسة النظام الرأسمالي الغربي، فان اخطر فكرة يرهبها ذلك النظام هي فكرة «العدالة الاجتماعية»، ولذلك فاننا لا نتحسس لصدى هذه الكلمة، في الساحة الاعلامية، أو الفكرية، أو السياسية الرأسمالية، بل يحاول ذلك النظام، بكل جهد، استبدال كلمتي «العدالة الاجتماعية» بـ«الحلم الامريكي».

والحلم الامريكي فكرة مزيفة، تحاول الايحاء لافراد النظام الاجتماعي، بأن جمع الثروة الاجتماعية وتراكمها مبني، حسب الفكرية الرأسمالية، على اساس الجهد والعمل، ولكنها تتناسى بان الثروة العينية الموجودة في المجتمع، لما كانت ثروة محدودة بحدود توفر النقد المتداول، اصبح تحقيق (الحلم الامريكي) اداةً لحرمان بقية الافراد الذين يعيشون، على نفس الارض الاجتماعية، لان أيّة زيادة مالية، في طبقة اجتماعية، تؤدي الى اختلال اقتصادي واجتماعي، ونقيصةٍ في الطبقات الاجتماعية الاخرى.

وعلى ضوء ما ذكرناه، فان الطبقة الرأسمالية الغنية المتحكمة بشؤون النظام الاجتماعي تحاول ادانة الفقراء والمظلومين، ووصمهم بالفشل الاقتصادي، في جني الاموال، فتزعم بان الفقراء والمستضعفين كان لهم قدر من الذكاء والمهارة لما استغرقت رحلتهم من صحراء الاحلام، الى شاطيء الواقع وقتاً طويلاً، وهذا الالصاق الفكري تستخدمه الطبقة الرأسمالية الحاكمة، حتى تبقى متمسكة بمواقعها السياسية والاجتماعية القوية، وهذا الاسقاط النفسي، بلوم الفقراء على فقرهم، وتشجيعهم على الايمان بالخط والمصير المكتوب ونحوها يخدم النظام الرأسمالي، لأنه يحاول تخدير الفقراء الى أمد غير محدود، ولذلك فان أيّة حركة فكرية تحاول ايقاظ الغافلين من غفلتهم ونومهم تواجه

باقسى واعنف الوسائل.

والاسلام بكل ابعاده العبادية والاجتماعية، خصوصاً فيما يتعلق بفكرة العدالة الاجتماعية، يمثل هذه الحركة الموضوعية التي تحاول ايقاظ هؤلاء النائمين من نومهم العميق، ولذلك فان محاربته تستدعي استخدام اقسى وسائل البطش والتنديد، على عكس الديانات الاخرى التي تشجعها الانظمه الاجتماعية الظالمة، كالهندوسية مثلاً التي تؤمن بان روح الفرد المطيع تحل في أجسام افراد الطبقة العليا في المجتمع، وروح العاصي لتعاليم الهندوسية تحل في اجسام افراد الطبقة الفقيرة، لأن الفقر ما هو الا عقابٌ للارواح العاصية، فلا يستطيع حنيئذٍ أن ينتقل الأفراد من الطبقة الفقيرة المحكومة الى الطبقة الثريّه الحاكمة.

والنظام الكنسي النصراني في القرون الوسطى كان عوناً للنظام الاقطاعي السائد في اوروبا، فطالما كان الملك مفوضاً من قبل الله سبحانه وتعالى بالتصرف بأرواح وأموال وأعراض الناس، فان الجرائم المنسوبة للطبقة الحاكمة انّما هي نتيجة طبيعية للارادة الالهية والعمل الرباني، وليس للافراد دخل في تغييرها أو ادانتها!

اذن ليس غريباً ان نجد افراداً عاشوا آثار تلك الافكار مثل «كارس ماركس» وغيره آمنوا، بعد ان رأوا بأم أعينهم قطائع سلوك رجال الكنيسة ربان الدين افيون الشعوب، وليس هنا شك بانهم كانوا يقصدون النصرانيّة الكنسية في ذلك، لأنهم رأوا آثار أحكام بابوية القرون الوسطى الزاعمة بأن النظام الاجتماعي الظالم لا يجوز تغييره أو ادانته عن طريق الثورة والعنف، لان ذلك النظام ما هو الاّ تصميم الهي للبشرية المعذبة!

وحتى ان فكرة الاستعمار الاوربي للمناطق الآمنة في افريقيا وآسيا، لنهب ثروات العالم الاسلامية، في القرون الأربعة الاخيرة، صورّت من قبل الطبقة الرأسمالية، على أنها من أنبل قضايا الرجل الأبيض، وكان هدفها في الأصل ـ حسب زعمهم ـ رفع غائلة البدائية والمرض والفقر عن رجال المجتمعات المختلفة، ورفع علم الحضارة والتقدم، في ثنايا تلك المجتمعات، وربما اعتقد فقراء المجتمع الرأسمالي في الماضي أن ادعاءات الرجل الاوروبي الأبيض، فيما يتعلق بفقراء العالم صحيحة ولكن تبيّن لهم فيما بعد، أن الذي أستعبدهم لقرون طويلة لا يمكن أن يعدل مع أفراد آخرين يختلفون عنه في الجنس، واللغة، والدين.

وعليه، فان النظام الفكري للطبقة الحاكمة هو الذي يُبقي الظلم الاجتماعي قائماً، مع ان الطبقة قليله العدد والطبقة المحكومة تمثل اغلبية افراد النظام الاجتماعي.

ويأتي المال الذي يعكس ينابع القوة الاجتماعية ليتوّج سيطرة نظام الظلم الاجتماعي على كل مقدرات الحياة الانسانية.

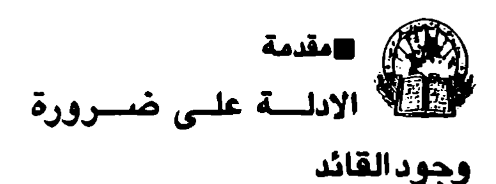
● الهوامش:

(١) الطلاق: ٦.
(٢) القصص: ٢٥ـ ٢٦.
(٣) النساء: ٢٤.
(٤) الزخرف: ٣٢.
(٥) مجمع البيان ٩: ٦١.
(٦) نهج البلاغة: باب فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان.
(٧) الاعراف: ٧٣.
(٨) الاعراف: ٨٥.
(٩) الحجرات: ١٣.
(١٠) المعارج: ٢٤.
(١١) التوبة: ١٠٣.
(١٢) البقرة: ٢٧١.
(١٣) الانفال: ٤١.
(١٤) التوبة: ٦٠.
(١٥) المائدة: ٩٥.
(١٦) الكوثر: ٢.
(١٧) البقرة: ١٩٦.
(١٨) البقرة: ٢٧٤.
(١٩) الحشر: ٩.
(٢٠) النور: ٣٢.
(٢١) جواهر الكلام ١٦: ٥٩.
(٢٢) الوسائل ٤: ١٤٨.
(٢٣) الذاريات: ١٦، ١٩.
(٢٤) التوبة: ١٠٣.
(٢٥) البلد: ١١ـ ١٦.
(٢٦) البقرة: ٢٧١.
(٢٧) الحج: ٢٨.
(٢٨) آل عمران: ٩٢.
(٢٩) البقرة: ٢٦٧.
(٣٠) البقرة: ٢٦٢.
(٣١) البقرة: ١٧٧.
(٣٢) من لا يحضره الفقيه ١: ٣.
(٣٣) الزمر: ٩.
(٣٤) النحل: ٩٠.
(٣٥) الحجرات: ١٣.
(٣٦) النحل: ٧٦.
(٣٧) البقرة: ٢٩.
(٣٨) الأسراء: ٧٠.
(٣٩) الهمزة: ١ـ ٤.
(٤٠) الماعون: ١ـ ٣.
(٤١) آل عمران: ١٨٠.
(٤٢) البقرة: ٢٦١.
(٤٣) البقرة: ٢٥٤.
(٤٤) التوبة: ٦٠.
(٤٥) الاسراء: ٢٦ـ ٢٧.
(٤٦) يونس: ٨٨.
(٤٧) الاسراء: ٦.
(٤٨) التوبة: ٦٩.
(٤٩) القصص: ٧٦.
(٥٠) القصص: ٣٨.
(٥١) غافر: ٣٦.
(٥٢) الشعراء: ٢٣.
(٥٣) غافر: ٢٩.
(٥٤) يونس: ٨٣.
(٥٥) يونس: ٧٩.
(٥٦) الاعراف: ١٢٣.
(٥٧) طه: ٦٠.
(٥٨) طه: ٧٨.
(٥٩) الشعراء: ٥٣.
(٦٠) يونس: ٨٣.
(٦١) طه: ٤٣.
(٦٢) طه: ٧٩.

صفات القائد في القرآن الكريم

سيد جعفر اميري

تعريب: السيّد علي جمال أشرف



■ مقدمة

الادلـــة علـى ضـــرورة وجود القائد

١ـ الفطرة:

ان ثمة حقيقـة يشهد بها التـاريخ، منذ انطلاقته الاولى، وهي أن الامم والمجتمعات، مهما كـانت صغيرة أو كبيـرة، متحضرة او بدائية، متطورة أو متخلفة، لم تخلُ يوما عن وجود القـادة والائمة، الذين يأخـذون زمام الامور بـايديهم، ويحـركون دفّـة المجتمع، ويقـودونـه عبر الاجيـال المتـلاحقـة. ولم يتأسس مجتمع قط، ولم تقم أمة بدون قائد وامـام. عادلاً كـان أو ظالمـاً، رفيقاً كـان ام جائراً، مـؤمنا كـان أم كافـراً، خيرّاً كـان ام شريـراً. بل نرى ذلك حتى فـي التشكيلات الاجتماعيـة الصغيرة، التي لا يتجـاوز عدد افرادهـا بضعة اشخاص، من قبيل الاسرة وما شاكل، وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على أن الشعـور بضـرورة القـائد والامـام شعور فطري واحساس غريزي ناشيء من فطرة الله التي فطـر الناس عليها، ولمـا كان الاسـلام دين الفطـرة، وقـد شـرع جميـع احكامـه وتعاليمه علـى اساسها، وانطـلاقاً منها، فلابـد انه لم يقف ساكتاً صـامتاً، في قضية استراتيجية مهمة ضـاربة بجذورها في اعماق الفطرة الانسانيـة، ولابد انه حدّد موقفه فـي القياده والامامة، بـاعتبار دورها الاساسـي الفاعل، في تحـديد مصيـر الامة والانسـان، بشكل عام، ولابـد انه عين افراداً مـؤهلين، يتصـدون الـى حمل اعبـاء هـذه المسـؤولية الجسيمـة، ولا يمكن ان يكـون هؤلاء النفر سوى الائمة المعصومين عليهم السّلام، وبهذا يستجيب الاسلام الى الفطرة البشرية، في هذه القضيه، كما هو الحال في كل تشـريعاته، وينقـذ الانسان من حيـرته وضلالته.

٢ـ برهان اللطف والحكمة:

لطف الله وحكمته اللامتناهية تقتضيان أن لا يترك الناس سدى، بعد نبيهم، وذلك لنفس الفلسفة التي جعلت بعث الانبياء ضرورة، وهذه الضرورة بذاتها تقتضي ان ينصب الله هادياً واماماً لعباده، ليستلم زمام الامة، ويقودها في غياب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، لئلا ينفرط عقد الامة، وتذهب اتعاب الرسول ادراج الرياح.

وهل يعقل ابداً أن يترك الله عباده بلا راعي ولا امام، بعد ان ختم النبوة، وأنهى الرسالات، وانقطع الوحي، وهو الله اللطيف الرؤوف، الذي خلق الانسان، في احسن تقويم، وسخر له ما في السماوات وما في الارض.

والله الذي خلق حاجب الانسان، ليحمي عينه[١] يترك الامة، بعد النبي، ليس لها من يقودها، في طريقها الى الله، وسعيها نحو سعادة الدارين؟ هل أن حماية العين أهم من حماية الامة؟ وهل ان الحاجب أهم من القائد؟ اليس وجود الامام، بعد النبي، ضرورة تقتضيها حركه الانسان نحو الكمال والسعادة؟ وهل يمكن للامه الاسلامية أن تحيا في ظل السعادة بدون امام؟ الا تنتقض حكمة الباري، اذا بقي الناس سدى، لا مرشد ولا دليل، ولا قائد يحقق لهم الاهداف السماوية، ويهديهم الى صراط مستقيم؟

٣ـ ضرورة وجود القيم:

لا توجد أية مؤسسة، أو منظمة تستغني عن مسؤول قيم مطلع على جميع الشؤون الخاصة بتلك المؤسسة، بحيث يسهر على حمايتها وتحقيق اهدافها. والاسلام اعظم مؤسسة بشريه في العالم تكلفلت ــ من خلال الاحكام والتعاليم ـ بالاستجابة لجميع ابعاد الانسان، وبناء حياته ومجتمعه، الى يوم القيامة.

ولا شك أن ثمة قوانين وأحكاماً لا يمكن تنفيذها الا بوجود الامام، وما دام النبي حياً فهو الذي يقوم على ذلك، فاذا مات قام من بعده افراد ذوو صلاحية وأهلية، معصومون من الزلل والخطل، ولا يعرف هؤلاء الا الله، فكما اختار أنبياءه يختار لهم خلفاء أوصياء يقومون بالامر بعدهم.

وبعد هذه المقدمة، ننتقل الى الكتاب والسنة، لنعرف خصائص الامام، وصفاته ووظائفه، على ضوء القرآن الكريم.

الامامة

معنى الامامة

وقد استعمل القرآن لفظ الامام في

مورد الحق والباطل:

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[2].

﴿وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾[3].

ضرورة القائد في المجتمع:

الانسان اجتماعي بالطبع، ولهذا يجب أن يعيش ضمن أطر قانونية، ويخضع لقيادة تدير دفّة شؤونه، وبديهة العقل تحكم ان الانسان لا يمكن أن يعيش حياة اجتماعية، بدون وجود القائد.. الا وان لكل مأموم اماما، يقتدي به ويستضيء بنور علمه[4].

ضرورة وجود امام الحق في المجتمع الاسلامي:

لقد استعمل القرآن كلمة «الامام» بمعنى خاص، ذي خصائص معينة، ذكرتها الآية التالية:

﴿واذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فاتمهن قال اني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[5].

وفي الآية نكات عديدة نتعرض لبعضها:

١ ـ ان الامامة منصب اجتماعي، كما يفيد قوله ﴿جاعلك للناس اماما﴾ وهذا هو المعنى اللغوي أيضاً.

٢ ـ مقام الامامة اعلى رتبة من مقام النبوة، لان ابراهيم كان نبياً الا انه خضع لامتحان عسير وابتلاء شديد، فلما نجح فيه نال مقام الامامة.

٣ ـ لما كانت الامامة عهداً فلابد أن يكون تنصيب الامام بيده وحده.

٤ ـ تنتقل الامامة من الامام الى المعصوم من ذريته، ولا تنتقل الى الظالم المذنب منهم، وليس لاحد ان يعرف الظالم المذنب حقيقة الا الله الخبير البصير.

فلابد أن يكون الامام طاهراً منزّهاً عن الرجس والذنوب ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ ونحن نعلم ان المذنب ظالم لقوله تعالى: ﴿ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه﴾[6].

والاية ﴿واذ ابتلى ابراهيم ربُّه..﴾ تشير الى قصة اعطائه الامامة وحبائه بها، والقصه انما وقعت في اواخر عهد ابراهيم عليه السّلام، بعد كبره، وتولد اسماعيل واسحق له، واسكانه اسماعيل وامه بمكة، كما تنبّه به بعضهم أيضاً، والدليل على ذلك قوله عليه السّلام، على ما حكاه الله سبحانه، بعد قوله تعالى ﴿اني جاعلك للناس اماماً ومن ذريتي﴾ فانه، قبل مجيء الملائكه

ببشارة اسماعيل واسحق، ما كان يعلم ولا يظن ان ستكون له ذريّة من بعده، حتى انّه بعد ما بشرته الملائكة بالاولاد خاطبهم، بما ظاهره اليأس والقنوط، كما قال تعالى **﴿ونبأهم عن ضيف ابراهيم * اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون * قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتموني على ان مسني الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾**(٧).

والاية مع ذلك تفيد ان الامام لا يخلو عنه زمان من الازمنة، وعصر من الاعصار(٨) قال تعالى **﴿يوم ندعو كل اناس بامامهم﴾**(٩).

الفرق بين الامام والرسول:

قد ينال الانسان مرتبة الرسالة، دون أن ينال مرتبة الامامة، وذلك لان وظيفة الرسول هي الدلالة والارشاد واراءة الطريق ليس الا، بينما الامام مسؤول عن تطبيق احكام الله، وتنفيذ تعاليمه، والبلوغ بالامامة الى الهدف المطلوب، وتربية الناس ظاهراً وباطناً، فهو مسؤول عن اقامة حكم الله، وتطبيق الأحكام، فيما تنحصر رسالة الرسول في الابلاغ فقط.

البرهان العقلي على ضرورة وجود الامام في كل عصر:

يقوم البرهان العقلي على ضرورة وجود الامام، من أجل تبين المعارف الاسلامية والأحكام السماوية على أربع مقدمات:

١ ــ ان النبي الأكرم خاتم الرسل وستبقى أحكامه وتعاليمه الى يوم القيامة.

٢ ــ القرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة وستبقى كذلك الى يوم القيامة.

٣ ـ بعض آيات الكتاب الكريم تحتاج الى بيان وتوضيح حيث لم تبيّن في عصر الرسول.

٤ ـ لم تبين الاحكام والمعارف الالهية، في زمن الرسول، على الصورة التي تغني المسلمين تماماً، بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وبهذا فهي تحتاج الى مفسر ومفصل، يبين الفروع والاختلافات، ويقوم على تطبيقها وتنفيذها، في حياة الناس، وهو ما نطلق عليه اسم الامام، الذي يحكم العقل بضرورة وجوده، في كل عصر وزمان.

آية اولى الامر:

﴿يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والى الرسول..﴾(١٠).

نلاحظ ان اطاعه الرسول واولى الامر قرنت باطاعة الله، فأي امر يصدر من الله ورسوله وأولى الامر تجب اطاعته اذن.

وجوب اطاعة أولي الامر:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى اللهُ ورسولهُ امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا﴾[١١].

فكل ما يأمر به الله ورسوله يجب اطاعته على المؤمنين، وقد أمرا باطاعة أولي الامر وعيّناهما، فلابد اذن من وجوب اطاعتهم، ومن عصى فقد ضل ضلالاً مبيناً.

عصمة الامام في الآية:

قبل الانتقال الى تشخيص أولى الامر، نود الفات النظر الى العصمة التي تشير اليها الاية، وذلك ان الآية امرت باطاعة الرسول واولى الامر، بشكل مطلق، فلابد ان تكون اوامرهم ونواهيهم موافقة لرضا الله سبحانه وتعالى دائماً وابداً، لاننا اذا تصورنا انهم يمكن ان يأمروا، أو ينهوا بما يخالف رضا الله جل وعلا، لكانت النتيجه ان الاية باطلاقها تدل على وجوب اطاعة من يخطأ ويذنب، وحينئذٍ يتعارض هذا الاطلاق مع اطلاق الايات، التي تنهى عن اتباع الشيطان وخطواته مطلقاً، فاما أن نرفع اليد، عن اطلاق وجوب اطاعة الرسول واولى الامر، أو نرفع اليد عن اطلاق النهي عن اتباع الشيطان واوليائه.

وكلا الامر غير ممكن بحال لان ادعاء ان الآية مقيدة بقرينه عقلية «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ادعاء باطل، وكذلك الامر بالنسبة لتقيدها بالايات الاخرى، نظير قوله تعالى **﴿ان الله لا يامر بالفحشاء...﴾**[١٢] اضف الى ذلك، لو أننا قلنا بعدم عصمة الرسول واولى الامر، واحتمال صدور الذنب والخطأ عنهم وقلنا ان مفاد الآية: اطيعوا الرسول واولى الامر فيما لم يخالفوا فيه اوامر الله ونواهيه، لما كانت، والحال هذه، مزية للرسول واولى الامر بتاتاً، فكل فرد قادر على الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويجب على الناس جميعاً وجوباً ارشادياً اطاعة الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، مهما كان، فاي مزّية اذن للرسول واولى الامر حتى ذكرتهم الآية ونصّت عليهم.

وعلى فرض احتمال صدور الاوامر والنواهي عن الرسول واولى الامر، بما يخالف رضا الرب، ولو اشتباهاً، وعن غير عمد، لنبه القرآن على ذلك، واستثنى هذا الاحتمال حتماً، كما هو دأبه، في مثل هذه

الموارد، من قبيل الامر بإطاعة الوالدين، حيث امر بأطاعتهما، ثم استثنى فوراً حالة من الحالات حيث قال: **﴿وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾**[١٣].

اذن فلا مناص من قبول دلالة الاية على عصمة اولى الامر، وقد وافق على ذلك «الفخر الرازي» امام المشككين، بيد انه اشتبه في تعيين مصداق اولى الامر فادعى انه «الاجماع».

مصاديق اولي الامر:

الولي: الولاء والتوالي: ان يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ويستعار ذلك للقرب[١٤]، فيقال لحبات السبحة انها متوالية، لقرب بعضها من بعض، ويقال للقضايا الشرطية، التي تأتي بعدها النتيجة مباشرة «التالي».

من هم أولو الامر في الآية؟

يمكن استكشاف مصاديق اولى الامر، المشار اليهم، في الآية بطرق ثلاث:

١ـ تفسير الآية بآيات قرآنية اخرى.

٢ـ الاستفادة من نص الآية نفسها.

٣ـ الاستفادة من الروايات الواردة عن الرسول الاكرم بطرق الفريقين.

اما الطريق الاول:

فيمكن ان نجعل بعض الآيات الى صف البعض الآخر، فنكتشف معنى الآية التي كانت تبدو مجملة، او متشابهة، من خلال تجميع المعاني الواردة في الآيات المختلفة. «والقرآن يفسر بعضه بعضا»[١٥]:

﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم﴾[١٦].

﴿انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[١٧].

١ـ لا شك ان الركوع المذكور في الاية ليس بمعنى الخضوع، وانما هو ركوع الصلاة خاصة.

٢ـ «الولي» في الآية ليس بمعنى «المحب» و«النصير» لأن الولاية بمعنى الحب والنصرة لم تكن خاصة بمن يعطي الزكاة، وهوالراكع في الصلاة، وانما هو حكم عام يشمل المسلمين جميعاً، وعلى المسلمين جميعاً ان يحب بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، حتى على أولئك الّذين لم تجب الزكاة عليهم.

٣ـ من هنا تبين أن المراد بالولي في الآية الولاية بمعنى القيمومة والتصرف، والامامة المادية والمعنويةو لاسيما إذا

أخذنا بنظر الاعتبار ورودها في سياق واحد، وعلى حد سواء، والى جانب ولاية الله وولاية الرسول.

٤ـ فالاية، اذن، من الآيات التي تنص على ولاية علي(ع)، من خلال العنوان، الذي اعطته اياه.

روايات في شان نزوله الآية

وقد وردت روايات عديدة وكثيرة جداً، في كتب الفريقين: شيعة وسنة، تنص على أن الآية نزلت في حق علي(ع)، أخرج صاحب كتاب «غاية المرام» ٢٤ حديثاً منها عن طريق السنة، و١٩ حديثاً عن طريق الشيعة، واخرجت في اكثر من ثلاثين كتاباً، من امهات المصادر السنية منهم: المحب الطبري، في ذخائر العقبى: ٨٨، والقاضي الشوكاني، في تفسير فتح الغدير٢:٥ وجامع الاصول٩:٤٧٨، واسباب النزول للواحدي:١٤٨، ولباب النقول للسيوطي:٩٠، وتذكرة الخواص لسبط بن الجوزي:١٨ الكافي الشافي لابن حجر العسقلاني:٥٦، ومفتاح الغيب للرازي٣:٤٣١، والدر المنثور٢:٢٩٣، وكنزالعمال٦:٣٩١، ومسند ابن مردوية ومسند ابن الشيخ، اضافة الى صحيح النسائي، والجمع بين الصحاح الستة.. وغيرها من كتب الحديث الاخرى (١٨) وعدّد صاحب الغدير٦٦ اسماً من أكابر الصحابة كلهم قالوا: ﴿الذين آمنوا...» علي بن ابي طالب(ع).(١٩)

نكتة في الآية

﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والى الرسول﴾

تتضمن الآية نكتة طريفة اشار اليها باختصار المرحوم «آقا نور العراقي» في تفسير «القرآن بالعقل» وخلاصة القول فيها، أن صدر الآية يقول: **﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم﴾** والمقطع الثاني منها: **﴿فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والي الرسول﴾**، فلابد من الرجوع ـ بحكم الآية ـ الى الله و رسوله، والعمل بما يحكمان ويتولان.

وقد اتضح من خلال الاستدلالات السابقة، في المقدمة وغيرها، ومن تفسير الآية بالآيات الاخرى، ومن الروايات والآثار المنقولة عن عدد كبير، من علماء السنة، أن المراد من أولى الأمر الَّذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة وهم الراكعون، الواردة بعد الله ورسوله، في هذه الآية، هوعلي بن أبي طالب(ع) بالذات.

آية التبليغ:

﴿يا أيها الرسول بلّغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لايهدي القوم الكافرين﴾[٢٠].

فقوله: **﴿والله يعصمك من الناس...﴾** يدل على أن الحكم، الذي آمر النبي بتبليغه الى الناس امرمهم عظيم، بحيث يشكل تبليغه خطراً على الدعوة، أو على حياة الرسول الكريم، فوعده الله بأنه يعصمه من الناس، ولابد أن يكون هذا التبليغ تبليغاً مهماً في غاية الاهمية، بل حتى أهم من التوحيدّ ونفي الشرك؛

والآية تدل، أيضاً، على أن هذا الامر كان نازلاً على النبي الكريم، وكان النبي يؤجل تبليغه الى الوقت المناسب، فيؤجله من اليوم الى غد هكذا، لانه كان يخاف من تبليغه، ولاشك ان خوفه(ص) لم يكن خوفاً على نفسه وشخصه، بدليل قوله تعالى: **﴿ويخشونه لايخشون أحداً الا الله...﴾**[٢١] التي نفت أن يخشى النبي أحداً سوى الله سبحانه وتعالى فلابد أن يكون الخوف خوفاً من الناس ان يرفضوا هذا الامر ويتهموا النبي، ويرتدوا عن الدعوة، ولهذا قال الله: **﴿والله يعصمك من الناس﴾** وبناءً على هذا يتضح لنا أن الآية تتطابق تماماً مع ما أخرجه السنة والشيعة من أن الآية نزلت في ولاية علي بن أبي طالب.[٢٢]

وان آية التبليغ نزلت يوم الثامن عشر من ذي الحجة، عام حجة الوداع، وقد اورد في الدر المنثور خطبة طويلة للنبي(ص)، في التبليغ جاء فيها: «فان الله مولاكم وعلي امامكم ثم الامامة في ولدي من صلبه الى القيامة».

وقال فيها أيضاً:

(اللهم وال من والاه وعاد من عاداه والعن من انكره واغضب على من جحد حقه اللهم انك انزلت عند تبيين ذلك في على «اليوم اكملت لكم دينكم» بامامته، فمن لم يأتم به وبمن كان من ولدي من صلبه الى القيامة فاولئك حبطت اعمالهم وفي النارهم خالدون...)

وكلا المقطعين يدلان، بوضوح، امامة علي وولده من صلبه، بعد النبي الى قيام الساعة، ثم يعدد السيوطي زهاء ثلاثين اسماً من اسماء كبار الصحابه والتابعين والعلماء السنة، ممن قالوا ان الآية نزلت في علي بن أبي طالب[٢٣].

آية الاكمال

﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغيرالله به...اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾[٢٤].

لاشك أن قوله تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا... ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ مقطع مستقل تماماً عن صدر الاية وذيلها، وقد يكون سبب وجودها، في وسط هذه الاية، كجملة معترضة، انها نزلت بهذه الصورة، وقد يكون النبي وضعها في هذا الموضع من الاية، وقد تكون أُقحمت في هذا الموضع بالذات، عندما جمعوا القرآن بين الدفتين وعلى كل تقدير فان الاية تبشر المسلمين بيأس الكفار من دينهم، وظهوره على أولئك المشركين، وكماله وارتضائه من الله لهم، وهذا المعنى لا علاقه له، من قريب أو بعيد، بصدر الاية ولا بذيلها.

والسؤال المطروح الان هو أي يوم هذا اشارت اليه الآية؟ وماذا حدث في هذا اليوم بحيث أدّى الى يأس الكافرين؟

ذهب البعض الى ان الآية لا تدل على وقوع أية حادثه، أو امر عظيم، وانما هي تشير الى عظمة المسلمين، في ذلك اليوم، وقوة شوكتهم، واشتداد عودهم، وغلبتهم على الكفار، وتطهير البيت الحرام، من براثن الشرك، ليس إلاّ، والمراد بلفظ اليوم الزمان تماماً، كما نقول ان فلاناً كان بالامس طفلاً يدرج فاصبح اليوم شاباً يافعاً.

ويرد على هذا الادعاء اشكالات عدة:

١ ــ ان لفظ اليوم يستعمل بالمعنى المذكور، ولكنه استعمال مجازي، ومادام العمل على الاستعمال الحقيقي ممكن، فلا سبيل للحمل على المعنى المجازي ابداً.

٢ ـ اذا كانت هذه الدعوة صحيحة، لكان الاولى أن تنزل الآية يوم فتح مكة، لان اليوم الذي سيطر فيه المسلمون، وانتصروا على الكافرين، وهزموا فلولهم، بينما لم نسمع أحداً قال بنزول هذه الآية في ذلك اليوم.

٣ ـ ان هذه الآية تنص على اكمال الدين بصراحة، ولنا أن نسأل: هل انزل الله احكاماً وتشريعات، بعد نزول هذه الآية أو لا؟ نان كان قد انزل فكيف تنص الآية على كمال الدين، والدين بعد لم يكمل، وان كان لم ينزل تبين أن الآية نزلت في آواخر عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ويعتقد الشيعة ان الاية نزلت في يوم غدير خم (١٨ ذي الحجة سنه ١٠هجرية) في منصرف الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم من حجه الوداع.

وكان المشركون والكفار على العموم يومها قد تلقوا صفعات قاتلة وضربات قاضيه من المسلمين، حطمت أصنامهم وكيانهم، وابادت كيدهم، ومحت آثارهم، وازدهرت على اثرها ايام المسلمين، وارتفعت راياتهم، حتى تأكد المشركون انهم لا يقدرون على التعرض للمسلمين، ما دام الرسول فيهم، فانتظروا موته، وقالوا اذا مات محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وليس له عقب، لم يكن من يقوم مقامه، وحينئذٍ يصبح المسلمون بلا قائد ولا راعٍ وامام، يجمع شملهم، ويوحد كلمتهم، وننقض عليهم، وعلى دينهم، وينتهي كل شيء.

فلما قام رسول الله، في غدير خم، ونصب الامام والخليفة من بعده بامر الله تحول امر القيام بالدين من الحامل الشخص الى الحامل النوعي، وضمن مستقبل الدعوه، بعد وفاه النبي، فيئس الكفار يأساً ليس فيه أمل بتاتا.

تبين ان الامامة ضمان لاستمرار قياده المعصوم (النبي الاكرم) وأن تعيين الامام المعصوم مكمل للدين، ومتمم للنعمة، ومرضاة للرب.

وقد ذكر صاحب الغدير ١٦ مصدراً، من مصادر اهل السنة، كلها تقول أن الاية نزلت يوم الغدير، واليك هذا الحديث كمثال على ذلك:

أبو الفتح النظري روى في كتابه «الخصائص العلوية» عن ابي سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله الانصاري، أنهما قالا: لما نزلت **﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾** الآية قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الله اكبر على اكمال الدين، واتمام النعمة، ورضى الرب برسالتي، وولاية علي بن أبي طالب عليه السّلام بعدي»[٢٥].

ثلاث نتائج في تعيين الامام من آية الاكمال:

ذكروا ثلاث نتائج مترتبة على نزول آية الاكمال، يوم الغدير، وتنصيب علي عليه السّلام اماماً على الخلق، بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

١ ـ اكمال الدين، وبدون الامام يبقى الدين ناقصاً.

٢ ـ اتمام النعمة، وبدون الامام لم تتم النعمة.

٣ ـ رضا الرب بالاسلام ديناً للمسلمين، وبدون الامام لا يرضى الله بالاسلام ديناً للمسلمين:

الامام هادٍ للحق:

﴿قل الله يهدي للحق أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع امن لا يهدي الا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾[٢٦].

وهذه الآية، علاوة على انها كلام الله، فهي حجة عقليه اعتمدها بعض المؤمنين، وقد قوبل، في الآية، بين الهادي الى الحق، وبين غير المهتدي الا بغيره، اعني المهتدي بغيره، وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي الى الحق مهتدياً بنفسه، ان المهتدي بغيره لا يكون هادياً الى الحق البتة، ويستنتج من هذا ان الامام يجب ان يكون معصوماً عن المعصية، والا كان غير مهتد بنفسه، وان من ليس بمعصوم لايكون اماما هادياً الى الحق ابدا[٢٧].

والهداية للحق تعني الايصال الى عين الحقيقة والواقع، وهذا خاص بالله وحده، أو من هداه الله مباشرة، وبلا واسطة، ومن هنا يمكننا استفادة عدة امور:

١ ــ المــراد من الهــدايــة الى الحــق «الايصال الى المطلـوب» و«تحقيق الهدف» وليس الهـدايـة بمعنى اراءة الطـريق الـذي ينتهي الى الحق.

٢ ـ المراد مـن قوله ﴿أمّن لا يهدي الا أن يهدى﴾ يهـدي مـاخـوذه مـن يهتـدي والمقصـود هنا غيـر المهتدي أو المهتـدي بالغير.

٣ ـ الهداية للحق تعني الايصال الى ما هو خاص بالمهتدين ذاتاً، ولا يحتاجون الى واسطة هـداية تقـوم بينهم وبين الله. بينمـا الهدايـة للحق بمعنى اراءة الطريـق، لم تكن خـاصة بـالله والـرسـول والائمة والانبيـاء والاوصياء، ويمكن لغيرهم ان يزاولها ويقوم بها، كما ذكر الله ذلك عـن مؤمن آل فرعون. ﴿وقال الذين آمن يا قـوم اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد﴾[٢٨].

ومن الـواضح ان هـذه الهداية «اراءة الطـــريـــق» وليست «الايصـــال الـــى المطلوب»[٢٩].

وقـال الامام البـاقر عليـه السّـلام في حديث:

«... فاما من يهدي الى الحق فهو محمد وآل محمد من بعده وامـا من لا يهدي الا أن يهدى فهو من خالف من قريش وغيرهم أهل بيته من بعده».

قـال العلامـة المجلسـي في ذيل هـذا الحديث:

هذه الآية من اعظم الـدلالة، على امامة أئمتنـا عليهم السلام، لمـن كان لـه قلب، أو القـى السمع وهـو شهيد، لـلاتفـاق علـى فضلهم، وكـونهـم في كل زمـان اعلـم أهل زمانهم، لا سيما امير المؤمنين عليه السّلام، فان اعلميته أشهر من أن تنكر»[٣٠].

طالوت ملك قائد:

﴿وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طـالـوت ملكـاً... ان الله اصطفـاه عليكم وزاده بسطـــة فـي العلـم والجسـم والله يؤتي ملكه من يشاء...﴾[٣١].

والقائد هنـا هو الملك الذي بيـده زمام الامور ولابد ان يتحلى بصفتين:

أ ــ العلم الكثيـر، الذي يـؤهله لقيـادة المجتمع، وادارته ادارة صحيحة.

٢ ـ القوة والشجاعة الكافية، لئلا يتسلل الخوف اليـه، والخوف يـؤدي الى الهـزيمة والاندحار.

قال الله تعالى في شأن اولياء الله:

﴿الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[٣٢].

وفي هذه الآية اشـارة طريفة، حيث أن من يتبع الله، ويكون عبداً له، يعمل بما أوجبه

الله عليه، وينتـه عما نهـاه عنه، فكـل خطوة يخطوها هي نصر محقق، حتى اذا استشهد، في سبيل ذلـك، فشهادته ذات النصـر، ولما كـان النصر مـلازمـاً دائمـاً وابداً لخطـوات أولياء الله، فلا مبرر لخوفهم وحزنهم، ولذلك لا يخافون ولا يحزنون.

انـواع القيـادة في المجتمـع الاسلامي:

يمكـن تصـور القيــاده في المجتمـع الاسلامي، بعدّة صور مختلفة:

١ـــ القـائد بمعنـى الامـام المعصـوم، ولربمـا كان بعـض الانبياء أئمـة، وذلك لأن مقام الامـامة فـوق مقام النبـوة والرسـالة، وهي مقام من يطبق احكام الله، يعني يستلم الحكم ويتـرأس الحكـومـة، ولابد أن تكـون الامة وصلت الى مستوى لا تقبل سوى حكم المعصوم، والاّ فهي غير منفذه لامر الله وأمر رسوله.

مقام النبـوه مكلف بايصـال احكام الله الى الناس، لكن ليس عليه أن يبلغ الاحكام الا اذا سئل عنها.

ومقـام الرسـاله أعلـى رتبة من مقـام النبـوة، حيث يستلم الحكـم من الله، ويبلغـه الى الناس، ولكن ليس عليـه تنفيذه وتطبيقه (اراءة الطريق).

ومقـام الامـامـة هـو تطبيق حكـم الله ورسوله، وتنفيذه علـى الناس (الايصال الى المطلوب).

٢ـ القـائد بمعنى الامام والحاكـم غير المعصـوم، الذي ينبغي ان يحكـم المجتمع الاسلامي في زمن الغيبة ويعمل فيهم بحكم الامام.

كيف نعرف الامام المعصوم؟

١ـ اقـوال الرسول الكـريم، حيث يعين النبي الامـام والخليفـة، من بعـده، والامـام يعين الامام الذي يليه وهكذا.

٢ـــ يمكن استكشـاف بعـض صفـات الامام المعصوم وشروطه، من خلال التدبر، في بعض الايات الشريفة.

٣ـ من ادّعى الامامه يجب عليه أن يأتي للناس بمعجزة، أو كرامة تدل على امامته.

ولما لـم يكن ثمة سبيـل للوصـول الى الامام مباشـرة، فلابد من قيام البـديل عنه، ولا يمكن معرفة هذا البديل صفاتاً وشروطاً، الا من خلال الامام نفسه.

صفات الامـام وشروطـه في القرآن الكريم:

للقائد الذي يلي الرسول صلّى الله عليه وآلـه وسلّم شـروط، ذكـرهـا القـرآن وهي كالتالي:

١ ـ **العصمة:** يجب أن يكـون الامـام معصوماً كما استفدنا ذلك من آية ١٢٤ البقرة

وآية ٥١النساء.

٢ ـ العدالة: طبقاً للآية ٥٨ من سورة النساء، يجب ان يكون الامام عادلاً: **﴿ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيرا﴾**.

٣ ـ هاد الى الحق: والهداية الى الحق من صفات الامام القائد[٣٣]. **﴿فمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع أمّن لا يهدّي الا ان يهدى﴾** والهادي الى الحق ـــ كما يقول العلامه الطباطبائي ـــ يقابله الهادي بغير حق، ولهذا يجب ان يكون الهادي الى الحق مهتدياً بالذات، لا يحتاج الى وسيط يهديه الى الله، وعليه لابد أن يكون معصوماً عن الخطأ والذنب والضلال. **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا واوصينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾**[٣٤].

ولما كانت الاية تتحدث عن مقام الرسالة، لذلك فاننا نطرح الخصوصيات المتعلقة بالرسالة، ونأخذ ماسواها من صفات:

﴿وجعلناهم أئمة﴾: امامتهم مجعولة من قبل الله.

«يهدون بامرنا» ثمرة الامامة الهداية بأمر الله.

﴿واوصينا اليهم فعل الخيرات﴾ اذا كان الوحي تكوينياً فهو خاص بالانبياء، واذا كان الوحي تشريعيا فهو يشمل الامامة أيضاً، اي اننا جعلنا في منهجهم وبرامجهم الدينية فعل الخيرات.

﴿وكانوا لنا عابدين﴾ انهم جميعاً يعبدوننا.

﴿انما انت منذر ولكل قوم هاد﴾[٣٥].

قال الفخر الرازي في تفسيره:

وضع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يده على صدره فقال: «انا المنذر ثم أومأ (بيده) الى منكب علي عليه السّلام وقال: انت الهادي (يا علي) بك يهتدي المهتدون من بعدي»[٣٦].

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[٣٧]

ذكرت الآية ثلاثة شروط للامام:

١ـ يهدون بامرنا.

٢ـ لما صبروا.

٣ـ وكانوا بآياتنا يوقنون.

والمائز الحقيقي، الذي يمكن ان يفرق بين امام الحق وامام الباطل، هو جملة **﴿يهدون بأمرنا﴾** كما ورد ذلك عن الامام الصادق عليه السّلام: «ان الائمة في كتاب الله عزوجل إمامان، قال الله تبارك وتعالى: **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا﴾** الناس يقدمون امر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم وقال: **﴿وجعلناهم أئمة يدعون الى النار﴾**[٣٨] يقدمون أمرهم قبل أمر الله،

وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون باهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزوجل[39].

٤ ـ الصبر:

لما صبروا..

ومن شروط الامامة الصبر، وهذا الشرط ليس خاصاً ببني اسرائيل، وانما هو درس لكل المسلمين بالامس واليوم والغد، ليصبروا على الاذى، في طريق ذات الشوكة، من أجل تحقيق أهداف التوحيد، ثم بالصبر والمقاومة يكونون ائمة الناس اجمعين، ومثال الامم في الابتين والغابرين.

٥ ـ اليقين:

﴿وكانوا باياتنا يوقنون﴾. وهذا اليقين راسخ ومستمر في جميع لحظات العمر، لمكان الفعل المضارع الدال على الاستمرار، في فعلي «يهدون» و«يوقنون»، فالقيادة لا تخلو من مشاكل دائماً وابداً، وللامام ان يتزود بقوة الصبر وقوة اليقين، ليقوى على مكافحة المشاكل ومواجهتها، ويقوم بالهداية بامر الله.

المعصوم يتحدث عن الامامة في القرآن:

اذا راجعنا الروايات وجدناها كثيراً ما تفسر مقاطع من الكتاب الكريم، بمعنى الصفات والشروط الخاصه بالامام. ولك أن تراجع الكافي، او البحار: ٢٤ ولكننا نذكر بعضها على سبيل المثال:

١ ـ حبل الله:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[40].

قال الطبرسي: وقيل في معنى حبل الله اقوال احدها: انّه القرآن، وثانيها: انّه دين الله، وثالثها: ما رواه ابان بن تغلب عن جعفر بن محمد عليه السّلام قال: نحن حبل الله الذي قال واعتصموا بحبل الله (جميعاً)، والاولى حمله على الجميع، والذي يؤيده ما رواه ابو سعيد الخدري، عن النبي، انه قال: ايها الناس اني قد تركت فيكم حبلين ان اخذتم بهما لن تضلوا بعدي احدهما اكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي اهل بيتي الا وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...»[41].

وعن ابي جعفر عليه السّلام قال: «آل محمد عليهم السلام هم حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به فقال: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»[42].

٢ ـ العروة الوثقى:

﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾[43].

عن الباقر، وزيد بن علي عليهم السّلام في قوله: **﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾** قال مودتنا أهل البيت[44].

٣ـ خليفة:

﴿وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم﴾[٤٥].

عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿وعد الله الذين..﴾** قال نزلت في آل محمد عليه السّلام وجاء في دعاء الافتتاح:

اللهم وصل على ولي أمرك القائم المؤمل.. استخلفه في الارض كما استخلفت الذين من قبله مكن له دينه الذي ارتضيته...

٤ـ المستضعفون في الارض:

﴿ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين﴾[٤٦].

قال علي عليه السّلام: فينا نزلت هذه الآية **﴿ونريد ان نمن...﴾**.

وخصص في البحار باباً تحت عنوان باب انهم عليهم السّلام المستضعفون الموعودون بالنصر من الله تعالى.

الامانة تعني الامامة والولاية:

﴿ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيرا﴾[٤٧].

﴿انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فابين ان يحملنها فاشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً﴾[٤٨].

فسرت الروايات الواردة عن المعصومين الامانة بمعنى الامامة والولاية، كما ورد عن الامام الباقر والصادق عليهما السّلام في اصول الكافي ١: ٤١٣ وعن الصادق عليه السّلام في معاني الاخبار، وعن الرضا عليه السّلام في عيون اخبار الرضا، وفي تفسير علي بن ابراهيم ومجمع البيان ٣: ١٣، وبصائر الدرجات: ١٤٠، عن الباقر عليه السّلام، وفي بحار الانوار٢٣: ٢٧٣.

خصائص القائد وامام الحق في القرآن الكريم:

١ ـ العصمة: البقرة: ١٢٤، النساء: ٥٩ و...

٢ ـ هاد بالحق: يونس: ٣٥، الانبياء: ٧٣.

٣ ـ مُنَصَّب من قبل الله: النساء: ٥٩، البقرة: ١٢٤، المائدة: ٦٧.

٤ ـ يجب أن يكون الامام اعلم الناس وافضلهم: يونس: ٣٥، البقرة: ٢٤٨.

٥ ـ صبور: السجدة: ٢٤.

٦ ـ موقن بآيات الله: السجدة: ٢٤.

٧ ـ به يكمل الدين: المائدة: ٣.

٨ـ به تتم النعمة: المائدة: ٣.

٩ـ بالامامة يصبح الاسلام دين الله المرضي عنده: المائدة: ٣.

١٠ـ عادل وحاكم: النساء: ٥٨.

١١ـ طيب الولادة وسعيد الذات بنفسه: يونس:٣٥.[٤٩].

١٢ـ الشجاعة والاقدام: يونس: ٦٢، البقرة: ٢٤٨.

١٣ـ لا يخاف ولا يحزن: يونس: ٦٢.

القائد وامام الباطل:

ذكرنا فيما مضى أن القرآن استعمل مصطلح الامام، في امام الحق وامام الباطل، وقد يستعمل في كلمة الطاغوت أو غيرها ويريد بها امام الباطل، وقد وردت كلمة الطاغوت ثمان مرات، في القرآن المجيد، واستعملت بمعنى الارباب المزيفين أحيانا، وبمعنى الطغاة المتجاوزين احياناً اخرى:

﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾.

﴿ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾[٥٠].

ولاية الله ـ ولاية الطاغوت:

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾[٥١].

الحاكم هو الله ورسوله وليس الطاغوت:

﴿الم تر الى الذين يزعمون ... أنهم آمنوا بما انزل أليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيداً﴾[٥٢].

المؤمنون يقاتلون في سبيل الله والكفار في سبيل الطاغوت:

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا﴾[٥٣].

الارتداد لماذا؟

اطاعة الكفار ارتداد على الاعقاب، وليس فيه سوى الضرر ليس الا **﴿يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾**[٥٤].

لا يكون العدو ولياً للمؤمنين:

﴿يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾(٥٥).

﴿يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين﴾(٥٦).

﴿يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء﴾(٥٧).

وثمة ايات أخرى كثيرة، تنهى المؤمنين عن اتخاذ الطاغوت واليهود والنصارى أولياء، من دون الله، فلا يحبوهم، ولا يودون اليهم بالمودة، فضلاً عن جعلهم أولياء عليهم.

ومن جهة أخرى يبشر القرآن الذين يجتنبون الطاغوت:

﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وانابوا الى الله لهم البشرى﴾(٥٨).

الى هنا تعيّن لنا الامام على ضوء القرآن، وتعاليم الاسلام، وعرفنا المائز بين امام الحق وامام الباطل، والحمدلله اولاً وآخراً.

* * *

● **الهوامش:**

(١) انظر مناظرة هشام بن الحكم وعمر بن عبيد اصول الكافي ١: ١٧٠.
(٢) الانبياء: ٧٣.
(٣) القصص: ٤١.
(٤) نهج البلاغة: خطبه ٤٥.
(٥) البقرة: ١٢٤.
(٦) الطلاق: ١.
(٧) الحجر: ٥٥.
(٨) الميزان ١: ٢٦٧، ٢٧٣.
(٩) الاسراء: ٧١.
(١٠) النساء: ٥٩.
(١١) الاحزاب: ٣٦.
(١٢) الاعراف: ٢٨.
(١٣) العنكبوت: ٨.
(١٤) مفردات الراغب.
(١٥) الميزان ٣: ٤٣.
(١٦) النساء: ٥٩.
(١٧) المائدة: ٥٥_٥٦.
(١٨) تفسير نمونه ٤: ٤٢٤.
(١٩) الغدير ٢: ١٥٢_١٦٢.
(٢٠) المائدة: ٦٧.
(٢١) الاحزاب: ٣٩.
(٢٢) انظر الميزان ٦: ٤٢.
(٢٣) انظر الغدير ١: ٢٢٨_٢١٤.
(٢٥) الغدير ١: ٢٣٠_٢٣٧.

(٢٦) يونس: ٣٥.

(٢٧) الميزان ١: ٢٧٤.

(٢٨) المؤمن: ٢٨.

(٢٩) انظر الميزان ١٠: ٥٧ـ٥٩.

(٣٠) بحار الانوار ٢٤: ١٤٥.

(٣١) البقرة: ٢٤٨.

(٣٢) يونس: ٦٢.

(٣٣) انظر بحار الانوار ٢٤: ١٤٣ ـ ١٥٢.

(٣٤) الأنبياء: ٧٣.

(٣٥) الرعد: ٨

(٣٦) التفسير الكبير ١٩: ١٤ ايضاً في الدر المنثور هكذا.

(٣٧) السجدة: ٣٢.

(٣٨) القصص: ٤١.

(٣٩) الكافي ١: ١٦٨.

(٤٠) آل عمران: ١٠٣.

(٤١) بحار الانوار ٢٤: ٨٢، مجمع البيان ٢: ٤٨٨، الامالي: ١٧١

(٤٢) تفسير العياشي ١: ١٩٤ حديث ١٢٣، بحار الانوار ٢٤: ٨٥، ٩٤.

(٤٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤٤) البحار ٢٤: ٨٤

(٤٥) النور: ٥٥

(٤٦) القصص: ٥.

(٤٧) النساء: ٥٨.

(٤٨) الأحزاب: ٧٢.

(٤٩) الميزان ١: ٢٧٦.

(٥٠) النحل: ٣٨.

(٥١) البقرة: ٨ـ٩.

(٥٢) النساء: ٦٠.

(٥٣) النساء: ٧٨.

(٥٤) آل عمران: ١٤٢.

(٥٥) الممتحنة: ١.

(٥٦) المائدة: ٥٦.

(٥٧) المائدة: ٦٢.

(٥٨) الزمر: ١٩.



علل تكامل المجتمع وانحطاطه

علي نظري منفرد
تعريب: علي اشرف

استخدمنا في العنوان اربع مفردات وهي:

١ـ علل:

٢ـ التكامل:

٣ـ الانحطاط:

٤ـ المجتمع:

ولابد من تحديد معاني هذه المفردات، قبل الخوض في صلب الموضوع:

١ـ العلل:

العلل جمع علة، وتطلق اصطلاحاً على الشيء الذي يلزم من وجوده وجود شيء آخر، ومن عدمه عدم ذلك الشيء وبعبارة اخرى الشيء الذي يتوقف عليه شيء اخر، ويسمى الاول علة، والثاني معلولاً، ولذا قالوا في تفسيرها:

«فهذا الوجود المتوقف عليه نسميه علة، والشيء الذي يتوقف على العلة معلولاً له»[1]

اذن فالعلة هي السبب والمنشأ لشيء آخر.

والعلل المقصودة في العنوان هي عبارة عن مجموعه العوامل والاسباب التي تؤدي الى تكامل المجتمع أو انحطاطه.

٢ـ التكامل:

الكمال في اللغة التمام، وهو ضد النقص، والكامل مالا نقص فيه، سواء كان نقصاً في الاجزاء أو في الاوصاف، وعليه فهو مستعمل في الاوصاف والاجزاء على حد سواء.

قال الراغب: كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه فاذا قيل كمل ذلك نمعناه حصل ما هو الغرض منه.

فالتكامل اذن بلوغ الشيء مرتبة يحصل منه الغرض، من قبيل الشجره اذا غرست ونمت حتى تثمر فاذا اثمرت فقد وصلت حد الكمال، أو الطفل الذي يطوي مراحل النمو الجسدي والعقلي والعاطفي، حتى اذا نضجت مداركه وترشد فهمه قيل له

«كامل».

وعليه فالكمال يكون تارة في تجمع الاجزاء جميعاً، بحيث يحصل الكل، وتارة يكون في تجمع الصفات الملازمة لوجود تمام الاجزاء.

٣ـ الانحطاط:

تستعمل هذه الكلمة في الموارد التي يفقد الشيء موقعه ومكانه المناسب واللائق به، وهو استعمال قريب جداً من المعنى اللغوي:

قال الراغب: الحط انزال الشيء من علو.

وقال الفيومي: حططت الرحل وغيره حطاً، من باب قتل انزلته من علو الى اسفل[٢].

فالانحطاط اذن السقوط من الموقع المطلوب والتزلزل والانحدار عن المستوى اللائق بالشيء.

وانحطاط المجتمع عبارة عن تزلزل له وسقوطه وانحداره، في مزالق التخلف، نتيجة لفقدان القيم التي ينبغي لها أن تحكم المجتمع، سواء كانت قيماً عقائدية أو اخلاقية أو علمية.

٤ـ المجتمع:

المجتمع يقابل الفرد وعرف بأنه:

«مجموعة بشرية ـ مجموعة من الافراد ـــ مترابطة على أساس من السنن والاداب والانظمة والقوانين الخاصة وتعيش بشكل جماعي يتشكل منها المجتمع[٣].

التكامل والانحطاط:

يمكن دراسة التكامل والانحطاط، في المجتمعات، من جوانب مختلفة، وابعاد شتى ينبغي تقسيمها، لنعرف الابعاد والجوانب التي نريد تناولها من خلال البحث.

ويمكن تقسيم التكامل والانحطاط بشكل عام ـــ في البعد العلمي والتجربي والاقتصادي والسياسي والاخلاقي ـــ الى اربعة اقسام:

١ـ التكامل العلمي أو التكنلوجي:

وهذا القسم هو عبارة عن التطور الصناعي والتقني الذي حازته البشرية، اليوم، بشكل نسبي جراء اكتشافها للاسرار المودعة في هذا العالم ولا شك ان النجاح في هذا المجال معلول لجملة من العوامل والاسباب التي توصل اليها الانسان من خلال التجارب والبحوث والتحقيقات، التي كان لها ابلغ الاثر، في حل الكثير، من رموز النجاح في هذا الحقل.

٢ـ التكامل الاقتصادي:

يخضع التكامل الاقتصادي الى جملة من القوانين، التي تحتاج بدورها الى جملة من العوامل والظروف الخاصة، وعلى اساسها يزدهر الوضع الاقتصادي، ويصل حد التكامل أو بالعكس، من قبيل السعي من

أجل زيادة الانتاج وتوزيعه، والخفض من الكلفة وما شاكل، ويطلق على هذه الامور عوامل التكامل أمّا عوامل السقوط والانحطاط الاقتصادي فهي نظير عدم تناسب الحاجات والقوة الشرائية، بحيث يكون الدخل عاجزاً عن سد الحاجات الضرورية، وزيادة التضخم وما شاكل.

٣ـ التكامل السياسي:

التكامل السياسي، أيضاً، يتوقف على جملة من العوامل الاساسية، التي تبلغ بالانسان الى حد الكمال، في هذا المجال، والمقصود هنا السياسة بالمعنى الصحيح، وهي استصلاح امور الناس في الدنيا والآخره، وبناء المجتمع على اساس من المحبة والاحترام لافراد الامه وللامم الآخرى، وحسن الجوار معها، واحترام حقوق الآخرين، وليست السياسة بمعنى التوسعية، والاعتداء على الامم الاخرى، واحتلال اراضيها، واغتصاب حقوقها. فان هذا لا يسمى نضوجاً سياسياً ولا تكاملاً.

وقد ذهب البعض الى أن الانظمة السياسية هي وليدة القضايا الاخلاقية ليس الا:

يقول غوستاف لوبون:

لقد اشرت الى اهمية العناصر الاخلاقية، في بناء الهيكل الاجتماعي، ومدى تأثيرها العميق، في ذلك، وذكرت هناك أن هذه العناصر قادرة على مساعدتنا، في عملية اكتشاف تاريخ امة من الامم، وليست للانظمة والمخططات السياسية اهمية تذكر، في هذا المجال، وذلك لان الانظمة السياسية وليدة الاخلاقيات ومعلولة لها، وليست علة ولا سبباً[٤] وعلى العموم فان الامور السياسية معلولة لعوامل آخرى، من قبيل القضايا الاقتصادية وغيرها، غير أن الاخلاقيات لها دور اساسي فاعل في البناء والتطور السياسي.

٤ـ التكامل الاخلاقي:

وهذا التكامل ايضاً معلول لجملة من العوامل والاسباب الدخيلة في النهوض بالامة أو انحدارها نحو الحضيض، وقد اشرنا سابقاً الى أن ثمة من يعتقد بأن تكامل الامة وانحطاطها منوط اساساً بالقضايا الاخلاقية ليس الا

* * *

وقبل الانطلاق في بيان العلل والعوامل الدخيلة في تكامل المجتمع، وانحطاطه لابد من الاشارة الى نكتتين مهمتين:

١ ـ دور الدين:

دور الدين ومسؤولية الانبياء والرسل ـ بناء على فلسفة البعثة وواجبهم في هداية البشرية ـ تتكرس في ترشيد الامم ودفعها في طريق التكامل وارشادها الى العلل والعوامل التي تؤدّي بها الى الفلاح أو الهزيمة والانحطاط.

ولا يخفى ان مسؤولية الانبياء في استلام الوحي وتبليغه للناس هي بنفسها من عوامل التكامل وتحقيق هذا الهدف المقدس منوط اولا باطاعتهم واتباعهم ولهذا جاءت الاوامر الالهية تقضي بوجوب اطاعتهم وكم جاء من تأكيد عليها في النصوص السماوية من أجل الوصول الى هذا الهدف.

٢ ـ لابد أن نبحث عن اسباب الانحطاط أو التكامل في نفس المجتمعات، لانها هي التي تسجل على نفسها ـ من خلال العمل ـ مصير الفناء والهلاك أو الرقى والتقدم والكمال واذا اردنا أن نكتشف عوامل السقوط أو السمو في امة فلابد من الغوص في اعماقها فهي التي تتصرف ومن خلال اعمالها يكتب لها التوفيق او الاخفاق والسعادة او الشقاء ومن اراد التعرف الى العوامل والعلل فلابد ان يبحث عنها في الامة نفسها كما اشار الى ذلك القرآن بقوله:

﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾[٥].

﴿تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾[٦].

﴿كل امة تدعى الى كتابها، اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾[٧].

﴿ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها﴾[٨].

* * *

والان سنتناول الايات التي تعرضت لبيان علل تكامل الامه وانحطاطها، ولا ندعي اننا استقصينا الآيات جميعاً.

علل تكامل المجتمع:

لقد اعتبر القرآن الوحدة والاتحاد من عوامل التكامل والتقدم، في المجتمع، بينما عد التنازع والاختلاف من عوامل السقوط والاضمحلال واليك بعض الايات كنموذج على ذلك:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكرو نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها﴾[٩].

﴿واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين﴾[١٠].

والايتان صريحتان في الدلالة على المقصود فلا داعى لذكر الشواهد والمصاديق لتوضيح المراد.

حياة الامة:

ان الامة التي تلتزم بتعاليم الانبياء وتلبي دعوة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم انما هي أُمّة حية وتتدفق بالحياة والعطاء وهذه الحياة بنفسها مؤشر قوى على النضوج والانطلاق في طريق التكامل.

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون﴾**(١١).

اقامة حدود الله:

من العلل الأخرى ،في تكامل الامم ،الالتزام بقوانين الله وتعاليمه، واقامة الحدود الالهية، حتى ورد في بعض الروايات ان اقامة الحدود خير من مطر اربعين صباحاً(١٢)، نذكر بعضها على سبيل المثال:

عن أحمد بن مهران، عن محمد بن علي، عن موسى بن معدان، عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي ابراهيم عليه السّلام في قول الله عزوجل **﴿يحيي الأرض بعد موتها﴾** قال ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل فتحيا الارض، لاحياء العدل، ولاقامة الحد فيه انفع في الارض من القطر اربعين صباحاً(١٣).

وبناء على تفسير الامام الكاظم لقوله تعالى **﴿يحيي الارض بعد موتها﴾**(١٤) يكون احياء الارض في اقامة الحدود وتطبيقها ولهذا ذم القرآن المتعدين على حدود الله وعنّفهم.

ولهذا أيضاً حرم التراخي في تطبيق الحدود وتأخيرها أو تعطيلها، كما ورد في الحديث، يا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم من عطل حداً من حدودي فقد عاندني وطلب بذلك مضادتي، وفي حديث آخر عن علي عليه السّلام قال: ليس في الحدود نظر ساعته(١٦).

اقامة العدل:

وهو من العوامل الآخرى، التي تدفع المجتمع الى الكمال، وقد اكد القرآن على أن اقامة العدل والقسط، في المجتمع، هو الهدف الاساسي، من ارسال الرسل، وانزال الكتب قال الله تعالى:

﴿لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾(١٧).

﴿ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيراً﴾(١٨).

﴿يا ايها الذين كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم

على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾[19].

الانفاق:

الانفاق والتصدق من العوامل المهمة، أيضاً، في حركة التكامل، وقد حث عليها القرآن بشتى الاساليب والبيانات وفصل آثارها الايجابية على المجتمع.

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[20].

﴿وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفّ اليكم وانتم لا تظلمون﴾[21].

والبر في الآية ـ كما هو واضح ـ هو كمال المجتمع والسبيل الموصل اليه هو الانفاق.

التزكية:

من العوامل المهمة أيضاً «التزكية» وتعني تطهير المجتمع ووصوله الى «السلامة» وسلامة المجتمع رهينة بسلامة افراده وهذا المبدأ من اهم اهداف بعثة الانبياء التي اكد عليها القرآن مراراً، في آيات كثيرة، نذكر نموذجاً منها:

﴿ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير﴾[22].

﴿قد افلح من تزكى﴾[23].

﴿وسيجنبها الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى﴾[24].

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم﴾[25].

ونلاحظ في بعض الآيات المذكورة اعلاه الاشارة الى الانفاق والتزكية معاً باعتبار ان الانفاق وسيلة من وسائل التزكية.

السلوك الحسن:

والاخلاقية في التعامل والسلوك الحسن من المؤشرات الواضحة، على سلامة المجتمع، والعوامل المهمة في تكامله لان الاحترام المتبادل والتعامل الايجابي يوثق الاواصر الاجتماعية، ويدفع الامة في طريق التقدم.

قال الله تعالى: **﴿لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه وليّ حميم﴾**[26].

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم﴾[27].

هذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى اهمية التعامل الانساني في حركة التكامل الاجتماعي.

الظلم:

الظلم يجرا المجتمع الى الحضيض ويؤدي الى ضموره واضمحلاله وبالتالي الى الهلاك والزوال وهذه النتيجه التي قررها القرآن الكريم.

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[٢٨].

﴿وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾[٢٩].

﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾[٣٠].

نقض العهد:

لقد اعتبر القرآن نقض العهود من اسباب الانحطاط والهزيمة ودعا الامه للوفاء بها:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[٣١].

الكبائر:

اعتبر القرآن بعض الكبائر علة في سقوط المجتمع وانحطاطه من قبيل.

﴿انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون﴾[٣٢]

العصيان والتمرد:

وقد ذكرها القرآن في ايات كثيرة باعتبارها عوامل انحطاط واضمحلال تودي بالامه وتقضى عليها.

﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن﴾[٣٣].

﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[٣٤].

الترف:

والترف هو التوسع في النعمة بحيث يطغى صاحب النعمة المترف، والترف من العلل المهمة في انحطاط المجتمع وهلاكه. قال تعالى:

﴿واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[٣٥].

الكفران:

وهو من عوامل السقوط والانحطاط

كما اكد ذلك القرآن الكريم ﴿ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنه يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون﴾[٣٦].

﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور﴾[٣٧].

﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد﴾[٣٨].

عزيزي القارى هذه جوله سريعة حاولنا ان نذكر فيها بعض العلل والعوامل الدخيلة في تكامل المجتمعات وانحطاطها، ولا ندعي ابداً اننا استقصيناها وحصرنا كلما ورد في القرآن من تلك العوامل، ونحن مطمئنون ان ثمة عناوين أخرى كثيره سوى ما ذكرنا يمكن للباحث استخراجها من الكتاب المقدس وأملنا أن تكون البحوث الآخرى المشاركة في المؤتمر قد تناولت هذه الموضوع بالسعة المناسبة والعمق المطلوب.

● **الهوامش:**

(١) نهاية الحكمة: ١٢٨.

(٢) المصباح المنير.

(٣) جامعه وتاريخ شهيد مطهري.

(٤) تاريخ تمدن اسلام وعرب: ٥١.

(٥) الرعد: ١.

(٦) البقرة: ١٣٤، ١٤١.

(٧) الجاثية: ٢٨.

(٨) الاسراء: ٧.

(٩) آل عمران: ١٠٣.

(١٠) الانفال: ٤٦.

(١١) الانفال: ٢٤.

(١٢) الوسائل ١٨: ٣٠٨.

(١٣) الوسائل: كتاب الحدود والتعزيرات.

(١٤) البقرة: ٢٢٩.

(١٥) الوسائل ١٨: ٣٠٩ حديث ٦.

(١٦) الوسائل ١٨: ٣٢٦ حديث ١.

(١٧) الحديد: ٢٥.

(١٨) النساء: ٥٨.

(١٩) المائدة: ١٨.

(٢٠) آل عمران: ٩٢.

(٢١) البقرة: ٢٧٢.

(٢٢) فاطر: ١٨.

(٢٣) الأعلى: ١٤.

(٢٤) الليل: ١٨.

(٢٥) التوبة: ١٠٣.

(٢٦) فصلت: ٢٤.

(٢٧) آل عمران: ١٥٩.

(٢٨) النمل: ٥٢.

(٢٩) الكهف: ٥٩.

(٣٠) النمل: ٨٥.

(٣١) المائدة. ١٣.

(٣٢) المائدة: ٩١.

(٣٣) الانعام: ١٠.

(٣٤) البقرة: ٦١.

(٣٥) الاسراء: ١٦.

(٣٦) النمل: ١١٢.

(٣٧) سبا: ١٧.

(٣٨) ابراهيم: ٧.

الأمم الغابرة عبرة للامم الحاضرة

السيّد مهدي شمس الدين
تعريب: السيّد علي اشرف

■ قال الشيخ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥هـ) في مجمع البحرين، ذيل مادة «عبر»:

قوله تعالى: ﴿عبرةً لأولي الالباب﴾[١] اي اعتباراً وموعظة لذوي العقول.

والعبرة بالكسر، الاسم من الاعتبار، وهو الاتعاظ، وهو يفيده الفكر الى ما هو الحق من وجوب ترك الدنيا والعمل للأخرة، واشتقاقها من العبور، لأن الانسان ينتقل من امر الى أمر[٢].

وقال قبله العلامة الكبير الراغب الاصفهاني في مفرداته[٣]:

عبر: اصل العبر تجاوز من حال الى حال فأما العبور فيختص بتجاوز الماء إمّا بسباحة، أو في سفينة أو على بعير أو قنطرة...

والاعتبار والعبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد قال تعالى: ﴿ان في ذلك لعبرة.. فاعتبروا يا أولي الابصار﴾(٤).

نكتفي بهذا القدر من التعريف، لوضوح المفردة، وكثرة ورودها في القرآن، ولكننا أردنا ان نشير اليها اشارة عابرة، تمهد لنا الدخول في صلب الموضوع.

سنشير هنا الى ما ورد في المصادر الاسلامية، من حث على الاتعاظ والاعتبار، ومدى الاهتمام بهذا المبدأ.

وسنشير الى الهدف الرئيسي والغاية النهائية، من العبرة والاتعاظ، ولما للموعظة والارشاد، من دور فاعل، في هداية البشرية، وبناء مجتمع هادف. وبالرغم من ان الموعظة والعبرة تختلفان في التأثير والفاعلية، باختلاف الظروف والمؤثرات، بيد أنهما تصبان في أطار واحد، وتلاحقان هدفاً واحداً بالمآل.

ولكي لا يختلط البحث، سنتناول الحديث فيه ضمن ثلاث خطوات مستقلة كالتالي:

١ـ الاعتبار في المنظور القرآني.

٢ـ الاعتبار والاتعاظ من زاوية نظر نهج البلاغة.

٣ـ الاعتبار والاتعاظ من زاوية نظر الروايات.

وسوف نتعرض لكل واحدة من الاقسام الثلاثة المذكورة اعلاه بشكل سريع وخاطف:

الاعتبار في المنظور القرآني:

لقد استعمل القرآن كلمه «اعتبروا» بشكل صريح واضح، في مورد واحد فقط، حينما اراد الحث على الاعتبار بعاقبة طائفة من اليهود وذلك في قوله تعالى:

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار﴾[٥].

نلاحظ ان الاية تحث، بصريح العبارة، وتخاطب المؤمنين، وأولى الابصار أن يلتفتوا الى الحدث المهم الذي اصاب بني النضير وهم جيران العاصمة الاسلامية الكبرى، بيد انهم تحصنوا وأحاطوا ديارهم بقوى رهيبة عظيمة، لا يمكن اختراقها بحال، ولكن الله غالب على أمره، اذ ابادهم بسرعة خاطفة كلمح البصر، فليعتبر الانسان ويتعظ اذن.

ومن البديهي أن هذه الاية غير منحصرة بهذا المقطع الزمني والموضع المكاني، وانما هي عامة شاملة، والمورد لا يخصص الوارد، والقصة على أنها وقعت في ظروف خاصة، الا أن الحكم العقلي بضرورة الاعتبار والاتعاظ ساري المفعول دائماً وابداً، في هذه الديار وفي غيرها.

ولربما كان هذا المورد الوحيد الذي جاءت فيه كلمة «الاعتبار» بصيغة الامر «فاعتبروا»، ولكن ثمّة آيات اخرى كثيرة، تدل على نفس المضمون، وتؤكد على نفس المعنى من قبيل قوله تعالى:

﴿وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم من اهل القرى افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون﴾[٦].

وهذا النمط، من الايات، كثير جداً في القرآن الكريم، حيث نجد الآيات تحث، بصراحة وبشتى الاساليب، على السير في الارض، والنظر الى عاقبة الذين خلوا، من قبل، والحركة الهادفة في الآفاق من اجل الاتعاظ، واخذ العبرة، واليك بعض تلك الآيات:

١ـ سورة غافر: ٨٢،٢١.

٢ـ سورة فاطر: ٤٤.

٣ـ سورة الروم:٩.

وهذه الآيات تتضمن الحث، على السير في الارض، وملاحظة من سبقوا من الامم، وكيف كانوا أولى قوة وباس شديد، وأثاروا الارض وعمّروها وتطوروا، في شؤون الحياة الاقتصادية والزراعية والصناعية والعمرانية، ولكنهم تجافوا عن الحق، فأخذهم الله بعذاب شديد، ولم تُغنِ عنهم أُموالهم ولا اولادهم شيئاً.

٤ـ سورة محمد: ١٠.

٥ـ سورة الانعام: ١١.

٦ـ سورة النحل: ٣٦.

٧ـ سورة الروم: ٤٢.

الحث على الاعتبار بعاقبة الذي خلوا ممّن غرقوا، في أوحال الكفر، وتدنسوا بالكذب والفساد، والابتعاد عن الله، فكانت أعمالهم تلك مقدمة لتحقيق سنة الله، فاهلكهم الله جميعاً بما كانوا يصنعون.

وهكذا تجد الكثير من هذه النماذج في كتاب الله العزيز.

الاتعاظ والاعتبار من زاوية نظر نهج البلاغة:

امتاز نهج البلاغة وهو الكتاب التالي للقرآن الكريم بكثرة الحث على العبرة والاتعاظ، بحيث لا يمكننا حصر جميع تلك الموارد بل لو أردنا الاشارة الى بعضها لخرجنا عن نطاق المقال، ولكننا نحاول اقتطاف بعض النصوص على سبيل المثال ليس إلا:

أ ــ «فاتعظو عباد الله بالعبر النواقع واعتبروا بالآي السواطع وازد جروا بالنذر البوالغ وانتفعوا بالذكر والمواعظ»[٧].

ب ـ «فاعتبروا بنزولكم منازل من كان قبلكم وانقطاعكم عن أوصل اخوانكم»[٨].

حـ ــ «فاعتبروا بما كان من فعل الله بابليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى امن سني الدنيا ام من سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة»[٩].

د ـ «ما اكثر العبر واقل الاعتبار»[١٠].

وفي هذا التعجب تحذير وانذار لكل معتبر ذي لب، لكي يستفيد من العبر الحاشدة في الدنيا، ويعتبر بها ويتعظ.

وختاماً نود أن نشير الى سيرة الامام أمير المؤمنين العملية اضافة الى النماذج المذكورة من أقواله:

قال أمير المؤمنين في وصية لابنه الحسن عليه السّلام:

«أي بني، اني وان لم اكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم بل كاني بما انتهى الي من امورهم قد

عمرت مع أولهم الى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره»(١١).

لاشك ان الائمه عليهم السّلام جميعاً نور واحد ومشكاة واحدة، بيد أن لكل وردة عطراً ولكل فاكهة طعماً، ولهذا سوف نغترف من نميرهم العذب ما يسعنا المجال على سبيل الاختصار الشديد:

أ ـ قال الصادق عليه السّلام: «ولا يصح الاعتبار الا لاهل الصفا والبصيرة قال الله تعالى ﴿فاعتبروا يا أولي الابصار﴾[١٢].

ب ـ وقال عليه السّلام: «كان اكثر عبادة ابي ذر رحمه الله التفكير والاعتبار»[١٣].

وفي هذا الحديث طريفة رائعة واعتبار الاعتبار عبادة، حتى اتصف بها المجاهد العظيم والصحابي الكريم أبو ذر (رض)، ولا يخفى على ذوي الأبصار مدى طرافة ما في هذا الحديث، من جعل التفكير والاعتبار عبادة، وبيان ما بينهما من ترابط وثيق، وعلاقة عميقة.

جـ ـ كتب هارون الى موسى بن جعفر وقال: عظني واوجز فكتب عليه السلام اليه «ما من شيء تراه عينك الاّ وفيه موعظة[١٤].

د ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اغفل الناس من لم يتعظ بتغيّر الدنيا من حال الى حال»[١٥].

هـ ـ قال الصادق عليه السّلام: «اعتبروا بما مضى من الدنيا هل بقى على أحد؟ وهل فيها باق من الشريف والوضيع والغني والفقير والولي والعدو؟ فكذلك ما لم يأت منها بما مضى اشبه من الماء بالماء»[١٦].

كانت هذه اضمامة عبقة، وغيض من فيض روايات أهل البيت عليهم السّلام. بديهة أن الانتهال، من جميع تلك العيون الصافية أمر متعسّر، ولهذا اختصرنا على اغتراف غرفة تتسع لها هذه العجالة.

وعلى العموم فان المستفاد، من جملة الآيات المباركة والاحاديث الشريفة الحث الشديد، والتأكيد المستمر، على الاتعاظ بما جرى على الماضين، من ابناء آدم وحواء، توصلاً الى النتائج البناءة المهمة، في حياة الانسان، وان كانت النصوص تعرض هذا التأكيد بعبارات وأساليب شتى.

مشتقات العبرة:

سنلقي في هذا المورد نظرة سريعة على مشتقات لفظ «العبرة» بغض النظر عن الكلمات الاخرى المرادفة لكلمة «العبرة» من قبيل «الموعظة» وما شاكل:

ورد لفظ «العبرة» زهاء ستة مرات، بأشكال وصور مختلفة، وان كانت جميع الصور تصب في موضوع واحد، وتستهدف جهة خاصة.

واليك هذه المواد:

سورة الحشر: ٢.

سورة آل عمران: ١٣.

سورة يوسف: ١١١.

سورة النحل: ٦٦.

سورة المؤمنون: ٢١.

سورة النور: ٤٤.

سورة النازعات: ٢٦.

أمّا موضوعات كل مورد وأهدافها فهي كالتالي:

١ـ قدرة الله المطلقة على نصر الحق:

اشارت بعض الآيات الى قدرة الله المطلقة، ثم حثت الناس على الاتعاظ والاعتبار، لأن الله قادر على أن يفعل ما يريد، حتى لو كان ذلك الامر مستحيلاً، وعليه فليس للمؤمنين أن يخشوا سوى الله ـ جل وعلا ـ لأنه وحده الفاعل القادر، وكل ما على الارض، من قوى، فهي قوى مزيفة عاجزة أمام قدرة الله.

والنموذج البارز لهذه الآيات الآية الثانية، من سورة الحشر، التي تعرض صورة لاضمحلال مجتمع (بني النضير) وهلاكه، على اثر عدائه للاسلام والمسلمين **﴿هو الذي اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر، ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من يخربون بيوتهم بايديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾**.[١٧]

وكذا الآية الثالثة عشر من سورة آل عمران: **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولى الأبصار﴾**.[١٨]

قال المفسرون في شأن نزول الآية: ان الآية تتحدث عن معركة بدر، وما ظهر فيها من قدرة الله، على نصر المؤمنين، على قلتهم، وتكثيرهم في نظر المشركين.[١٩] وظاهر الآية خطاب للمشركين، ولكنها تتضمن تأكيداً مطلقاً على قدرة الله اللامتناهية، وتحث ذوي القلوب والأبصار على الأعتبار، بحكم العقل والتأمل، في فقرات الآية الشريفة.

٢ـ قدرة الله في التعرّض بالطبيعة:

تعرّضت بعض الآيات لبيان قدرة الله على التصرف في الطبيعة، وايجاد التغيرات الكونية والطبيعية، من قبيل تقليب الليل والنهار أو اخراج اللبن السائغ للشاربين من بين فرث ودم، وكلها تؤكد على قدرة الله المطلقة في تدبير الخلق:

أ ـ **﴿يقلب الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار﴾**[٢٠].

ب ـ **﴿إن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم**

ب ـ ﴿إن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[21].

ج ـ ﴿وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تاكلون﴾[22].

والعبرة الدلالة يستدل بها على انه تعالى مدبّر لامر خلقه حنين بهم رؤف رحيم، والمراد بسقيه تعالى مما في بطونها، انه رزقهم من ألبانها، والمراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها ووبرها وجلودها.. وغير ذلك ومنها ياكلون[23].

٣ـ عاقبة السلف:

صوّرت جملة من الآيات العبرة، في قوالب قصصية، ليعتبر الناس بما حلّ وحدث بالناس قبلهم، وحثت الأمة الحاضرة على قراءة التاريخ، والاتعاظ بعاقبة الذين خلوا من قبل، كما في الآية التالية: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[24].

٤ ــ دوام المواجهة بين الحق والباطل:

تعرضت الكثير من الايات الكريمة لبيان المواجهة المستمرة بين الحق والباطل، على طول خط التاريخ، حيث كان الصفان دائماً وابداً في صراع عنيف، لا هوادة فيه، ومن الواضح ان الانسان الذي يمدّ بصره الى اعماق التاريخ، ليرى الصراع بين هذين الخطين المتوازيين اللذين لا يمكن أن يلتقيا يوماً ما يرفض المساومة على مبادئه، ويستطيع أن يختار الطريق الذي يريد أن يسلكه في حياته، ليكون مع المبطلين، أو ينضم الى المهتدين.

ولنا في الآيات التي تعرض قصه موسى عليه السّلام باعتباره رمزاً للحق، في مواجهته لفرعون، باعتباره رمزاً للباطل، كما في سورة النازعات، حيث تتناول السورة قصة موسى والوحي له ومعجزاته، ومواجهته لفرعون وملأه، وكيف نصره الله عليه، وأباد فرعون وجهازه الحاكم، وطمس معالم الباطل، ثم تلتفت الايات للحث على الاعتبار، بما حدث لأولئك الظالمين فتقول: ﴿ان في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾[25].

ما هو موضوع العبره؟ وما هو محور الموعظة؟

نريد ان نستعرض، هنا الموارد التي ينبغي الاتعاظ والاعتبار بها، وبعبارة أخرى ما هي الامور التي يتعظ بها؟ وما هي صورة العبرة وخصوصياتها؟ وسنتناول البحث في ثلاثة محاور:

١ـ علاقة الامة بالقائد.

٢ـ بقاء الامة.

٣ـ الامة والانحراف المبدئي.

أهمية القائد في المجتمع:

لا شك أن المجتمعات البشرية تحتاج الى قائد يدبّر شؤونها، حتى لو كانت جماعة صغيرة، بيد أنها لا تستطيع أن تتحرّك حركة منظمة منسقة هادفة، نحو تحقيق أهدافها، الا اذا كانت خاضعة لقائد مطاع، وكذلك الأمر في الأمة فانها تحتاج ـ بطريق أولى ـ الى من يدير دفة مسيرتها، في جميع الأبعاد والخصائص الاجتماعية، وهذا ما يقضي به العقل، ويحكم به الوجدان، وقد أقرّه الشرع المبين، وأكّد عليه ايما تاكيد.

قال أمير المؤمنين، ان صلاح الأمة في الامامة[٢٦] وقال: لابد للناس من امير: برّاً كان أم فاجراً[٢٧].

انواع الأئمة:

لا يخلو المجتمع ـ أيّاً كان ـ من وجود الامام فيه، وهذا الامام إمّا أن يكون عادلاً مخلصاً مضحيّاً، وبكلمة: امام حق، او يكون ظالماً فاسقاً فاجراً وبكلمة: امام باطل.

وقد شهد التاريخ نماذج من كلا النوعين، من قبيل فرعون، وجالوت، وابي لهب، واضرابهم من ائمة الباطل، وشهد بين الحين والحين ومضات من القادة الربانيين وأئمة الحق المؤمنين، من أمثال نوح، وابراهيم، وطالوت، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، والائمة المعصومين، من بعده، والعلماء الصالحين، من أبناء الأمة الاسلامية.

وقد تحدث القرآن عن هذين النوعين وذكرها، بشكل عام كلي أحياناً، وبشكل خاص تناول المفردات والمصاديق، احياناً اخرى. واليك فهرس ببعض تلك الايات:

١ ـ القادة الصالحون:

سورة المؤمنون: ٤٥ (موسى، هارون عليهما السّلام).

سورة الفرقان: ٣٥ (موسى، هارون عليهما السّلام).

سورة بني اسرائيل: ٢ (موسى عليه السّلام).

سورة الحديد: ٣٦ (نوح، ابراهيم عليهما السّلام).

سورة نوح: ١ ـ ٢٨ (نوح عليه السلام).

سورة البقرة: ٢٤، ١٢٧، ٢٥٨ (ابراهيم عليه السّلام).

سورة النساء: ١٦٣ (اسماعيل، اسحاق، يعقوب عليهما السّلام).

سورة البقرة: ٥١ ــ ٥٢ (موسى عليه السلام).

النساء: ١٦٤ (موسى عليه السلام).

سورة البقرة: ٨٧ ــ ٢٥٣ (عيسى عليه السّلام).

سورة الانعام: ٨٤ (داود، سليمان، ايوب، يوسف، موسى، هارون عليهم السلام).

سورة آل عمران: ١٤٤ (محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم).

سورة الأحزاب: ٤٠ (محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم).

سورة البقرة: ٢٤٧ (طالوت عليه السلام).

سورة النساء: ١٦٣ (عيسى، ايوب، يونس، هارون، سليمان عليهم السلام).

سورة الانعام: ٨٤ (اسماعيل، اليسع، يونس، لوط عليهم السلام).

سورة الصافات: ٣٩ (يونس عليه السّلام).

سورة غافر: ٣٤ (يوسف عليه السّلام).

٢ـ القادة غير الصالحين:

سورة يونس: ٨٣ (فرعون).

سورة المؤمنون: ٤٧ (فرعون).

سورة القصص: ٧٦ ـ ٧٩ (قارون).

سورة العنكبوت: ٣٩ (قارون، فرعون، هامان).

سورة غافر: ٢٤ (فرعون، هامان، قارون).

سورة البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١ (جالوت).

سورة المسد: ١ (أبو لهب).

هذه اشارة عابرة تؤكد لنا مدى ضرورة وجود الائمة والقادة، في المجتمعات البشرية، كما أكد ذلك القرآن والأحاديث الشريفة.

٣ـ التمرّد والعصيان:

من البديهي جداً ان مصداقية القيادة والامامة تتوقف على مدى اطاعة الافراد، فاذا كان أفراد المجتمع سامعين مطيعين استطاع القائد ــ سواء كان ظالماً أو عادلاً ــ أن يقود المجتمع، نحو اهدافه المرسومة، والا فسوف تعمّ الفوضى، وينزلق المجتمع في مهاوي الانحطاط والاضمحلال، وقد تناول القرآن المجيد هذا الموضوع، في مواطن عديدة، وضرب أمثلة لتمرّد الامم وعصيانها على قادتها، وما آلت اليه عاقبة تلك الامم.

كما أكّد على ضرورة الالتزام بقرارات القيادة الربانية، واطاعة الائمة الصالحين، واتباعهم في الخيرات، واليك سرداً لبعض تلك الآيات:

سورة آل عمران: ٣٢، ١٣٢، ٦٨.

سورة النساء: ٥٩.

سورة المائدة: ٩٢.

سورة الأنفال: ١ و٢٠.

سورة طه: ٩٠.

سورة النور: ٥٤ و٥٦.

سورة محمد: ٣٣.

سورة التغابن: ١٢.

سورة الشعراء: ١٠٨.

و.. الخ

وقد تكفلت بعض الآيات الاخرى بالاعلان، عن النهي الصريح، عن اطاعة الأفراد غير

الصالحين والمنحرفين[٢٨] وبيان عاقبة الذين عصوا وتمردوا على الأنبياء والرسل والصالحين، من أئمة الدين، وأثبتت هذا المصير المشؤوم، لكل من سوّلت له نفسه فاتبع هواه، وسار تحت راية الطاغوت معرضاً عن القيادة الصالحة، ولا فرق في ذلك بين أمه وأمة، أو عصر وعصر، ففي زمان موسى عليه السّلام عصاه بنو اسرائيل، فضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله[٢٩]، وفي زمان نبينا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم عصاه البعض فتركوا مواقعهم، فدالت عليهم الكرة، في معركة احد[٣٠]، وذلك طبق القانون الالهي العام **﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾**[٣١].

وعلى أيّة حال، فان ثمة آيات تعرضت لتمرد الامم على قادتها الصالحين، وقررت ما آل اليه أمرهم وهي كما يلي:

سورة البقرة: ٦١.

سورة آل عمران: ١١٢.

سورة الاعراف: ٦٦ـ٩٩.

سورة المؤمنون: ٣٣.

سورة هود: ٥٣ و٩٧.

سورة الذاريات: ٤٤.

سورة محمد: ٣.

سورة هود: ٧٨ و٧٩.

سورة الحجر: ٦١ و٧٧.

سورة العنكبوت: ٣٣ و٣٥.

سورة الشعراء: ١٢٣.

سورة القمر: ١٨.

و... الخ

وكثير من الآيات الآخرى تحدثت، عمّا جرى على الامم المتمردة العاصية، وما ابتليت به، من عذاب الله، وباءت به من غضبه، من قبيل قوم نوح، قوم لوط وقوم موسى...

بقاء الامة:

بقاء الامة واستقامتها رهين بسلامتها، واندثارها مغلول لمرضها وتلوثها، وهذه القضيّة بالذات من الموارد التي حثّ القرآن فيها على الاعتبار، حيث اكد على دراسة الامم السابقة، للبحث عن أسباب انحطاطها وهلاكها، لان كل عامل من العوامل يشكل رقماً مهماً، في ميزان الوعي الاجتماعي، الذي ساهم بدرر فاعل في بقاء الامه عاجلاً أم آجلاً.

ويبدو لنا أن أكبر وأهم عامل، من عوامل هلاك الأمم واندثارها، هو معصية الله الخالق المدبر، لان ذلك يؤدي بالمجتمع الى فقدان سلامته، وبالتالي الى التفكك والتفسخ الظاهري أو المعنوي، الذي يجر الى الضمور والاضمحلال والاندثار في نهاية المطاف، وقد ذكر القرآن الكريم المعصية وتعدّي حدود الله مراراً عديدة، واعتبرها من العوامل المهمة، في سقوط الأمم السالفة، واليك بعض تلك الايات

والروايات:

أ ـ تعدي حدود الله يستتبع عذاب الله في الآخرة والخيبة والمهانة في الدنيا.

﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾[٣٢].

ب ـ مخالفة الله ورسوله والحكام الصالحين، والاعراض عنهم، تؤدي الى الفساد والذلة والمسكنة، وضنك العيش في الدنيا والآخرة.

﴿انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[٣٣].

﴿ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى... وكذلك نجزي من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وابقى﴾[٣٤].

ج ـ هلاك الامة رهين باعمالها، وكذلك جميع التغيرات الاساسية، التي تطرا على المجتمعات البشرية، فانها تكتب على تلك المجتمعات جرّاء ما يفعله الافراد أو المجموع من اعمال.

١ ـ ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم﴾[٣٥].

٢ ـ ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[٣٦].

٣ ـ ﴿وما اصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير﴾[٣٧].

٤ ـ ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم﴾[٣٨].

ما هو الحل؟

اذا ابتلت الامة بالتمرد والتفسخ، ومعصية القوانين التكوينية والتشريعية، فما هو الحل حينئذٍ؟

أجاب القرآن على هذا السؤال، وقدّم الدواء الناجع، وجاءت الروايات لتكمل الدواء، وتعالج البشرية:

١ ـ الارتباط الوثيق بالله جل وعلا، باعتباره الخالق المدبر، الذي خلق الانسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، ويعلم جميع ما يحتاج اليه من ضرورات مادية ومعنوية، وعلى أساسها رسم له طريق السعادة والنجاة في الدارين: **﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الارض بعد**

اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين﴾[39].

تشير الآية الى أن الارتباط بالله يوجب الاصلاح، ويبقى ان مراقبة الوضع الصالح، والحفاظ عليه، من واجبات افراد الامة جميعاً. **﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**[40].

قال أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»[41].

٢ ـ التوبة عن المعاصي، ومخالفة القوانين والانانية، والعزم على الحياة السلمية، من أجل توفير الاجواء السليمة، التي تعد مقدمة مهمة لبناء المجتمع، وحمايته من الانهيار: **﴿قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمه الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم﴾**[42].

ولا يخفى ان المعاصي الفردية والاجتماعية لها تاثير خاص على كل واحد في المجال الذي تؤثر فيه: **﴿والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾**[43].

والاحاديث الشريفة، في هذا الباب، كثيرة جداً، نحيل القارىء الى مضانها[44].

٣ ـ التبرّؤ من المعاندين، وهجران العاصين، والاعراض عنهم، ممّا يشكل حصاراً اجتماعياً، يضطرهم اخيراً الى مجانبة الباطل، والاقتراب من أهل الحق، وبهذا يمكن مكافحة الرذيلة، والحفاظ على المجتمع: قال الامام علي عليه السّلام: «امرنا رسول الله صلّى عليه وآله وسلّم أن نلقي أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[45].

وقال عليه السّلام: «ادنى الانكار ان يلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[46].

وهناك أحاديث أخرى كثيرة، نهت عن مصاحبة أهل المعاصي ومرافقة الأشرار. والفاسقين[47].

وكذلك الآيات التي تأمر بالابتعاد عن الظالمين (اذا اعتبرنا الظلم ذنباً) والمستهزئين والمنحرفين فكرياً اخلاقياً، من قبيل الآية ١٤٠، من سورة النساء، أو الآية ٦٨، من سورة الانعام.

المجتمع والانحراف المبدئي:

اذا أردنا أن نتحدث عن العبرة والاتعاظ فلابدّ أن ندرس أولاً حالات الانحراف المبدئي، الذي تورطت به الأمم السالفه، ولا شك في أن الابتعاد عن الطريق والنهج القويم، والامعان في السير على جادة الانحراف، عن نظام الخلقة، يؤدي الى عواقب وخيمة لا مناص عنها.

وهذا الانحراف يبعد الانسان عن اهداف الخلقة، ويجره الى حضيض الاستسلام للظلم

خطيرة، من قبيل التثاقل عن الجهاد، والميل للدعة والترف، والبساطة في التفكير، والخضوع لجو الاشاعات.. وغيرها.

وعلينا ان نتأمل حالة المجتمعات السابقة، لنعرف كيف أدّت بهم هذه الانحرافات الهدامة، الى الضعف والفشل، والى الضمور والانهيار، احياناً اخرى، ثم نعتبر بها في حياتنا.

وقد عرض لنا القرآن الكريم قصة موسى عليه السّلام وجهاده واتباعه ضد فرعون وملأه، وانتصار الثورة الالهية ثم ضياعها في خضم الاهواء والاطماع والانحرافات، التي ذكرها القرآن، باعتبارها عوامل انهيار تلك الثورة، وعدم استطاعتها، تحقيق اهدافها النهائية، ثم حذر الامم اللاحقة من ارتكاب نفس الاخطاء، وحثّهم على الحفاظ على انجازات الثورات الربانية: وفيما يلي اجمال بتلك العوامل والعلل التي ذكرها القرآن.

١ ــ الميل نحو الترف والزينة، وعبادة العجل والابتعاد عن الله: **﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل..﴾**[٤٨].

٢ ــ الميل نحو الماديات، والانحراف الفكري والعقائدي، والابتعاد عن الشريعة السماوية الخالصة: **﴿واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة...﴾**[٤٩].

٣ ــ تبديل احكام الله وتعدي حدوده: **﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم...﴾**[٥٠].

٤ ـ الطمع، الترف، الدعة، الاسراف وعدم القناعة: **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها...﴾**[٥١].

٥ ـ المتاجرة بالقيم الالهية والمعنوية، والتنصل عن الجهاد، والانصراف الى الدنيا واللذائذ والحياة المادية، وبيع منجزات الثورة الالهية بالحياة الحيوانية الدنية: **﴿قال اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير...﴾**[٥٢].

وهكذا كانوا، فسلبهم الله نعمه، وحرمهم من الأمن والاستقرار، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وابتلاهم بالحيرة والضياع: **﴿اهبطوا مصرا فان لكم ما سالتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله...﴾**[٥٣].

اضافة الى ذلك، فان القرآن اشار، في موارد اخرى (سوى قصة موسى) الى عوامل اخرى لانحطاط الامم السالفة، وحذّر المؤمنين منها، من قبيل ترك القيام للحق، في الابعاد الثقافية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، ممّا يؤدي قلب عالي المجتمع الى سافله وبالعكس: **﴿الا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل**

قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾[54].

وقال في مورد الاعراض عن احكام الدين وتعاليمه، وأوامر القادة الربانيين، في الانفاق، انه يأتي على المجتمع من قواعده، ويهدم بنيته وينسفها من اساس: **﴿..وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**[55].

وبعد..

كانت هذه جولة سريعة، في موضوع العبرة ودورها في بناء المجتمع أو تحطيمه، على ضوء الكتاب الكريم.

*   *   *

● الهوامش:

(١) يوسف: ١٢

(٢) مجمع البحرين ٣: ٣٩٣.

(٣) المفردات: ٣٣١.

(٤) آل عمران: ١٣

(٥) الحشر: ٢.

(٦) يوسف: ١٠٩.

(٧) نهج البلاغة: خطبة ٨٥.

(٨) ن. م خطبة ١١٧.

(٩) ن.م خطبة ١٩٢.

(١٠) ن.م: قصار الجمل ٢٩٧.

(١١) نهج البلاغة الكتاب ٣١.

(١٢) نور الثقلين ٥: ٢٧٤.

(١٣) نور الثقلين ٥: ٢٧٤.

(١٤) سفينة البحار ٢: ١٤٦.

(١٥) سفينة البحار ٢: ١٤٦.

(١٦) سفينة البحار ٢: ١٤٦.

(١٧) الحشر: ٢.

(١٨) آل عمران: ١٣.

(١٩) انظر الميزان ٣: ٩٣.

(٢٠) النور: ٤٤.

(٢١) النحل: ٦٦.

(٢٢) المؤمنون: ٢١.

(٢٣) الميزان ١٥: ٢٣.

(٢٤) يوسف: ١١١.

(٢٥) النازعات: ٢٦.

(٢٦) انظر كنز العمال ٥: ٧٥١.

(٢٧) انظر نهج البلاغة: خطبة ٤٠.

(٢٨) الكهف: ٢٨.

(٢٩) البقرة: ٦١، آل عمران: ٢١٢.

(٣٠) سيرة ابن هشام ٣: غزوة احد.

(٣١) الرعد: ١١.

(٣٢) النساء: ١٣ ـ ١٤.

(٣٣) المائدة: ٣٣.

(٣٤) طه: ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٣٥) الرعد: ١١.

(٣٦) الروم: ٤١.

(٣٨) النور: ٦٣.

(٣٩) الاعراف: ٥٥ـ ٥٦.

(٤٠) الرعد: ٢٨.

(٤١) نهج البلاغة: قصار الجمل ١٤٦.

(٤٢) الزمر: ٥٣.

(٤٣) آل عمران: ١٢٥.

(٤٤) وسائل الشيعة ج٣.

(٤٥) الكافي ٥: ٥٨ حديث ١٠.

(٤٦) التهذيب ٦: ١٧٦ حديث ٢٥٦.

(٤٧) انظر: الكافي ٣: ٨٢، وسائل الشيعة ٢ : ٢٧٠.

(٤٨) البقرة: ٥٤.

(٤٩) البقرة: ٥٥.

(٥٠) البقرة: ٥٩.

(٥١) البقرة: ٦١.

(٥٢) البقرة: ٦١.

(٥٣) البقرة: ٦١.

(٥٤) التوبة: ٣٩.

(٥٥) محمد: ٣٨.



تأثيرات الوضع المادي على السلوك الاجتماعي

الدكتور: محمد ناصري
تعريب: السيّدعلي أشرف

ذهب علماء الاسلام الى أن للدين مفهومين ـ على المستوى العملي ـ متغايرين تغايراً تاماً.

احدهما: المفهوم المتجسد في الرسالات الالهية.

والاخر: المفهوم الوهمي الذي يصطنعه الانسان لنفسه بناءً على نزعاته النفسيه واتجاهاته السياسية.

وقد اثبتت المسيرة التاريخية، عبر الأجيال المتلاحقة، أن مصطلح «الدين» تعرض أكثر من أي مفهوم ومصطلح اخر لمداهمات الانتهازيين والنفعيين وأصحاب الأغراض والمطامع، وبشكل عام كان عرضة لعمليات السطو الفكري والمفاهيمي، من خلال تفاوت الافهام، في إدراك هذا المصطلح، ممّا أدّى الى انقلاب الحقائق فيه، أحيانا، بحيث تبدو على غير الصورة الحقيقية الأصيلة.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة التاريخية لابد لنا من الوقوف في وجه الانحراف، بكل صوره، وسد طريق الآراء المفروضة على الدين فرضاً وحماية الحقيقة وابقائها ناصعة ساطعة، وذلك بالرجوع الى القرآن الكريم، باعتباره دستور الاسلام والمعين الخالد الذي تتدفق منه احكام الله، والمحور الاساسي في الأفكار والمفاهيم السماوية.

وعلى المحققين، والعلماء، والمستشرقين اتخاذ القرآن منطلقاً وملاكاً، في بحوثهم واستنتاجاتهم باعتباره القانون والنظام والدستور الكامل للاسلام. ومن البديهي ان معرفة الاتجاه والخط والتوجيهات في أيّ حزب أو مؤسسة اجتماعية، يتوقف على معرفة نظامها الداخلي ودستورها الأساسي.

لقد اهتم الاسلام بالجانب المادي أيّما اهتمام، واعتبر الماديات «وسيلة» وليست هدفاً، يبدا نها وسيلة فاعلة ومؤثرة أبلغ الاثر، في حركة الانسان تجاه الأهداف السامية ونشر الفضائل الاخلاقية الحميدة، ولهذا أصدر تعاليمه الكافية في التأكيد على

كسب المال من حله والاستفادة من المواهب الطبيعية، وتوظيفها في طريق الكمال، كما أعلن القرآن عن ذلك بصراحة ووضوح:

﴿وابتغِ فيما أتاك الله الدار الأخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب الفساد﴾(١).

ويمكن تقسيم الآية الى أربعة مقاطع.

المقطع الاول: يذكر بأن المال والثروة وسيلة وليست هدفاً، بيدأ نها وسيلة لسد الحاجات المادية، وتحقيق الأهداف الانسانية السامية، والوصول الى السعادة الآخروية الخالدة، من خلال الانفاق على المستحقين والمعوزين، وصرفها في سبيل الله، وبالتالي في سبيل الناس.

المقطع الثاني: يشير الى ان الله خلق نعمه كلها، وسخرها لعباده، وجعل لكل فرد فيها سهماً ونصيباً.

وقد خالف الاسلام جميع أشكال الرهبانية وترك الدنيا، وخاطب المنحرفين من ذوي الأفكار المعوجة، والانظار القصيرة قائلاً: **﴿لا تنس نصيبك من الدنيا﴾** خط خطك وسهمك، ولا تحرم على نفسك ما أحلّه الله لك، فان لك نصيباً في جميع ما أنعم الله، وليس في نعم محدودة، وانما الدنيا بأسرها نعمة عظمى، لك في كل شأن من شؤونها نصيب.

وتخيّل بعض المتاجرين بالزهد والمراؤون أن غض الطرف عن النعم التي احلها الله يؤدي بهم الى الفلاح، ويقربهم من الله زلفى، وغفلوا عن أن السبيل الوحيد للفلاح انما هو اطاعة الأوامر الالهية والاجتناب عن نواهيه.

وقد هاجم القرآن هجوماً شديداً اولئك الذين حرّموا زينة الله التي أحلّها لعباده وحرموا انفسهم من الطيبات:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾(٢).

لقد فتح الله ابواب النعم على الانسان ورزقه الطيبات وألوان الغذاء والزينة لينتفع بها عباده بلا افراط ولا تفريط:

﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين﴾(٣).

وكما مر معنا، فان ثمة جماعة تعتقد بأن الامتناع عن النعم المختلفة، والامساك عن الاكل علامة على الزهد والورع والاقتراب من الله، ولو كان الأمر كما يقولون لما خلق الله تلك النعم، لأنها ستؤدي عاقبة الى وقوع التناقض بين خلق الطبيعة وأجهزتها، من جهة، والاوامر والتعاليم الدينية، من جهة أخرى.

المقطع الثالث: ارشاد الى ترك الانانية، واحتكار النعم، وحث على العمل بالروح الانسانية، واتباع سبيل المحبة، والتعاضد، والاحسان لعباد الله، كما يحب ان يحسن الله اليه.

المقطع الرابع: تحذير لتلك الجماعة

التي لا تقف عند حدها، وتنطلق في ظل المال والثروة، لتعيث في الارض الفساد، وتغرق في مستنقعات الشهوات، وأوحال الماديات، وتنسى أو تتناسى الفضائل الاخلاقية، والاداب الانسانية، وتسلك طريق العدوان على الاخرين.

لقد حث الاسلام على السعي والمثابرة في سبيل العيش الرغيد، والعمل على توفير الامكانات اللازمة للحياة السعيدة حيث يقول:

﴿وان ليس للانسان الا ماسعى﴾[٤].

ويرفض التقاعس والاتكالية حتى جعل الدنيا وسيلة للوصول الى الاخرة قال الامام علي عليه السّلام:

«نعم العون الدنيا على طلب الاخرة»[٥].

وأما ما نُسب للنبي من قوله «الفقر فخري» فعلى فرض صحه السند - يبدو ان المراد به الفقر المعنوي - أي فقير الى الله - وليس الفقر المادي كيف وقد قال الله: ﴿المال والبنون زينة الحياه الدنيا﴾[٦].

وقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يمدح المال والثراء:

«نعم العون على تقوى الله الغنى»[٧].

ولا يخفى أن هناك روايات وردت في مدح الفقر، الى جانب تلك الروايات التي وردت في ذمه، وقد ذكروا وجوهاً للجمع بينها وبيان المقصود منها فقالوا:

ان الفقر المذموم هو الفقر المادي، والحاجة الماسة الى ضرورات الحياة، واما الفقر الممدوح الذي يعتز ويفتخر به فهو الفقر المعنوي، والفاقة التوحيدية حيث يحتاج كل انسان الى عناية الله ورعايته وألطاف الذات المقدسة التي تشمل افراد البشر[٨].

فالفقر المذموم - اذن - هو الفقر المادي ليس إلاّ، الفقر الذي يورث آلاف المآسي والويلات، ويجر الى ارتكاب المعاصي والذنوب، ويضطر الانسان الى الكفر والانحراف: كما ورد عن الامام الصادق عليه السّلام:

كاد الفقر ان يكون كفراً[٩].

الفقر الذي عبر عنه امير المؤمنين بالموت الاكبر قال عليه السّلام:

«الفقر الموت الأكبر».

أي أن معاناة الموت أهون من معاناة الفقر، لأن معاناة الموت مرة واحدة، ومعاناة الفقر متجددة كل آن.

قال أمير المؤمنين في وصية لابنه محمد بن الحنفية:

«يا بني اني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله، فان الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت»[١٠]

وقال عليه السّلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا: ايها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها اتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرتك... ان الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم

عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد احباء الله، ومصلى ملائكته، ومهبط وحي الله، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة[11].

هذه الدنيا التي احتوت جميع النعم الالهية للعباد:

﴿الم ترو ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه﴾[12].

ولقد اعد الله هذه النعم جميعاً وجعلها في الارض، لتكون معايش للناس لينتفعوا بها ويسخروها في سد حاجاتهم المادية وضروراتهم الحياتية:

﴿ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾[13].

وبعد أن صرح القرآن بما من الله به على عباده، أمرهم بتوظيف تلك النعم، للتوصل الى العيش الرغيد، والنجاة من وطأة الفاقه والحرمان، بشرط أن لا يطغوا ويتعدوا الحدود المفروضة لهم:

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه﴾[14].

قالوا في تفسير قوله **﴿ولا تطغوا فيه﴾**: اي فلا تتعدوا فيه (في الرزق الحلال) فتأكلوه على الوجه المحرم عليكم[15].

ولقد عبر الامام علي عليه السّلام عن نعم الحياة ونقمها وسرّائها وضرائها فقال:

ألا وان من البلاء الفاقة، واشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب. ألا وان من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وافضل من صحة البدن تقوى القلب[16].

فلا معنى اذن لذم الدنيا وترك النعم.. اللهم الا اذا ذممنا عبادة الدنيا والغرق في غمراتها، واتخاذها هدفاً نهائياً ومقصوداً يصدنا عن عالم الروح والمعنويات. بحيث نفرط في الغوص الى حضيض الماديات، حتى تتحول سدّاً مانعاً لا يسمح لنا النمو الروحي والرشد في الابعاد المعنوية، ونتعلق بالمال والثروة، الى الحد الذي تقدم فيه الروح الانسانية قرباناً رخيصاً للنزعات الشيطانية والميول الشهوانية.

قال النبي الاكرم وهو يمدح المال والعلم ويذم الفقر والجهل:

«العلم والمال يستران كل عيب، والجهل والفقر يكشفان كل عيب»[17].

العلم والمال صعدا بالامم ــ المتمكنه اليوم في العالم ــ الى مراقي التسلط والاقتدار وتسببا في أن تصل تلك الامم الى الذرى العلمية السامقة، وكانت آثار العلم وبركات المال عاملاً جذرياً في توفير الرفاه

للامم التي رفلت في نعمتيهما، كما أدّى بهما الى مكافحة الفقر والحرمان والأمراض والادران والتغلب عليها، فيما نرى الجهل والفقر يخيمان بظلهما الثقيل على دول العالم المحروم ويحوّلان شهد حياة الناس الى حنظل.

ويلفت النظر تقدّم العلم على المال، في حديث الرسول، ولكأنه يريد أن يقول أن المال من بركات العلم، والفقر من نكبات الجهل، فالجهل يرمي بالامم المحرومة في لهيب الفقر ويتركها فريسة الضلال والحيرة، ويهوّن عليها الإم الفقر ويخدّرها عن الاحساس بمعاناة الجوع والحرمان.. الجهل أعظم دعامة للمستغلين والمستكبرين في العالم.. يعين هؤلاء على تحقيق اهدافهم باقل كلفة، ولهذا تجدهم يبذلون جهودهم في سبيل ابقاء الامم في مغاليق الجهل وظلماته، لانهم يعلمون أن الجهل هو الكفيل الوحيد الذي يعينهم على استعباد الناس، ويروّض لهم الامم بدون أي عناء ومشقة

يحاول العدو أن يربّي الناس تربية ترويضيه.. يعودونهم على الرضا بالموجود، والقناعة والشعور المطلق، بأن أية محاولة بناء وحركة اصلاح وطموح تغيير لا يعني سوى الخراب والدمار.. يقنعونهم أن التحرك والتطلع نحو الأفضل ليس الا حركة عقيمة وعبث لا يجر الاّ ضرراً..

فيما يرى الاسلام ان الدنيا مزرعة الآخرة، وكسب المال الحلال عبادة، ويحثّ اتباعه على استثمار موارد الطبيعة، على العكس تماماً من المستعمرين وأذنابهم الذين يحاولون، وبشتى الاساليب، أن يصدّوا الناس عن الحياة المادية، ويبعدونهم عنها لكي تخلو لهم البقاع، ويصفو لهم الجو، فيشنوا غاراتهم يسلبون وينهبون، دون وازع أو رادع، وهكذا كانوا يفعلون على طول خط التاريخ..

حاول أولئك المصاصون لدماء الناس أن يقلبوا الصورة في أعين الناس السذج والبسطاء، فعكسوا لهم تعاليم الاسلام، في الحث على بناء الحياه المادية، وقدموها بالمقلوب، ليستغفلوا الأمة عن مواردها الطبيعية، ونعمها الالهية، وكنوزها وذخائرها، ثم يستغلها أولئك الطواغيت.

وبالفعل خدع الكثير من السذج والبسطاء باعلام المضللين الذي يؤكد لهم ان يتنزهوا عن الماديات والحياة المادية، وبدلاً عن تضييع الوقت، في اكتساب المال والبناء المادي والازدهار الاقتصادي، لابد من الانكماش في زوايا العبادة، والاشتغال باصلاح النفس وترويضها وترك الدنيا لأهلها.. واذا احتاجوا وألحت عليهم

ضرورات الحياه مدوا يد الحاجه الى «أهل الدنيا» والاجانب من الكافرين والله يقول:

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ [18].

وهذا النسيج الواهي من الافكار حصيلة ذهن العدو الماكر أو الصديق الجاهل الذي يسعى، ومنذ آماد التاريخ الاول، الى استعباد الناس، وسوقهم حيث يشاء وأسرهم في اودية الفقر والتخلف والفاقة والنكاية.. لقد تلاعبوا بالمصطلحات، وغيرّوا معانيها، وفقاً لاهوائهم ومراميهم، حتى جعلوا من عتلات الحركة افيوناً مخدراً، ومن القوى الفاعلة معاول تخريب توصلاً الى أهدافهم الدنيئه.

ان الحياه المعنوية لا تنفك بحال عن الحياة المادية، ولهذا قال رسول الله: «من ليس له الدنيا ليس له الاخرة».

وبالفعل فان الحاجة تجر الانسان الى ارتكاب الجرائم، واستسهال الكوارث، واحتراف الجناية، وتصدّه عن الاخلاق الحميدة، والخصال الرشيدة، وتجعلها مفاهيم جوفاء، في نظره، وكما يقال فان البطن الخاوية لا تعرف الله الاّ قليلا وأنّى للمحروم المعوز المبتلى بلقمة العيش أن يقوى على درك المعنويات والالتفات الى الروحانيات.

اذن لابد من العودة مرة اخرى، الى أحضان القرآن وحضيرة الاسلام، ومن ثمّ تأتي الخطوة الأخرى وهي عبارة عن نشر الفضائل الأخلاقية، ومكافحة القوى الاجنبية..

فقد أبان القرآن، وأوضح الاسلام السبيل ودعا الى تأسيس المجتمع الغني العزيز القوي السعيد.

* * *

● الهوامش

(١) القصص: ٧٧.

(٢) الاعراف: ٣٢.

(٣) الاعراف: ٣١.

(٤) النجم: ٤.

(٥) جامع أحاديث الشيعة ١٧: ٣٦، الوسائل ١٢: ١٧.

(٦) الكهف: ٤٦.

(٧) الوسائل ١٢: ٤٩.

(٨) انظر سفينه البحار ٢: ٣٧٧ـ٣٧٨.

(٩) م.س ٢: ٣٧٩.

(١٠) م. س: ١١٢٨.

(١١) نهج البلاغة. ٤٩٢ الحكم. ١٣١.

(١٢) لقمان: ٢٠.

(١٣) الأعراف: ١٠.

(١٤) طه: ٨٢.

(١٥) مجمع البيان ٧: ٢٣.

(١٦) مستدرك الوسائل ١: ٩٤.

(١٧) نهج الفصاحه: ٤٢٨.

(١٨) النساء: ١٤٢.

لقطات مصوّرة
من
حياة الفقيد الراحل آية الله العظمى السيّد الگلپايگاني

قدّس سرّه الشريف



الفقيد الراحل «قدّس سرّه الشريف» في أيّام كهولته.

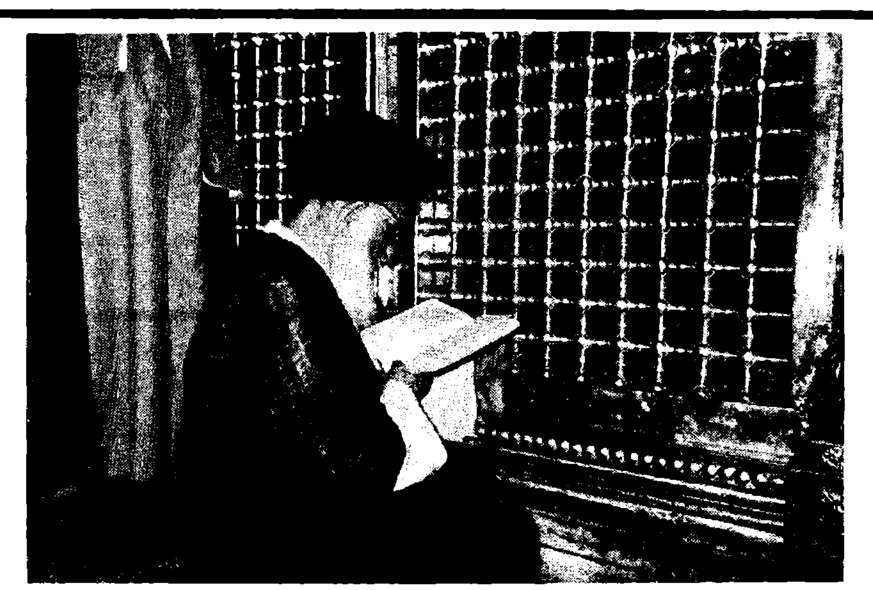


المرجع الكبير «رضوان الله عليه» في أيّامه الأخيرة.

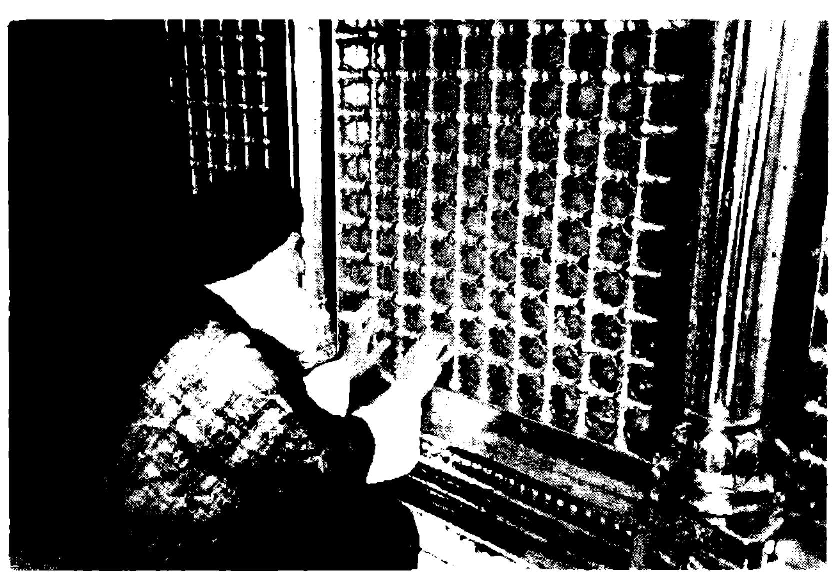


آية الله العظمى البروجردي (أثناء أداء صلاة الميت على جنازة المرحوم آية الله الآخوند صافي «ره»)

ويشاهد بجانبه آية الله العظمى الكلبايكاني «قدّس سرّه» في يمين الصورة.



سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني في حرم الامام علي بن موسى الرضا (ع).



سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني في حرم السيّدة المعصومة (سلام الله عليها).



الامام الخميني (قدّس سرّه الشريف) اثناء زيارته سماحة آية الله العظمى الگلپايگاني في منزله.



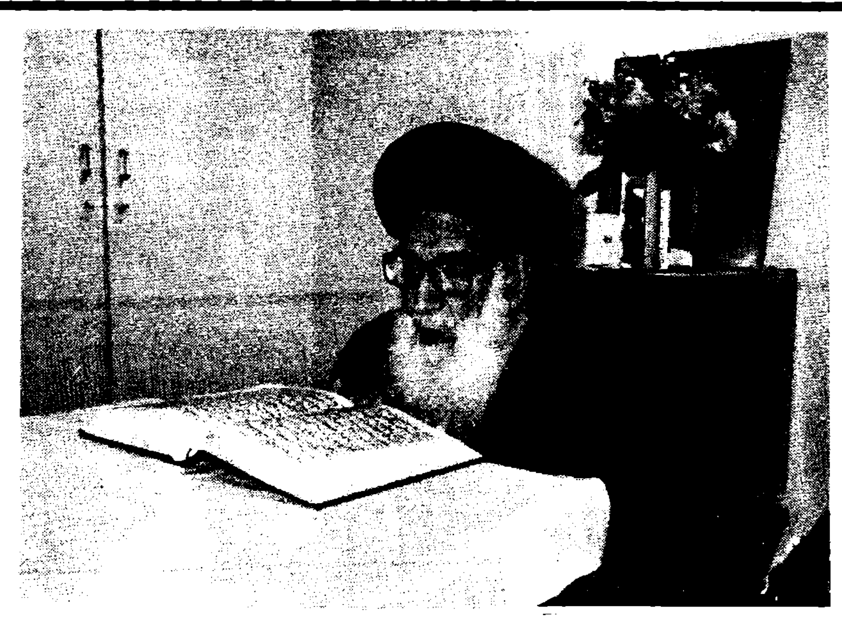
المرجع الفقيد يستقبل رئيس الجمهورية الأسبق المرحوم الشهيد رجائي.



الراحل الفقيد-قدّس سرّه- وأبناؤه في عرفات في حال المناجاة وقراءة دعاء عرفة.



جانب من مجلس التدريس للمرحوم آية الله العظمى الگلپايگاني في صحن السيّدة معصومة(ع) بعد رحيل آية الله العظمى البروجردي(رد).



عاشق القرآن اثناء تلاوته لآي من الذكر الحكيم.



جانب من مظاهر التشييع الكبير للمرجع الراحل،أعلى الله مقامه.